الجزء الثاني

بصيرا 2

مكتبة جاز

أحمد بن ماجد

مكتبة جاز
تأسست عام 2024

يسعدنا أن نرافقك في رحلة المعرفة هذه.

لضمان حصولك على أحدث الإصدارات، والمصادر الإضافية، ومتابعة جديدنا في عالم الكتب، ندعوك للانضمام إلى مجتمعنا المعرفي عبر التلغرام.

للإنضمام اضغط هنا

أو من خلال مسح الكود:

(المقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم،

والسلام على من أنصت لما بين السطور، لا لما سُطِّر فقط.

وتبًّا لكل من انتفخ غرورًا وظنّ أنه مركز هذا الكون، يدور الكوكب بإيماءةٍ منه، وتُغزل الحقائق على مقاس وهمه.

وسلامٌ على من قرأ ففهم، ومن فهم فتعمّق، ومن تعمّق فانتبه للرسائل التي دفنتُها بين طيّات الجزء الأول (بصيرًا ١)... تلك التي شارفت الآن على البزوغ، كأنها شمسٌ تنتظر من يزيح عنها غيم الشك.

في هذا الجزء، لن أطيل الحديث في المقدمة، فقد آن أوان الحقيقة.

آن أوان سقوط الأقنعة، وتُكشف الستائر عن مشاهد ظننتموها مجرد خيالٍ عابر، أو كما يسميها من يرتجفون أمام المجهول: خزعبلات.

في البداية، لم أكن أنوي أن أشارككم هذه السلسلة، كنت سأحتفظ بها لي، ولمن سيأتي من صُلبي كما جرت العادة في قبيلتنا.

لكن شيئًا ما بداخلي كان يهمس: "أخبرهم".

ولسنواتٍ طوال، راقبتُ، ومن ثم كتبتُ الجزء الأول وأنا أضع كل تفصيلة، كل كلمة، كل فاصلة، في مكانها عن عمد. جعلتها بسيطة، متواضعة في ظاهرها، ولكنها لم تكن كذلك لمن يملك عينًا ثالثة ترى ما وراء الكلام.

كنت أراقبكم واحدًا تلو الآخر، أترصّد تفاعلكم، تحليلكم، انفعالاتكم... وحدث ما لم أتوقّعه:

في اللحظة ذاتها، شعرتُ بالانبهار والخذلان.

انبهرْتُ بأولئك القلائل الذين فهموا أن الرواية لم تكن رواية فقط، بل شيفرة. أولئك الذين أدركوا أن كل رمز، كل حرف، كل مشهد... كان مقصودًا ومحمّلًا بما هو أكثر مما يظهر.

وخُذِلتُ، لأن كثيرين مرّوا عليها كما يمرّ الأعمى بجانب كنزٍ مدفون، لا يدركه ولا يشتمّ رائحته.

رأيتُ من يتقعّر في ذاته، يتكلم كأنما خُلق والعالَم دائرٌ في فلكه، يسخر من كل ما لا يطاله فهمه، ويقيس كل شيء على مقاس جهله.

ولأولئك... أقول:

هذه المرة لن أرفق الحقيقة بقفاز حرير،

لن أقدّمها مغلّفة بالمجاملات،

بل ستأتي كما هي، قاسية، صاخبة، عارية من الزينة.

وأحب أن أختم هذه المقدمة بكلماتٍ ظللتُ أتمتم بها منذ أن كنتُ ابن الثالثة عشرة:

"إن كانوا هم يدسّون السمَّ في العسل، فسأدسّ عسلي في سمومهم".

(تنويه)

(كلُّ ما هو مكتوبٌ من خيالِ الكاتب، وأيُّ تشابُهٍ بين المكتوبِ والأحداثِ الواقعيةِ فهو من محضِ الصدفةِ فقط).

استيقظ..

افتح عينيك...

هناك الكثير لتبصر به...

(الفصل الأول)

جوف الكهف (يد العون)

كنتُ طريح الأرض، أنظر إلى الأعلى بعينين مثقلتين، لا تكادان تقاومان وطأة الألم والخدر. فوقي برزت ملامح البروفيسور، وجهه كتمثال نُحت بالكبر، وعيناه تضجّان بتلك النظرة المتعالية المسمومة، مزيج من شرٍّ دفينٍ وغرورٍ مفرط، كأنّ الكون بأسره يدور في مدار كبريائه.

أدرتُ رأسي ببطء نحو يوسف ومنار... لكن ما رأيته جعَل الدم يجمد في عروقي. وجهاهما كانا خاليين تمامًا من التعبير، كأنّ الأرواح قد انسحبت منهما، ولم تترك سوى هياكل بشرية خاوية، بلا ملامح، بلا حياة. لم يعودا هما، لم يعودا أولئك الذين عرفتهم في الزنزانة. وقفا هناك جامدين، يحدّقان نحوي ببرود قاتل. تيقنت حينها... لقد تم التلاعب بهما. عمليةُ غسيلِ دماغٍ محكمة، بلا شك.

ضحكة البروفيسور شقّت الصّمت كمُديَة، كانت قهقهةً مدوّية، تعلو وتعلو حتى ارتجّت أركان الكهف بصداها.

قال بتحدٍّ ساخر:

البروفيسور:

"مهما بلغتَ من قوة، فلن تكون ندًّا لنا، يا رقم واحد! حتى وأنت في سلسلة قاف، لم تغب عن أعيننا لحظة. كنا نتابعك، نرصدك، نراقب تطوّرك كأنك فأر تجارب. وعندما عدت؟ نسيتَ أهمّ ما في الأمر... نحن نسيطر

على جميع البوابات النجمية في العالم".

كانت كلماته كالسياط، تحاول استفزازي، إذلالي. ومع ذلك، لم أنبس ببنت شفة، واكتفيتُ بابتسامة باهتة، كأنّي أُسلّم نفسي لمصيري. أغمضتُ عيني، وصوت ضحكاته ما زال يجلجل من حولي. لكن ما حدث حينها... كان خارج حدود الفهم.

فجأة، رأيت.

لم يكن حُلمًا، بل رؤيا خاطفة، خاطبت أعماقي.

رأيت قاعةً واسعة، ملكية الطابع، جدرانها مطرّزة بعبق الزمن، وظلالها تسكنها رهبة غامضة. جلس في عمق القاعة رجل، غارق في الظلام، لا تظهر ملامحه، لكنّ خاتمه الأخضر كان يلمع ببريق خارق، كأنّه شعلة أملٍ في بحرٍ من السواد. كان مغمض العينين، يستند إلى عصا ذهبية تتوّجها قطعة ضخمة من الجمشت الأرجواني، نبضها يكاد يُسمع.

وفجأة، فتحت عيني.

نورٌ غريب ومرعب انبعث منهما. عينا رجلٍ ليس ككل الرجال. رفع عصاه، وضرب الأرض ضربةً واحدة. اهتزّ القصر الملكي كلّه في لحظة، كأنّ الزمان نفسه ارتجف معها.

في تلك اللحظة، تزلزل الكهف من حولي.

فتحتُ عيني، وإذا بهزّةٍ أرضيةٍ تعصف بكل شيء. شعرتُ بشيءٍ ما يتحرك تحت جسدي، شيءٍ ضخمٍ، سريع، كأنه مخلوقٌ يتلوّى أسفل الأرض، يخترقها كرمحٍ من طاقةٍ لا تُقاوَم. كان ينبض تحت التراب... يقترب!

ثم حدث ما لم يتوقّعه أحد.

تشقّقت بعض الصخور القريبة من الكهف، وخرج من بينها رجالٌ مقنّعون، يكتسون بثيابٍ ناصعة البياض من الرأس حتى أخمص القدمين، تخفي ملامحهم لثامٌ أبيض لا يُظهر إلا أعينًا واثقة، حادّة كالسيوف. وعلى صدورهم كان هناك هلالٌ أخضر يتوسّط ملابسهم، يلمع بنورٍ باهتٍ لكنّه يشعّ بعظمةٍ غريبة.

ظهروا فجأة، وانتشروا كأنهم خُلقوا من رحم تلك الهزّة، وتوجّهوا مباشرةً نحو فرقة "الغراب القاتم".

وانفجر القتال.

أصوات السيوف التي كانوا يحملونها تتقاطع، والنيران تتراقص في عيون المقنّعين، وكأنها ملحمة من عصور ما قبل التاريخ. أحدهم اقترب منّي، رفعني بسهولةٍ على كتفه، وبدأ ينسحب. كان يتحرك بسرعةٍ خاطفة، خطواته تكاد لا تلامس الأرض.

رأيت آخر يتّجه نحو البروفيسور، يُمسكه من عنقه ويبدأ بخنقه بقوة. لكن قبل أن يلفظ الأخير أنفاسه، تمتم بكلماتٍ مبهمة... اختفى! لم يهرب، بل تبخّر حرفيًا كما لو أنّه دخانٌ تلاشى في الهواء!

كنت أراقب، وعيناي تغالبان الإغماء. الدماء تنزف منّي، وكل نبضةٍ في قلبي أضعف من سابقتها. رأيت أحد المقنّعين البيض يضرب يوسف ومنار براحته فقط، فسقطا أرضًا كدمى مفكّكة دون أدنى حركة.

وفجأة، أحد الغربان انقضّ على رفيقه، وغرس خنجره في جنبه!

انقسام؟ خيانة؟ بدا أنهم يتنازعون، صراع داخلي ظهر فجأة في صفوفهم.

وسط هذه الفوضى، رأيت رجلًا من أصحاب اللثام الأبيض يحمل "آصف" على كتفه، ويهرب به بسرعةٍ تفوق الوصف. حركته لم تكن بشرية، قدماه لم تُرَيا، كأنه صاعقة تسابق الريح.

ثم اقترب أحدهم منّي، وجهه لا يُرى، لكن صوته جاء هادئًا، حاسمًا:

"أعتذر، أيها السيّد الشاب... لكنها إجراءاتٌ أمنيّة".

مدّ يده، وطرق بأصابعه على جبهتي. وفي اللحظة ذاتها...

غاب الوعي.

وساد الظلام.

وفي تلك اللحظة...

اللحظة التي لامست فيها قدما الأكحل أرض الكهف المهجور، لم تكن مجرد عودةِ رجل، بل كانت عودةً قُدِّر لها أن تُسمَع في طيّات الغيبات، في صرخات الأرواح، وفي تمزّق الطلسم الأخير.

من الناحية الأخرى من العالم، وفي ذات اللحظة... حدث ما لم يُتوقَّع..

في الجزائر، انكسر صمت الجبال بنحيبٍ لا يعرف مصدره أحد.

وفي عمق الصحراء، دوّت صرخات سحرة الليل في المغارات، وبدأت الأحجبة تحترق بين أيديهم، والأبخرة تتحول إلى دخانٍ رماديٍّ كثيف.

في وِديان أوزبكستان، حيث تختبئ العائلات العتيقة المتوارثة للعلوم المظلمة، سقطت الفتيات ذوات العيون المسحورة أرضًا، وارتطمت أدوات الطقوس بالصخر وتكسّرت، وكأنّ يدًا خفيّة مزّقتهنّ من الداخل.

وفي جبال عُمان...

علت صرخات من عُرفوا بارتباطهم بأعتى الجانّ، ارتفعت ثم انطفأت فجأة.

توقفت الطلاسم عن العمل.

تماثيل الحراسة تفتّتت، والدماء المسفوكة على الأحجار عادت ماءً.

لكن ذلك لم يكن كلّ شيء...

في وادي "جندير" بكشمير، حيث لا يدخل إلا الأقوياء من السحرة، وُجد أحدهم جاثيًا، يعضّ على راحته، يهمس بفمٍ مرتجف:

"الطاقة التي عادت اليوم... هي طاقةُ من لا نُطيق اسمه".

وفي إحدى غابات أفريقيا الوسطى، عند كوخٍ معلّق فوق الأشجار، كان شيخٌ أسود البشرة، ذو عيونٍ بيضاء لا ترى، يهزّ رأسه ببطء وهو يقول:

"لقد عاد... وحين يهتزّ الحوض، فاعلم أنّ الموازين ستنقلب".

وفي الهند، عند نهر "الغانج"، سقط كهنة المعبد الهندوسي أرضًا، والأجراس التي كانت تُقرع طقسيًا... توقفت.

في هاييتي، عاصمة طقوس الفودو، تحطّمت أصنام

الخشب تلقائيًا، وبطلت أعمالهم، وتوقفت أرواح "اللوى" عن التجاوب.

السحرة الأقوياء -أولئك القادرون على الثبات رغم الزلزلة- تماسكوا واقفين، يتصبّب العرق من جباههم، أعينهم مشتعلة بهالة ضوءٍ حمراء أو زرقاء، أيديهم مشدودة في الهواء، وكأنهم يقاومون طوفانًا غير مرئي.

ثم بصوتٍ واحد، بلغاتٍ شتّى، قالوا:

"لقد عاد..."

لكن البشر الصالحين...

في زوايا المساجد، وفي قلوب النُّسّاك في الجبال، شعروا جميعًا بما هو أعظم من الخوف.

شعروا بالطمأنينة...

بنسمةٍ خفيفة...

برجفةِ حبٍّ لا تفسير لها...

رجلٌ كفيفٌ في دمشق وقف دون عصاه وقال:

"النور قد عاد، وأبناءُ الظلمة وُضعوا على المحك".

وفي أحد الجبال البعيدة عن العالم...

خرج عجوزٌ من ظلمة الكهف، يرتدي عباءةً سوداء مهترئة، كأنّها ثوبُ الزمن.

عصاه من خشب السِّدر، مشروخة لكنها تقف، شاهدة على كلّ الأجيال.

رفع عينيه نحو السماء.

كانت النجوم تتلألأ كما لم تفعل من قبل.

عيناه احمرّتا لا من التعب، بل من صدق الرؤية.

جسده يرتعش، وشفَتاه تتمتمان بشيءٍ لا يُفهَم، ثم... بصوتٍ مرتجف:

"لقد هزّنا عند مولده... وها هو يهزّنا عند قدومه".

ثم خرَّ على الأرض.

سقط مغشيًا عليه، بينما طيفٌ خافت من النور غمر المكان، كأنّ السماء نفسها استقبلت تلك الخطوة الأولى للأكحل، وأعلنت أن الأرض لم تعد كما كانت..

انفرجت أجفاني ببطء، كأنّها تُزاح عن نافذةٍ عتيقةٍ طُليت بالغبار لسنواتٍ طويلة.

كلّ شيءٍ من حولي بدا مشوَّشًا... ضبابٌ رماديٌّ يتراقص فوق بصري، وأصواتٌ بعيدةٌ تهمس من الأعماق. رفعتُ يدي المثقلة، فرأيت لفافةً بيضاء تُطوّق كفّي، مضمدةً كجسدٍ جريحٍ استعاد الحياة بعد احتضارٍ طويل.

ترددت أنفاسي بين الضلوع، متثاقلةً كأنّها تعود إلى قفصي الصدري بعد غيابٍ عن جسدي.

نظرتُ إلى السقف...

كان مألوفًا.

تشققاتُ الجصّ، وتلك البقعة الداكنة في الركن الأيسر، والظلّ المتمايل مع الضوء... كلّ شيءٍ فيه يهمس لي:

"أنت تعرفني".

وضعتُ راحتي على رأسي.

دوارٌ خفيفٌ ضرب جبهتي كصفعةٍ من ذكرى. جلستُ ببطءٍ على السرير، التقطتُ كوب الماء الموضوع بجواري وسكبته على وجهي دون تردّد.

الماء تسلّل إلى مسامي... باردٌ، واقعيٌّ، يقين.

أنا لستُ في حلم.

أنا... هنا.

عدت.

نظرتُ حولي، وببطءٍ بدأت الحقائق تتسلل إلى ذهني المرتبك:

هذا...

هذا منزلي.

منزلُ الطفولة، الذي رحلتُ عنه وأنا لم أزل طفلًا في الثامنة، قبل ثلاثة عشر عامًا كاملة.

وقفتُ بتثاقل، كأنّي أسحب جسدي من تحت أنقاض زمنٍ ثقيل.

الغرفة كانت غارقةً في الغبار، وفي الصمت.

كأنّها أُغلقت يوم اختفائي، وبقيت تنتظرني بصبرٍ أبكم.

تقدّمتُ خطوة، ثم أخرى.

توقّفتُ أمام الطاولة الخشبية القديمة...

وعليها، كانت هناك جريدةٌ بلون الصفرة، مطويّةٌ بعناية، وعلى صفحتها الأولى صورةٌ باهتةٌ لي، وليوسف، ولمنار.

العنوان كان صاخبًا:

"اختفاءٌ غامضٌ لثلاثة أطفالٍ يهزّ البلاد"

بدأتُ أقرأ، كمن يقرأ فصلًا من حياته كُتب بيدٍ غريبة:

"في حادثةٍ أثارت الرأي العام، اختفى ثلاثة أطفالٍ من حيٍّ واحدٍ دون أن يتركوا خلفهم أثرًا.

ورغم تعدد النظريات، إلا أنّ الحقيقة بقيت مجهولة.

عائلة أحد الأطفال غادرت البلاد بعد سنواتٍ من البحث، أمّا والد أحدهم، والذي كان من رجالات الدولة المعروفين، فقد اختفى فجأة، دون وداع، دون تفسير.

مرّت السنوات، وذابت الأصوات، وبقي الفراغ وحده شاهدًا على الحكاية".

وضعتُ الجريدة بهدوء، كمن يُعيد ملفّ جرحٍ لم يُشفَ بعد.

إلى جانبها، كانت هناك ورقةٌ بيضاء، بسيطة، كُتب عليها بخطٍّ جافّ:

"ابحث عن عمل".

وبجانبها شنطةٌ حديديةٌ صغيرة.

فتحتها...

كانت ممتلئةً بالأوراق النقدية، مرتّبةً بعناية، تكفيني لعامٍ كامل، وربما أكثر.

ارتبكت...

من؟

من وضع الماء؟

من كتب الورقة؟

من أحضرني هنا؟

ومن أين أتت هذه الأموال؟

كلّ شيءٍ بدا مشوبًا بالغموض، كأنّ يدًا خفيةً رتبت هذا المشهد بعنايةٍ قبل أن أفتح عيني.

لكنّي تمالكت نفسي.

قلتُ:

"دعني أتفقد المنزل، ربما أجد ما يجيب على أسئلتي".

***

خرجتُ من الغرفة، وأخذتُ أسير ببطءٍ في أروقة البيت.

جدرانه كانت مكسوّةً برائحة الغياب، وأرضه تحمل آثار خطواتي القديمة.

كلّ غرفةٍ دخلتُها، أفرغت في قلبي كوبًا من الذكرى.

غرفةُ المعيشة... ضحكات أبي وأمي.

المطبخ... صياح أمي حين أُسقط كوب الحليب.

الدرج المؤدي إلى السطح... خطاي الصغيرة تهرول خلف طائرةٍ ورقية.

لكنّي توقفتُ أمام بابٍ واحد.

بابٍ كان مغلقًا دومًا على رجلٍ... اسمه علي.

دفعتُ الباب ببطء، وقلبي يرتجف.

الغرفة كما كانت.

محتوياتها تشهد لصاحبها.

رائحة عطره لا تزال تسكن الوسادة، وصوته يهمس من بين الكتب، والصور، والستائر.

اقتربتُ من خزانته، فتحتها...

وفي الداخل، كان ثوبه الأسود معلّقًا.

مددتُ يدي المرتعشة، وسحبته.

ضممته إلى صدري، ثم لبسته.

كان يناسبني تمامًا...

ذلك الرجل الذي كنت أظنّه عملاقًا في طفولتي، أصبح ثوبه يناسبني كأنّي وريثه.

وقفتُ أمام المرآة.

لم أرَ نفسي... بل رأيتُ عليًّا في وجهي.

دموعي تجمّعت عند حوافّ عينيّ، لكنها لم تسقط.

تمالكتُ نفسي... وخرجت.

***

وقفتُ أمام الباب الرئيسي.

وضعتُ يدي على المقبض، وسحبته ببطء.

أشرقت الشمس على وجهي لأول مرةٍ منذ ثلاثة عشر عامًا.

لم تكن شمسًا عادية... كانت شمسًا تخترقني، كأنّها تبحث عن الحقيقة في داخلي.

خطوتُ خارجًا...

خرجتُ من عالم الظلال، إلى عالمٍ ينبض بالحياة.

المدينة أمامي...

الناس، السيارات، الضجيج، الهواء الممتلئ بروائح الطعام والدخان والركض...

كلّ شيءٍ حيّ، لكن غريب.

بدأتُ أمشي، أتمهّل.

كلّ من مرّ بجانبي رمقني بنظرةٍ مطوّلة، كأنهم يشعرون أنني لا أنتمي.

كلّ شيءٍ تغيّر...

الناس، الشوارع، الأبنية، حتى نظرات المارّة لم تعد كما أذكرها.

حتى الحيوانات، حين مرّت قطةٌ بجانبي، نظرت إليّ نظرةً مريبة، ثم ولّت هاربة.

أدركتُ حينها...

أنا لم أعد منهم... لكنني هنا.

***

واصلتُ المشي، وعيناي تتجوّلان في المدينة كمن يراها للمرة الأولى. كلّ شيءٍ فيها كان مختلفًا، مسرّعًا، صاخبًا، كأنّ الأرض التي كنت أعرفها قد تبدّلت بالكامل.

المباني ارتفعت، اللوحات تغيّرت، الأصوات امتزجت بموسيقى اصطناعية لا تُشبه صخب الحياة الذي عرفته.

خطوتُ إلى بقالةٍ صغيرة، رغبةً في بعض الماء. دخلتُ وأنا أجرّ خطاي بهدوء، وعيناي تلاحقان تفاصيل المكان...

لكن ما أثار استغرابي حقًا لم يكن ترتيب الرفوف، ولا واجهة الثلاجات الزجاجية... بل تلك الكاميرا الصغيرة التي تتدلّى من السقف، ترمق الداخلين بنظرةٍ ثابتة.

كاميرا مراقبة... حتى في بقالةٍ كهذه؟

أدركتُ حينها... أن الزمن لم يمرّ، بل ركض.

عدتُ إلى الخارج، والماء لا يزال في يدي. تابعتُ رحلتي عبر المدينة، أتنقّل من رصيفٍ إلى آخر، أتلمّس الأرض كمن يعود إلى وطنٍ نُسيَت ملامحه.

وعند مروري بأحد المباني، استوقفتني واجهته... مطعمٌ كبيرٌ حديث، تعلوه لافتةٌ مضيئة.

دفعني فضولُ العودة للدخول، ربما لأسترق لحظةً من الهدوء، أو لأجرّب شيئًا يشبه الحياة التي فقدتُها.

دلفتُ إلى الداخل.

الأنظار التفتت نحوي...

زبائن، عمّال، حتى الأطفال. كأنّ دخولي أيقظ شيئًا في المكان.

جلستُ على طاولةٍ قرب النافذة، أحاول تجاهل العيون المحدّقة.

اقتربت مني فتاةٌ شابة، تحمل قائمة الطعام.

بخطى هادئة وضعت القائمة أمامي، لكن نظراتها... كانت غريبة، مشوبةً بشيءٍ بين الدهشة والرعب والحنين.

كأنّها تعرفني... كأنّها كانت تنتظرني.

ثم، وبدون أن تنبس بكلمة، استدارت فجأةً وتوجّهت نحو طاولةٍ في زاوية المطعم.

كان يجلس هناك رجلٌ بدا في أواخر الخمسين، بملامح وقورةٍ وصدرٍ رحب.

همست الفتاة في أذنه وهي تشير إليّ بعينها.

ثم نظر الرجل نحوي...

نظرةٌ امتزج فيها الذهول، والحيرة، والاعتراف.

توترتُ، لم أفهم.

هل اقترفتُ خطأ؟

هل دخلتُ المكان الخطأ؟

نهضتُ من مقعدي، قرّرتُ الخروج قبل أن أُحرج نفسي أكثر.

وما إن بلغتُ عتبة الباب...

حتى أحسستُ بكفٍّ تُلامس كتفي.

استدرتُ.

كان الرجل قد اقترب مني، والفتاة تقف خلفه، عيناها مغرورقتان بالدموع.

رمقني بنظرةٍ طويلة، ثم ارتعشت شفتاه وهو يقول بصوتٍ مبحوح:

"لقد غبتَ طويلًا، أيها الأكحل..."

وقبل أن ألتقط أنفاسي، انفجرت الفتاة خلفه بالبكاء، تنهيدةً مكتومةً انفجرت بعد صبرٍ طويل.

تجمّدتُ.

قلبي خفق بقوة.

من يكون هذا الرجل؟

من هذه الفتاة؟

حاولتُ جاهدًا أن أستخرج من ذاكرتي شظايا تدلّني عليهما، لكن الزمن كان كالسحاب... لا يُمسَك.

نطقتُ دون تفكير:

"اعذرني أيها العم... لم أتعرف عليك، هل تذكّرني باسمك؟".

مسح الرجل دموعه براحته، وقال بابتسامةٍ حزينة:

"بالطبع ستنساني... لقد كنتَ تعالج الكثير من المرضى...

أنا سعد... وهذه ابنتي حور... أتتذكرنا الآن؟".

أغمضتُ عيني، وبحثتُ داخلي، في زاويةٍ بعيدةٍ من الذاكرة...

وهناك، ظهرت صورة...

فتحتُ عينيّ، وابتسمت:

"آه... أيها الزمن... ما أكثر ما تُغيّر فينا".

مددتُ يدي إليه، وقلتُ بحرارة:

"كيف حالك، أيها العم سعد؟".

ثم التفتُّ إلى الفتاة:

"وكيف حالك، يا حور؟".

ضحكت وهي تمسح دموعها، وقالت بصوتٍ متهدّج:

"لم أنسَك يومًا... كنتَ تقول لي إنني سأُشفى، وها أنا أعيش، وأراك أمامي".

ابتسمتُ، لكنها ابتسامةٌ ثقيلة، مثقلةٌ بالحسرة.

تحادثنا قليلًا، ثم ودعتُهما بلطف، وخرجتُ من المطعم، أمشي ببطء، والهواء من حولي يحمل عبق الذكرى.

كلّ خطوةٍ كنتُ أخطوها كانت تغرس حسرةً في صدري.

ثلاث عشرة سنةً... طارت من عمري كأوراق خريف.

لكنّ أفكاري لم تكتمل...

فجأةً، ودون إنذار...

شعرتُ بضربةٍ قويةٍ على مؤخرة رأسي، كأنّ العالم انطفأ دفعةً واحدة.

كلّ شيءٍ دار حولي، ثم انكسر.

تهاويتُ على الأرض، والعالم يغيب تدريجيًا عن ناظري...

آخر ما رأيتُ قبل أن يُغشى عليّ... كان ظلًّا أسودَ يقف فوقي.

ثم...

لا شيء.

(الفصل الثاني)

(الهلاليون) (علم النور)

سكونٌ ثقيل خيّم على العالم.

صمتٌ لا يُشبه الصمت، بل هو فراغ، كأنّ الزمن توقّف عن التنفّس...

لا صوت... لا نور... لا شكل.

ثم... همهمة بعيدة، كأنها قادمة من عمق الذاكرة.

صوت خطوات... ثقيلة، مبلّلة، تتردّد في فضاءٍ لا جدران له.

وعيناي؟

محبوستان خلف جفنين من رصاص.

لكن شيئًا ما... كان يعيدني ببطء، كأنني أُسحب من قاعٍ مظلمٍ نحو سطح الماء.

فتحتُ عيني فجأة.

لم يكن المكان مألوفًا.

كنتُ ممدّدًا على فراشٍ حجريٍّ مغطّى بفرشٍ من صوفٍ خشن، في غرفةٍ بلا نوافذ.

الجدران من حجرٍ كلسيٍّ قديم، والسقف مقبّب كقِباب المقابر العتيقة.

كانت مشاعل تتدلّى من مشابك نحاسية، تشعل ضوءًا برتقاليًا خافتًا، يتراقص على الحوائط كأشباحٍ رطبة.

الهواء مشبعٌ برائحة الطين الممزوج بالبخور.

كأنّ المكان وُجد قبل ألف عام... ولم يخرج منه أحد.

جلستُ ببطء، رأسي يئنّ من الضربة، كأنها لا تزال تُعيد صداها داخل جمجمتي.

وضعت يدي على صدغي، أتحسّس موضع الألم... ثم سمعت الخطى.

صوتُ نعلٍ جلديٍّ يخطو بثقلٍ وهدوء.

ثم ظلٌّ امتدّ من فتحة الباب المقوّس، قبل أن يُفتح بهدوء.

دخل رجلٌ متوسط القامة، عريض الكتفين، يرتدي عباءةً بيضاء يتوسّطها شعارٌ غريب... خمس هلالاتٍ خضراء مصطفّة بشكلٍ دائريٍّ، يسطع منها نورٌ خافت كأنها تخفق بالحياة.

غطاءُ رأسه وقناعٌ خفيف يُخفي وجهه، لكنه لم يُخفِ عينيه...

عينان سوداوان، عميقتان، فيهما حزنٌ قديم وطمأنينةٌ لا تفسير لها.

وقف أمامي بصمتٍ لحظات، ثم قال بصوتٍ أجشّ، متّزن:

"ظننتُ أنك ستبقى غائبًا وقتًا أطول، يا أكحل".

لم أُجب.

كانت عيناي تتفحّصانه، أحاول التقاط أي ملامح مألوفة.

لم يكن وجهه مكشوفًا، لكن شيئًا فيه... نبضٌ ما... جعل قلبي ينذرني بالحذر، وفي الوقت نفسه بالثقة.

اقترب خطوةً وقال:

"من حسن حظك أننا كنا نراقبك...

ومن سوء حظك... أن غيرنا كان كذلك".

جلستُ على طرف السرير، أنظر حولي في الغرفة، ثم سألته بصوتٍ مبحوح:

"من أنتم؟ وأين أنا؟".

أجاب دون تردّد:

"أنت في أحد مراكزنا... نحن (الهلاليون)".

صمتّ.

الاسم اخترقني.

"الهلاليون...؟".

قال وهو يشير إلى صدره، حيث الشعار يتوهّج بلون الزمرد:

"نحن المنظمة التي أُسّست لحماية التوازن بين النور والظلام.

خُلقنا لنرصد... لنتدخّل فقط حين تختلّ الكفّة".

ثم أضاف بصوتٍ خافتٍ أشبه بالاعتراف:

"وشعارنا، هذه الهلالات الخمس...

ليست زينة.

كلّ هلالٍ منها يمثّل قسمًا، وطاقةً، ووعدًا.

حين تتحد... تفتح الدائرة".

أغمضتُ عينيّ لحظةً...

كان في صوته صدقٌ، وفي حضوره رائحةُ نورٍ قديم.

ثم قلت، وأنا أفتح عينيّ ببطء:

"ولِمَ خطفتموني؟".

ابتسم ابتسامةً جانبية، ومال برأسه قليلًا وقال بنبرةٍ خفيفة:

"خطفناك؟".

ضحك بهدوء، وكأن الفكرة نفسها مضحكة، ثم أضاف:

"لو لم نكن هناك، لكان المتنوّرون أوّل من أمسك بك.

كنت تتجوّل في الشوارع كالأبله...

لا تتنكّر، لا تُخفي أثرك، لا تُخفض هالتك... كأنك تناديهم باسمك!".

أطرقتُ برأسي قليلًا، وتنهدت، ثم تمتمت:

"يبدو أن كابوس المتنوّرين سيلازمني حتى آخر أنفاسي".

رفعت رأسي إليه وقلت:

"لكن لديّ سؤالان..."

رفع حاجبه مازحًا وقال:

"سؤالان فقط؟ لا يُصدّق!".

قلت بتردّد:

"في الحقيقة... ثلاثة.

أولًا: بحسب ما استنتجت، أنتم نفس المنظمة التي أنقذتني أنا وآصف من المتنوّرين عند عودتنا عبر البوّابة النجمية...

سؤالي هو: كيف علمتم بعودتي؟ ولماذا تريدون حمايتي؟

وثانيًا... هل تعرفون أين آصف؟".

ابتسم وهو يهزّ رأسه:

"ثلاثة أسئلة دفعة واحدة؟ ألا تعرف أن لكلّ سؤالٍ وزنه؟".

ثم تنحنح، وأجاب بنبرةٍ خفيفة الظلّ:

"سأجيبك على واحدٍ فقط الآن... والبقية نؤجّلها إلى غرفة الطعام".

استغربت.

قلت في داخلي:

"غرفة الطعام...؟".

أيّ نوعٍ من المنظمات السرّية لديهم غرفة طعام كما لو كنّا في نزلٍ عائليّ؟

قاطع شرودي بقوله:

"نريد حمايتك... لأنك مفتاح البرزخين.

ولأن مَن في الظلال بدأوا يتحرّكون.

وأنت، شئت أم أبيت... جزء من الحرب القادمة".

تراجعت خطوة، وكرّرت:

"مفتاح البرزخين؟

ومن الذي بدأ يتحرّك؟

وما تعني بالحرب القادمة؟!".

رفع يده ليقاطعني وهو يتّجه نحو الباب:

"قلت إنني سأجيبك على سؤالٍ واحدٍ فقط، يا أكحل.

أما البقية... فستُفهمها حين ترى ما ينتظرك.

اتبعني".

فتح الباب، وخرج بخطًى واثقة.

وبقيتُ لحظةً واقفًا هناك...

بين أسئلتي المتكاثفة، وصدى كلماته الأخيرة:

مفتاح البرزخين...

الحرب القادمة...

الهلاليون...

ثم رفعتُ نظري وتبعتُ الرجل بخطًى سريعة، كمن يخشى أن يتأخّر عن قدره.

كان الممرّ في بدايته ضيّقًا، يضيق على الروح لا الجسد، ونوره خافت كوميض شمعةٍ في نفقٍ طويل.

لكن مع كلّ خطوةٍ كنا نخطوها، كانت الجدران تتراجع، والسقف يرتفع، والنور يشتدّ...

كأننا ننتقل من بطن الأرض إلى قلبها النابض بالحياة.

وما إن خرجتُ من عنق الممرّ، حتى وجدتني أمام قاعةٍ هائلة، بدت لي كأنها قلب المكان.

قاعةٌ دائرية، تحتضن في وسطها طاولةً خشبيةً ضخمة منحوتة على شكل خمس هلالاتٍ متشابكة، كأنها نُحتت من جذع شجرةٍ خرافيةٍ لا تنمو إلا في عالمٍ ما بين العوالم.

الجدران من حجرٍ كلسيٍّ ناعم، كلّ زاويةٍ من الدائرة تحتضن مدخلًا إلى ممرٍّ غامض، كأنّ كلّ دربٍ منها يُفضي إلى سرٍّ أو عهدٍ قديم.

أما السقف، فكان قُبّةً إسلاميةً مهيبة، نقوشها هندسيةٌ متداخلة بدقّة معمارٍ لا يُخطئه القلب، تلتفّ كأنها تُسبّح، وفي أعلاها فتحةٌ زجاجيةٌ دائرية تُنير الداخل بضوءٍ طبيعيٍّ مفلتر.

توقفتُ أتأمّل المكان، عيوني تتنقّل من جدارٍ إلى زاوية، من الهلالات إلى النقوش، من روحي إلى ذاكرتي.

كان المكان يتنفّس...

بل كان جميلًا لدرجةٍ تثير القشعريرة.

ابتسم الرجل وهو يلاحظ شرودي، ثم قال بنبرةٍ مرحة:

"أراك من محبّي الهندسة... أو من ضحاياها!".

ابتسمتُ رغمًا عني، ثم قلت:

"المكان هنا... ليس فقط جميلًا، بل فيه شيءٌ غريب...

كأنّه مبنيّ ليوقظ شيئًا نائمًا بداخلك".

ضحك الرجل بخفّة، كانت ضحكته خفيفةً على الأذن، لكنها مشبعةٌ بالمعرفة، ثم قال:

"كلّ شيءٍ في هذه الحياة، يا أكحل، يُؤثّر على الإنسان... حتى الجدران التي تحيط به.

الهندسة ليست حجارةً مكدّسةً فحسب، بل طاقةٌ محكومةٌ بمعادلاتٍ خفيّة.

عندما تُبنى الأماكن بزوايا مقدّسةٍ ونِسَبٍ مدروسة، تفتح مساراتٍ في النفس لا تفتحها الكلمات، وتشحذ الروح كما يُشحذ السيف.

الهندسة القديمة... كانت لغةً سرّيةً بين العقل والكون، تُنحت على هيئة معابد، قِباب، أهرامات، وأقواس...

تُقال دون أن تُنطق".

صمت قليلًا، ثم نظر إليّ نظرة العارف:

"وما شعرتَ به هنا... حقيقي.

لقد دخلتَ مجالًا طاقيًا أعاد ترتيب ذبذباتك الداخلية... دون أن تدري".

لم أُجبه، فقط أومأت برأسي ببطء.

كنت مشغولًا بافتراس كلّ تفصيلةٍ من هذا البناء الفريد، كأنني أمشي بين أسطر كتابٍ قديم، كُتب بالحجر والنور، لا بالحبر والكلمات.

تابعنا السير، ثم انعطفنا عبر أحد الممرّات الجانبية.

لم تمضِ سوى ثوانٍ حتى انفتح أمامنا فضاءٌ جديد.

قاعة طعامٍ عظيمة، سقفها يرتفع على هيئة قُبّةٍ مهيبة، نقوشها الدقيقة تتشابك كشبكةٍ من أسرارٍ سحيقة، تتدلّى منها مصابيح نحاسية، وقد انكسرت أشعة النور عليها كأنها تتوضّأ.

كان المكان ينبض بالحياة.

رجالٌ يرتدون عباءاتٍ بيضاء نقية، وشعارات "الهلاليون" تتوسّط صدورهم: خمس هلالاتٍ خضراء مصطفّة في شكل دائرة.

لكن...

لاحظت شيئًا غريبًا.

على أكتافهم، كانت هناك هلالاتٌ إضافية، بعضها يحمل هلالًا واحدًا، وآخر اثنين، وثالث ثلاثة، حتى رأيت من يحمل أربعة.

التفتُّ إلى الرجل الذي يرافقني...

وعيناي توقّفتا على كتفه.

أربعة هلالات.

سألته، والدهشة تتسلّل إلى نبرتي:

"لماذا تختلف عدد الهلالات على أكتافكم؟".

ابتسم وقال:

"لأنها رتبتنا، يا أكحل...

كلّ هلالٍ يمثّل درجةً من القوة، والالتزام، والفهم".

ثم رفع يده، وبدأ يشرح:

"الهلال الأول: يُمنح للداخلين الجدد، المتدرّبين الذين أبدوا استعدادهم للطريق.

الهلال الثاني: يُمنح لمن أكملوا تدريبهم وأدّوا أولى مهامهم بنجاح، وأثبتوا انضباطهم.

الهلال الثالث: لا يُمنح إلا لمن خاض معركةً واحدةً على الأقلّ في مواجهة الظلال، ونجا منها.

الهلال الرابع: لأصحاب الفطنة العالية، والذين تميّزوا في قيادة المهمات الحسّاسة.

أما الهلال الخامس..."

وتوقّف، سكنت ملامحه للحظة، كأن شيئًا في داخله تراجع أو تردّد.

نظر إليّ مطوّلًا، وعيناه تلمعان بنوعٍ غريبٍ من التقدير والرهبة، ثم قال بنبرةٍ خافتة، لكنها مشبعةٌ بالمعنى:

"فلم يُمنح... إلا لواحدٍ فقط.

وهو قائدنا".

حدّقتُ فيه، وقلبي ينبض بسؤالٍ غريزيٍّ خرج من فمي دون تفكير:

"ومن هو قائدكم؟".

لم يُجب.

بل اكتفى بنظرةٍ غامضة... لا تقول شيئًا، لكنها لا تُخفي أن خلفها ألف سرّ.

ثم قال وهو يشير بيده:

"هيا، دعنا نأكل".

دخلنا إلى عمق القاعة.

كنت أراقبهم.

وجوهٌ مختلفة، شابةٌ وعجوز، سمراءُ وفاتحة، لكن شيئًا ما كان يوحّدهم.

ملامح الطمأنينة.

وهيبة الصمت.

وبريق عيونِ من عبروا الظلام وعادوا يحملون النور.

جلسوا على طاولاتٍ خشبيةٍ طويلة، يأكلون معًا ببساطةٍ كأنهم إخوةٌ منذ الأزل.

ضحكاتٌ متناثرة، حكايات، دعوات، ومشاكسات خفيفة، كأنهم يقاتلون العالم بالصداقة.

وفي مقدّمة القاعة، طاولةٌ حديدية أنيقة، خلفها خمس شخصيات: رجلان، وثلاث نساء، يقدّمون الطعام بوجوهٍ بشوشة، يملؤون الأطباق لكل من يأتي إليهم...

كأنهم يخدمون أحبابهم لا زملاءهم.

كان المشهد ساحرًا، دافئًا، حقيقيًّا...

أشبه بعائلةٍ لا يفرّقها شيء... إلا الموت.

تقدّمتُ أكثر خلف الرجل، ومع كل خطوةٍ أخطوها كانت العيون تلتفت.

العشرات من الهلاليين بدأوا ينظرون نحوي...

نظرات حذرة، متسائلة، بعضها حنون، وبعضها فيه ذهول، وآخر فيه... حزنٌ لا أفهمه.

تابعتُ السير خلف الرجل داخل قاعة الطعام، وخطاي التي كنت أظنها خفيفة راحت تُحدث وقعًا داخليًّا لا أستطيع تفسيره... كأنّ الأرض التي أمشي عليها تعرفني، وتُخبر الآخرين عني.

العيون...

كانت تُراقبني.

لكنها لم تكن نظراتِ فضولٍ عابرة، بل نظرات من رأى علامةً أو قرأ نبوءةً، وفي ملامحي وجد لها الصدى.

بعضهم مال برأسه إلى رفيقه وهمس، وآخرون توقّفوا عن مضغ لقمتهم، وكأنّ مجرّد وجودي أعاد فيهم ذكرى أو أثار يقينًا.

وصلنا إلى منتصف القاعة، فأشار الرجل بكفّه نحو طاولةٍ خشبية دائرية تستقرّ تحت أعمدةٍ حجرية شاهقة تنتهي إلى قبّةٍ من الزجاج الأخضر، تنبعث منها هالةُ نورٍ ناعمٍ تُشبه وهج الفجر.

قال بنبرةٍ هادئة:

"اجلس يا أكحل... هذا المكان خُصِّص لك".

تردّدتُ لحظة... ثم جلست.

الكرسي لم يكن عاديًا، بل بدا وكأنه نُحت من صخرةٍ واحدة، راسخٌ في الأرض كأنه جزءٌ منها.

وتحت يديّ، على سطح الطاولة، كانت الهلالات الخمس منحوتة بدقّة، وكأنها نبتت من الخشب لا نُقشت عليه.

شعرتُ بأنّ لها طاقةً... كأنّها تنبض ببطءٍ تحت أصابعي.

جلس الرجل بجانبي، وبدأ الطعام يُقدَّم... خبزٌ طازج، وحساءٌ تفوح منه رائحة الأعشاب، ومشروبٌ شفافٌ برائحة الندى والنعناع، لكن... لم أكن جائعًا.

كنت مشغولًا بما هو أعمق.

صوتٌ داخليّ بدأ يعلو... لا يشبه حديث النفس، بل كأنّه همسٌ قديمٌ قادمٌ من عالمٍ آخر.

سألتُه بصوتٍ خافت:

"كل هذه العيون... لماذا تنظر إليّ وكأنها تعرفني؟".

أجاب الرجل دون أن يلتفت، وكأنّه يعرف السؤال قبل أن يُسأل:

"لأنهم لا ينظرون إليك فقط، بل إلى ما عدتَ به.

بعضهم فقد إخوةً في البوابة التي اجتزتَها، وبعضهم... رأى ملامحك في رؤياه".

رفعتُ حاجبي:

"رؤيا؟".

قال:

"نعم يا أكحل... منذ أن عَبَرتَ البوابة النجمية تغيّرت موجات هذا العالم، وكأنّ بوصلته تحوّلت.

بعض الأرواح بدأت ترى إشاراتك... أنت لا تدري بعد، لكنك تسير على أثرٍ ليس لك وحدك".

ولم ألبث أن أردّ حتى دوّى جرسٌ خفيفٌ من أعلى القبة، صوته أقرب إلى تنفّس الحديد الساخن.

صمت الجميع.

ثم... خطوات، من ممرّ خلفيّ، أخذت تتقدّم.

وجوه الهلاليين التفتت جميعها نحو المصدر.

ثم ظهر رجل.

طويل القامة، حنطيّ البشرة، على رأسه غطاءٌ أبيض مطرّز بخيوطٍ فضيّة، وعلى كتفه أربعُ هلالاتٍ خضراء مصطفّة بشكلٍ دائري.

وجهه مألوفٌ على نحوٍ غريب، كأنني رأيته في حلمٍ قديمٍ أو كان في ذكرى منسيّة.

شعرت بشيءٍ يهتزّ في صدري.

قال الرجل مبتسمًا بنبرةٍ مرحة:

"دائمًا ما يحبّ أن يظهر بشكلٍ درامي".

قلت:

"من هذا؟".

أجاب:

"إنه العامود الأول من القادة الأربعة للهلاليين... خالد".

استغربتُ:

"العامود الأول؟".

قال:

"نعم، نحن أصحاب رتبة الأربعة أهِلّة نُلقّب بالأعمدة الأربعة.

لكن خالد... هو أقوانا وأعلانا رتبة، ويُعدّ اليد اليمنى لقائدنا، والوحيد الذي يستطيع رؤيته".

تقدّم خالد نحوي بخطى واثقة تمرّ وسط صفوف الهلاليين الذين تركوا ما بأيديهم، وكأنهم يُمهّدون لعبوره.

صوته ارتفع وهو يقترب:

"أهلًا بمفتاح العالمين والبرزخين...

أهلًا بعابر جبال قاف...

أهلًا بك أيها الأكحل".

ثم وقف أمامي مباشرة، وابتسم بثقةٍ وقال:

"أم تُفضّل أن أناديك بلقبك الآخر؟... "عين الذئب"، كما يلقّبك أعداؤك؟".

اتّسعت عيناي بدهشة.

"عين الذئب"... ذاك اللقب الذي أطلقه عليّ الشيطان نفسه في تلك القلعة المقيتة.

نظرتُ إلى عينيه وقلت بابتسامةٍ خفيفة:

"الألقاب كثيرة، والشخص واحد... نادِني بما تشاء".

ظلّ يُحدّق في عينيّ لحظة، ثم التفت إلى الرجل وقال بثقة:

"لقد صدق قائدنا، يا نصر... رغم أنه لم يخضع لتدريباتنا، لكنه يفوقنا جميعًا".

أومأ نصر وقال:

"نعم... وهذا أكثر ما يثير استغرابي، لكن هذا لا يعني أنه لا يحتاج إلى تعلّم استخدام قوته في عالمنا أيضًا".

قاطعتهما بسؤال:

"خالد... كيف عرفت أنهم يلقّبونني بـ "عين الذئب"؟".

انفجر ضاحكًا، ثم قال:

"يبدو أنك لا تعلم أنك أحدثت فوضى حقيقية في مراكزهم.

صيتك وشهرتك وصلت إلى العالم الماورائيّ بكامله.

أنت الآن مطلوبٌ حيًّا أو ميتًا لدى كبار السحرة، ولدى من هم فوقهم".

قلت بدهشة:

"ولماذا؟".

وضع يده على كتفي وقال:

"ما فعلته ليس بالهيّن يا أكحل...

عبورك عبر البوابة النجمية، وصولك إلى جبال قاف، دخولك مملكة الصقيع، تحالفك مع ممالك الجن وأصحاب الحاء الزرقاء... ثم هزيمتك للأعوان. لقد كنت الضربة التي قسمت ظهرهم.

أصبحتَ أوّل إنسيٍّ يفلت من بين أيديهم... بل يهزمهم".

شعرتُ أن رأسي لم يعد يحتمل ما يسمع، فسألته:

"وكيف علمتم بكل هذا؟".

ابتسم خالد وقال:

"يبدو أن نصر لم يُخبرك بعد من نحن... كما يجب".

وقف خالد على أحد الكراسي الحجرية، ثم رفع يده نحو القبة الخضراء التي ارتفعت فوق رؤوسنا، كأنما يُشير إلى قَدَرٍ يوشك أن يُكتب.

ثم صدح صوته، جهوريًّا، ممتلئًا بنبرة من يعرف أن كلماته ليست فقط شعرًا، بل إعلانًا:

"نحنُ رجالُ النورِ، حُرّاسُ أهلهِ،

نُطفئُ ليلَ الظلمِ إن فاضَ ظلُّهُ".

ترددت الأبيات في جنبات القاعة كارتداد صدى جبلٍ في وادٍ مسحور، حتى بدا لي أن الحجارة نفسها تهمس بها.

ثم -كأن الكلمة كانت تعويذة- انفجر الهلاليون جميعًا في هتافٍ واحدٍ، عميقٍ، موحّد:

"خالد... خالد... خالد!".

لم يكن مجرد تشجيعٍ، بل احتفاءً بطقسٍ قديم، بشخصٍ ليس من صنف الرجال العاديين، بل من الذين يُغيّرون وجه الأزمنة.

نزل خالد من الكرسي كمن أنهى شعيرةً مقدّسة، ثم اتّجه نحوي مباشرة، أمسك يدي، وقال بنبرةٍ لا تخلو من الحزم:

"تعال يا أكحل... ثمّة شيء يجب أن تراه".

قبل أن أردّ، جاء صوت نصر من بعيد، بهدوئه المعتاد:

"دعه يُكمل طعامه أولًا".

لكن خالد التفت، وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة:

"يمكننا تأجيل فقرة الطعام... لوقتٍ آخر.

ما سأريه له... أهم من الجوع".

***

سرتُ خلفه، خطواته لا تتردّد، تمضي بثقةٍ... أمّا أنا، فكان داخلي ضجيجٌ صامت.

لم يكن في مشيتي اضطراب، لكن في صدري... عاصفة.

من يكون خالد؟

ولماذا وجهه مألوفٌ إلى هذا الحد؟

كأنّ ملامحه منقوشةٌ في جزءٍ ما من ذاكرتي... لكن ذاك الجزء مغلق.

(الفصل الثالث)

(اغارثا)

توقّف أمام قاعةٍ أخرى، بوّابتها العالية منحنية كقوسٍ سماوي، والقباب الخضراء فوقها تُشعّ بلونٍ لا يشبه لون الأرض... ولا يشبه لون السماء، بل كأنّه ضوء ما بين العوالم.

ولمّا دخلناها... شهقت.

كانت السماء... قريبة.

قريبة إلى حدٍّ مُربك.

أستطيع أن أرى الشمس والقمر معًا... لا مجازًا، بل حقيقة. كأنّنا نُشرف على عالمٍ معلّقٍ بين عالمين.

قلت بدهشة:

"هل نحن فعلًا بهذا القرب من السماء؟ أم أنّ هذه إحدى تصميماتكم الهندسية؟".

لم يُجب.

كان يقف هناك، في منتصف القاعة، يواجه جدارًا تتوسّطه علامة الهلالات الخمس، منقوشة بعمق، ومضيئة بضوءٍ داخليٍّ لا مصدر له.

صمته لم يكن عاديًا... كان صمتًا يسبق شيئًا.

ثم قال... دون أن يلتفت:

"ألم تتذكّرني بعد، يا أكحل؟".

تردّدت... وقلت:

"وجهك مألوف، حقًا، كأنني رأيتك في حياةٍ أخرى...

لكنني لا أذكرك".

استدار خالد نحوي.

وفي تلك اللحظة... تغيّر كلّ شيء.

كانت ملامحه نفسها... لكنها ليست نفسها.

حاجباه أوسع، عظام وجهه أكثر بروزًا، شيءٌ فيه ظلّ خالد... وشيءٌ آخر فيه لم يكن هنا من قبل.

اقترب مني، بعينين مبلّلتين، فيهما ألم السنوات، وقال بصوتٍ خافتٍ كأنه رجع صدى لطفولةٍ منسيّة:

"انظر إليّ جيّدًا...

وحاول أن تتذكّر".

***

في داخلي... تصاعدت الصور.

ضحكات، صراخ، حجارة ملعبٍ قديم، نافذة الصف الثالث، وجهٌ كنت أرى فيه طفولتي... وظلّي.

شيء في ذاكرتي انكسر.

جفلت، شهقت بصوتٍ مرتجف، وتراجعت خطوةً دون وعي.

هو...

قال خالد بابتسامةٍ ممزوجةٍ بالحزن:

"كيف لك أن تنسى... ابن عمّك، وصديق طفولتك، يا أكحل؟".

تجمّدت.

حاول أن يحتضنني... لكنه احتضن جسدًا عاجزًا عن التصديق.

"خالد؟

الطفل الذي كان يتجنّب الجميع؟

الفتى الذي ظلّ سرّي وسريّتي؟

هو... هنا؟

في هذا المكان الذي لا أفهمه؟".

ابتعد عني قليلًا، ثم ضحك بخفّةٍ وقال:

"يبدو أنّك لم تصدّقني بعد... صحيح؟".

قلت بجمود:

"بصراحة؟ لا... هذا أشبه بالمستحيل".

قال:

"لا ألومك.

آخر مرة رأيتني فيها كانت في المدرسة... بعد إعلان الفائزين الأربعة.

أنت الأول، منار، ثم يوسف... وأنا كنت الرابع."

قلت بتوجّس:

"وكيف عرفت هذا؟".

ضحك:

"ببساطة... لأنّي خالد".

تردّدت.

فكّرت.

ثم قلت:

"كلامك لا يُقنعني... يبدو أنك عرفت هذه المعلومات ببصيرتك".

قال بابتسامةٍ مشاكسة:

"أنا وأنت نعلم... لا أحد يستطيع قراءتك، يا أكحل.

حتى في "لعبة الاستبصار" كنتَ دائمًا تهزمني".

تجمّدت.

"لعبة الاستبصار"...

اسمٌ طواه الغبار... لكنه ما زال حيًّا في قلبي.

قال خالد وهو يقترب أكثر:

"اسألني سؤالًا، أيّ سؤال، ليُطمئن قلبك... وأنا أجيبك".

قلت بهدوء:

"ما هو اللقب الذي كنتُ أناديك به حين كنا صغارًا؟".

قال، وصوته يرتجف بضحكة الذكرى:

"كنتَ تناديني بـ"أمين سرك"... لأنك رأيتني أطفو في غرفتي، وقلتَ إن أخبرتَ أبيك فسأختفي من الوجود".

ابتسمت...

وقلت بشيءٍ من التحدّي:

"سؤال أخير...

كنتَ تحبّ الوحدة، وكنتُ أسألك دومًا: "لِمَ تُفَضَّلُ أن تَبقى وَحيدًا"، وكان جوابك بيتَ شعرٍ...

أتتذكّره؟".

أومأ، ورفع صوته:

"أخلو بنفسي لا لأهرب من الورى،

بل لأسمع همسَ النجوم في دجى وحدتي".

رددناه معًا، وكأنّ الزمان عاد لحظةً إلى الوراء.

ثم لم أعد أحتمل.

صرخت:

"أنت خالد... أنت فعلًا خالد!".

ارتميتُ عليه، احتضنته... وانهالت أسئلتي:

"ما هذا المكان؟

كيف وصلت إليه؟

ولماذا تبدو أكبر مني... ونحن في العمر سواء؟".

ضحك خالد ضحكةً خافتة، كأنها تنهيدةٌ خرجت من زمنٍ مضى، ثم نظر إليّ بعينٍ فيها شوقٌ ومرارةٌ لا يجتمعان إلا في العائدين من الغياب، وقال بنبرةٍ تمزج الحنين بالسخرية:

"أتذكُر يا أكحل؟ حين كنا صغارًا، كنتَ تلاحق الجميع بأسئلتك كمن يطارد المعنى في الهواء... كنتَ أقول لك ضاحكًا: فضولك هذا، وأسئلتك التي لا تنتهي، ستقودك يومًا إلى طريقٍ لا عودة منه".

سكت لحظة، ثم تنهّد وأردف بنبرةٍ أخفض:

"وها نحن ذا... بعد أعوامٍ لم تُحصِها ذاكرتي، نلتقي على عتبة ذلك الطريق ذاته".

ابتسمت، وداخلي طوفانٌ من الذكريات، ثم قلت بنغمةٍ هادئةٍ تشوبها مرارة الفقد:

"ليس ثمة مهربٌ من القدر، يا ابن العم...

ولا تُحاول أن تهرب من أسئلتي مجددًا، فقد كبرت، لكن فضولي... كبر معي".

ضحك خالد، وكان في ضحكته رجعُ صدى لطفولةٍ لم تندثر، ثم قال وهو يُشير إليّ بسبابته كمن يعترف بهزيمته:

"كما قلت... أسئلتك، بالنسبة لي، كالقدر... لا سبيل للفكاك منها، وإن حاولتُ مرارًا".

ثم التفت نحو أحد الجدران المزخرفة بأقواسٍ زرقاء متداخلة، وأشار بيده:

"هذا المكان... ليس إلا أحد مراكز الهلاليين، لكنه ليس كأيّ مركز.

هو الثاني من حيث الأهمية، لكنه الأول من حيث الحراسة والسرّية".

قطّبتُ حاجبي، وسألت بفضولٍ صريح:

"والمركز الرئيسي... أين يكون؟".

أدار رأسه نحوي، وفي عينيه وميضٌ من معرفةٍ لا تُقال على عجل، ثم اقترب وهمس كمن يُفشي سرًّا خُطَّ في ألواحٍ قديمة:

"في أعماق الأرض... حيث لا تصل خرائط البشر، ولا يطأه الخيال.

بين أركان العالم الأربعة... هناك قلبٌ حيّ لا يعرفه إلا قلّة.

أُسمّيه كما سمّاه الأوّلون: أغارثا".

تراجعتُ خطوة، وشعرتُ بقشعريرةٍ تسري في عظامي.

"أغارثا؟ ما هذا الاسم؟ لم أسمع به من قبل..."

ابتسم خالد، ابتسامة من يعرف أن الجهل ببعض الأسماء... رحمة.

ثم مدّ يده نحو جدارٍ حجريٍّ مائل، نقر عليه بخفّة، فانشقّ الجدار بصمتٍ عجيب، كأنّ الحجر نفسه يُطيع صوته، وكُشِف خلفه عن لوحةٍ جداريةٍ واسعة، رُسمت بألوانٍ خافتةٍ تشعّ من الداخل، وفي مركز الخريطة... كانت الكلمة محفورة بخطٍّ دقيق:

"أغارثا"

قلت متعجبًا:

"ما هذه؟ مدينة أم قارةٌ أسطورية؟".

هزّ خالد رأسه ببطء، وقال بصوتٍ خافتٍ كأنه يُنزل الاسم من مقامٍ عالٍ:

"أغارثا ليست خرافة... بل حقيقةٌ مخفيةٌ عن العيون.

تحت قدميك، في أعماق الأرض، هناك شبكة من الممرات والفراغات الجوفية، متصلة منذ آلاف السنين...

ما بين طيّاتها قامت حضارة لم تُسجّلها كتب البشر، ولم تُلوّثها أيديهم.

تلك الحضارة... هي أغارثا".

تقدّمتُ خطوتين، أحدّق في الخريطة، وقلبي يخفق:

"وما الذي يميّزها؟ لماذا لم تُكشف؟".

رد خالد، وعيناه تلمعان:

"لأنها مُحصّنة بطبقاتٍ من المعادن الحيّة، تتفاعل مع الذبذبات العقلية... أيّ شخصٍ يقترب منها دون 'إذن'... يُضلّل.

يُدوّخ، أو يرى سرابًا، أو يفقد الاتجاه تمامًا.لذلك، بقيت العاصمة المقلوبة طيّ الغموض".

أكمل بعد لحظة:

"أغارثا ليست تحت مدينةٍ واحدة، بل تنتشر كالشبكة تحت أماكن معيّنةٍ من العالم...

لكنها تتمركز في قلب الأرض الجغرافي، حيث تتقاطع خطوط الطاقة الكونية، ويسمّون ذلك المكان: العصب الثاني على الأرض".

قلت وأنا أحدّق في الرموز:

"وهل يعيش فيها أحد؟".

هنا تغيّرت نبرة خالد:

"نعم... لكنها ليست مزدحمة بالبشر.

يعيش فيها من تبقّى من 'الحَفَظة'... أولئك الذين يحملون أسرار التوازن.

لا شيب في رؤوسهم، ولا زمن على أجسادهم، يملكون علومًا لا نملكها، ويراقبون العالم الخارجي... دون أن يتدخّلوا، إلا إذا اختلّت الكفّة".

نظرتُ إليه بعينين متسعتين:

"وهل الهلاليون... على صلةٍ بهم؟".

ضحك خالد ضحكةً قصيرة، لكن فيها مرارة دفينة، ثم قال:

"أتذكُر حين قلتُ إن مركزنا الرئيسي في أغارثا؟ لم

أقصد الحجر ولا البناء... بل القائد.

قائدنا... واحدٌ من أهمّ الحَفَظة هناك،

لكنه محتجز منذ سنوات، بسبب انغلاق البوابات".

تقدّمتُ بخطوة، وعيناي تبحثان عن معنى في عينيه، ثم قلت بدهشة:

"انغلاق البوابات؟ تقصد...؟".

هزّ رأسه، وعيناه تحدّقان في نقطةٍ لا تُرى:

"أقصد البوابات النجمية، يا أكحل...

تلك التي تشبه البوابة التي عبرتَ منها إلى سلسلة جبال قاف.

إنها ليست مجرد ممرّات... بل مفاتيح كونية، تربط بين العوالم، وتفتح مداخل لما لا يُفتح".

ثم أضاف بصوتٍ أثقلته الذاكرة:

"البوابات النجمية... هي منافذ طاقية متفرّدة، تُرى بالعين المجرّدة، لكنها تتجاوب مع ذبذباتٍ معيّنةٍ في الروح والوعي.

قد تقودك إلى أماكن منسيّة، عوالم جانبية، أو عوالم مقلوبة...

ومنها ما لا يستطيع اختراقه حتى كبار الجنّ والشياطين".

شعرتُ برجفةٍ تسري في أوصالي.

"وكيف... حُبس قائدكم هناك؟".

تنفّس خالد تنهيدةً ثقيلة، كأنها تحمل عمرًا من الحكايات، وقال:

"بدأ كلّ شيء قبل ستة عشر عامًا...

كنّا، نحن الهلاليين، متمركزين في أغارثا، نواجه هجمات المتنوّرين واحدةً تلو الأخرى...

نهزمهم في كل مرة، ونمنعهم من اختراق البوابات.

لكن مع تكرار هزائمهم، جاء الغضب هذه المرة... من كبيرهم بنفسه".

توقّف، ثم نطق بالاسم كمن يذكر لعنة:

"إبليس".

صمت لحظة، ثم أردف:

"بدأ بإرسال جنوده... ليس للقتال، بل للمراقبة.

كانوا يراقبون قائدنا، لأنه كان الوحيد منّا القادر على العبور بين العوالم دون أن يتحلّل أو يضيع.

وفي أحد الأيام... دخل بوابةً تؤدي إلى قلب أغارثا.

وشُوهد آخر مرة هناك".

تنفّس خالد بعمق، وكأنّه يختنق كلما نطق بالحقيقة:

"ثم... تحطّمت البوابات، واحدة تلو الأخرى.

كأنهم عرفوا أين يضربون، ومتى، وبأيّ ترتيب.

لم تكن مصادفة".

قلتُ بانفعال:

"هل حاولتم فتحها مجددًا؟".

أجاب:

"حاولنا... لكننا لم نكن وحدنا.

المتنورون أيضًا كانوا يبحثون عن المفاتيح،

وبدأوا بصيد من يملكون القدرة على تشغيل البوابات.

قتلوا رجالًا، وخطفوا أطفالًا، وغسلوا عقول من تبقّى منهم...

وسخّروهم لخدمة طقوسهم السوداء".

قلتُ، وقلبي يزداد اضطرابًا:

"لكن... قلتَ إن كثيرين يملكون هذه القدرة،

لماذا إذن كل هذا التركيز عليَّ؟ لماذا أكون الهدف الأهم؟".

ابتسم خالد، لكنها كانت ابتسامة حزينة:

"صحيح... كثيرون يستطيعون فتح بوابة أو اثنتين،

لكنك... كنت المختلف".

اقترب، ثم قال بنبرةٍ خفيضة:

"أنت الوحيد القادر على فتحها جميعًا.

الترس الأول... الذي إذا دارت أسنانه، تداعت بقيّة التروس".

تسارعت أنفاسي... عقلي يرفض التصديق:

"وكيف علمتم؟!".

ابتسم خالد، وعاد ينظر إليّ نظرة العارف، ثم قال:

"سأجيبك... لكن دعني أسألك أولًا:

في أيّ عامٍ نحن الآن، يا أكحل؟".

ضحكت بسخريةٍ متوترة:

"لم أفقد إحساسي بالتقويم بعد... 2012".

اقترب خالد، ووضع يده على كتفي، وقال بهدوء:

"نحن الآن... في 2019".

صُعقت:

"ماذا؟!

دخلتُ جبال قاف في 2007، ومكثتُ خمس سنوات فقط...!".

قال:

"نعم... خمس سنوات هناك.

لكن هنا لقد مضى اثنا عشر عامًا".

تلعثمت:

"كيف؟!".

أجاب بصوتٍ عميق:

"الزمن في البوابات النجمية... ليس كمثله زمن.

داخله، يتباطأ...

كل ساعةٍ هناك... تُقابل أيامًا هنا".

ثم تابع، وصوته يزداد حزمًا:

"لكن الغريب... أنك لم تُصب بأيّ انهيارٍ زمني.

لم تُجنّ، لم تهرم، لم يختلّ عقلك...

وهذا ما أخافهم.

لأن من يفتح الباب... لا تحكمه قوانينه".

توقّفتُ، لم أجد في داخلي كلمة واحدة.

لكن خالد اقترب أكثر، وقال:

"ولهذا أنت هنا، ولهذا عدت الآن، ولهذا نحميك.

مهمتك المقبلة... أصعب مما تتخيل، يا أكحل.

ونحن... سنجهّزك"...

(الفصل الرابع)

(عصب الأرض) (القناع الرمادي)

كان الصمتُ قد لفّ القاعة بعد أن أنهى خالد كلماته، لكن ذلك الصمت لم يكن راحةً... بل توترًا مشدودًا، كوترٍ على وشك الانفجار.

كنت أقف هناك، بين جسدي الذي استقرّ في هذا المكان، وعقلي الذي لا يزال يحاول اللحاق بالحقيقة المتشكّلة.

كل شيءٍ فيّ كان يرتجف... لا خوفًا، بل استعدادًا لِما لا يُقال.

وفجأة...

اهتزّ الهواء من حولنا، لا كمنطقةٍ يمرّ بها زلزال، بل كأنّه أنفاس بعد حياةٍ طويلةٍ من الصمت.

تبع ذلك وميضٌ فضّيٌّ خاطفٌ انبعث من عند مدخل القاعة، ليتبعه فتحٌ بطيء لبابٍ مقوّسٍ مُرصّعٍ بهلالٍ خماسيٍّ يشعّ بخيوطٍ ضوئيةٍ دقيقةٍ تتداخل كالأوردة النابضة في قلبٍ حجريّ.

ثم... دخل رجل.

طويل القامة، بخطًى لا تُخطئ اتجاهها.

يرتدي رداءً أبيض، تشوبه خيوطٌ رماديةٌ كالرماد البارد، لم تُمسك أطرافه دبابيس أو أزرار، ومع ذلك... لم تكن حركته عشوائية، بل كأنّ القماش يُطاوعُ تنفّس جسده.

لكن الذي جمّد الدم في عروقي... لم يكن وقاره.

كان القناع.

قناعٌ فضّيّ، ذو ملامح ناعمة، لا يُشبه ما يرتديه الكهنة ولا المحاربون، بل كأنّه صُنع ليُخفي الإنسان... لا ليُجمّله.

لم يكن في ملامحه أيّ انفعال، فقط... عينان ثابتتان لا تومضان.

عينان لا يلمع فيهما ضوء... بل عُمرٌ من المعرفة.

وقبل أن أفتح فمي، انحنى خالد نحوي، وهمس في أذني بصوتٍ خافتٍ، لكنه حادٌّ كحدّ السكين:

"لا تُخبر أحدًا... أننا أبناءُ عمومة".

تجمّدت.

لكن لم يكن لديّ وقتٌ حتى للسؤال.

الرجل كان قد وقف أمامنا تمامًا، رفع يده اليمنى، ثم نطق، وصوته كأنّه ضُرب من جرسٍ في قاع بئر:

"وأخيرًا... التقينا يا مفتاحَ العالمين".

صوته لم يُقال... بل أُطلق.

كأنّ الحروف خرجت من عمق القاعة لا من حنجرته.

نظرتُ إليه بدهشة، بينما قلبي يتسارع، وعقلي يحاول أن ينسج من هذا المشهد أيّ فهمٍ معقول.

اقترب مني بخطًى بطيئة، وقال:

"قيل في الأساطير إن بوّابات العوالم لا تُفتح إلا كل بضع مئاتٍ من السنين،

عندما يُبعث واحدٌ...

يملك القدرة على اختراق الحُجب،

ليس من خلال الطقوس،

بل بالحضور وحده".

توقّف أمامي تمامًا، نظراته تخترقني كأنّه يرى ماضيَّ، لا وجهي.

"أنت... لست بوّابة.

بل المفتاح".

شعرتُ بصدري يُحاصر.

الهواء صار أثقل من أن يُستنشق.

قال خالد بهمسٍ لا يكاد يُسمع:

"لقد بدأ يُصغي..."

لكن الرجل لم يلتفت إليه، بل أكمل كأنّ الزمن نفسه يُصغي معه:

"لفتح البوابات... لا تكفي قوّتك وحدك، يا أكحل.

البوابات لا تُفتح لفرد، بل لتناغم.

كلّ بوابة تحتاج إلى مجموعةٍ متّحدة،

يحمل كلّ فردٍ منهم جزءًا من الشيفرة الكونية.

أمّا أنت... فأنت من يُفعّلها".

خطوتُ خطوةً إلى الوراء، وقلتُ بصوتٍ مبحوح:

"هل تقصد... أن علينا أن نكون فريقًا؟".

أومأ برأسه ببطء، ثم قال:

"نعم.

المتنورون دمّروا معظم البوابات.

سلاسل الطاقة التي كانت تُغذّيها انقطعت.

لم تعد تعمل، لم تعد تستجيب.

ولن تُعاد للحياة... إلا بأيديكم".

قلتُ بذهول:

"نحن؟".

أجاب:

"المختارون...

أولئك الذين يحملون الترددات النادرة، شُعل الروح القديمة.

البعض منهم لا يدري من يكون...

والبعض الآخر مختبئٌ، أو تحت المراقبة.

مهمتك بعد تدريبك... أن تجمعهم.

لأنك وحدك، تفتح... وتُتمّ".

وفي تلك اللحظة، تدخّل خالد للمرة الأولى بنبرةٍ حازمة:

"والمتنورون... بدأوا يتحركون بالفعل".

لكن صاحب القناع الفضي التفت نحوه ببطء، وقال بصوتٍ مهيب:

"يا خالد...

الموضوع تجاوز المتنورين.

تجاوز البوابات، وتجاوز حتى حبس القائد.

الأمر... تهديد وجودي.

إنه خطر على العالم... كله.

على كلّ ما نعرفه، وما لم نعرفه بعد".

تغيّرت ملامح خالد فجأة، وانسحب من وجهه هدوء القادة لتحلّ مكانه دهشةٌ محمّلةٌ بالشعور بالخطر، ثم التفت إلى صاحب القناع الفضي وقال:

"هل تقصد يا... خضر، أنهم بدأوا تنفيذ مهمّتهم الأخيرة؟".

لم يُجب خضر، بل اكتفى بإيماءةٍ بطيئةٍ ثقيلة، كأنها تحمل فوقها أوزان قرونٍ كاملةٍ من النبوءات المؤجّلة.

ثم تقدّم نحو الجدار الحجريّ على يمين القاعة، حيث كانت تتعلّق خريطةٌ ضخمةٌ لأغارثا، مرسومةٌ بخيوطٍ ذهبيةٍ دقيقة.

مدّ يده... وقلب الخريطة.

لم تكن مجرّد وجهٍ آخر للوحة، بل خريطةً أعمق... خريطةً للعالم بأكمله، لكنّها ليست كما نعرفه.

القارات موزّعةٌ بنِسَبٍ غريبة، والخطوط الجغرافية متشابكةٌ مع رموزٍ طاقية، والدوائر الكونية تلتفّ حول محاور غير مرئية.

رفع خضر يده، وأشار بإصبعه إلى نقطةٍ تتوهّج بلونٍ ذهبيٍّ نابض...

مكة المكرّمة.

قال بصوتٍ رخيم، لكنه كان كوقع السيوف:

"هدفهم هنا... في عَصب الأرض.

الأرض المقدّسة... النقطة التي تتقاطع عندها خطوط الطاقة العليا.

إنها أعظم مركزٍ للضوء النورانيّ على وجه الكوكب".

ساد الصمت... لكنه لم يكن صمتَ جهل، بل صمتَ وعيٍ مصدوم.

أكمل خضر وهو يُحدّق فينا:

"حركة الطواف حول الكعبة تُعدّ أكبر مولّدٍ طاقيٍّ إيجابيٍّ على سطح الأرض.

هي من تُغذّي عَصب الأرض،

والعصب، بدوره، يضخّ التوازن في أرجاء العالم.

فماذا يفعل من أراد أن يُغرق الأرض في الظلام؟

يُوقف النور عند مصدره".

اقترب من الخريطة خطوةً أخرى، وقال:

"لهذا قرّر الأعوان، بقيادة المتنورين،

إطلاق وباءٍ عالميّ... ليس فقط لتقليل البشر،

بل لإيقاف العمرة... ولتجميد الطواف.

كي تتوقّف حركة النور.

كي لا يبقى في الأرض ما يُفسد خططهم الشيطانية".

تنهّد ببطء، وقال بنبرةٍ مثقلة:

"ومنذ دخولنا 2019... بدأ الناس يشعرون.

قالوا إنّ شيئًا ما تغيّر... ولم يعرفوا أنّ الأرض نفسها كانت تُخنق".

صاح خالد بعصبية، ووجهه يميل إلى اللون القرمزيّ:

"هذه حالة طوارئ قصوى!

لماذا لم تُبلغنا بها من قبل يا خضر؟!".

لكن خضر ردّ ببرودٍ لم يخلُ من التوبيخ:

"وهل سألتَ نفسك، يا خالد، أين كنتُ طوال هذه السنوات؟

لقد كنتُ... محتجزًا.

عندهم.

في ظلال المتنورين أنفسهم.

وما خرجتُ إلا بعد أن قطعتُ عهدي... أن أعود بما أعلم.

لقد تجسّستُ عليهم من الداخل، ورأيتُ بعينيّ ما لن تتخيّله".

تقدّم نحوه خطوة، وقال بنبرةٍ غليظة:

"القائد لم يُعيّنني ويُعيّنك نائبَين عنه من عبث،

بل لأنّ ثقل هذه المرحلة... يحتاج من يتحمّل.

وأنت، وأنا... مسؤولان الآن".

ثم أشار إليّ بإصبعه، وقال بانفعالٍ صريح:

"ويجب أن ننهي تدريب الأكحل في أسرع وقتٍ ممكن.

هذه ليست مهمّة تنظيم... هذه مهمّة كوكب!".

ثم اقترب من خالد، وضع يده على كتفه بقوة، ونظر في عينيه مباشرة:

"المهمّة هذه المرّة يا خالد... عالميّة.

وخطرها... لا يمكن توقّعه.

أبلِغ كلّ المراكز،

وكلّ القوّات،

أنّ ساعة الاستعداد قد دقّت".

ثم التفت نحوي، وقال:

"وأنا... سأبدأ بتدريبك من هذه اللحظة".

أومأ خالد برأسه، وعيناه مليئتان بما يشبه الألم والواجب في آنٍ معًا، ثم خرج من القاعة بخطًى سريعةٍ لا يشوبها تردّد.

التفتُّ نحـو خضـر... صاحب القنـاع الرماديّ، فرأيتـه يمـدّ يده إليّ كمن يدعوني لعبورٍ جديد.

قال بنبرةٍ هادئة... لكنها أكثر وقعًا من أيّ أمر:

"اتبعني، يا مفتاح البرزخين... فالوقت لا يرحم من يتأخّر".

تبعته بصمتٍ يشوبه الترقّب... وخيالي يضجّ بأسئلة لا إجابة لها.

أيُّ غرفةٍ هذه التي يُخفيها رجلٌ مثل خضر خلف صمته؟ وأيُّ سرٍّ سأُقاد إليه؟

لكنني لم أكن مستعدًا لما سأراه...

فجأة...

توقّف خضر أمام صخرةٍ حجريةٍ ضخمة، بارزةٍ عن الجدار، بلا نقوشٍ ولا زخارف... كأنّها لا تنتمي لهذا المكان ذي الطابع المعماري المزخرف.

كانت شاذّةً، جامدةً، كأنّها تُخفي خلفها شيئًا يرفض أن يُنادى باسمه.

نظر إليها نظرةً طويلة، حملت في عمقها ما لا تقدر الكلمات على ترجمته،

ثم قال بنبرةٍ منخفضة، كأنّه يُحادثها لا يُخاطبني:

"لم أتوقّع أن يحين وقتك بهذه السرعة...

لكن نبوءة القائد... لقد وقعت بالفعل".

ثم رفع يده...

وطرق على الصخرة ثلاث مرّات.

وفي كلّ مرّة... كان يهمس:

"بسم الله".

وفي المرّة الثالثة...

اهتزّ المكان تحت أقدامنا، هزّةً غريبة... ليست زلزالًا، بل كأنّ الأرض نفسها تنفّست فجأة.

ثم...

تحرّكت الصخرة ببطء على محورها الأيمن، مكشوفةً عن ممرٍّ سريٍّ مُخبّأٍ بعنايةٍ مذهلة.

دخل خضر، فتبعتُه دون أن أنبس بكلمة.

وفور أن عبرنا... انغلقت الصخرة خلفنا من تلقاء نفسها، كأنها لا تريد أن تترك لأحدٍ غيرنا فرصةَ الدخول.

وفجأة...

أعمدةُ نيرانٍ اشتعلت على جانبي الممر، متّقدةً من تلقاء ذاتها،

وأضاءت المكان...

فكشفت لي عن مشهدٍ ما خطر ببالي، ولا مرّ بخيالي.

كان هناك...

حلقةٌ حجريةٌ ضخمة، محفورةٌ في الأرض، تمتدّ لأعلى،

لكنّها لم تكن مجرّد حلقة...

بل كانت بوّابةً نجميّةً هائلة، تدور حولها نقوشٌ فرعونيةٌ متداخلةٌ مع رموزٍ كونيّةٍ لا تشبه أيَّ شيءٍ رأيته من قبل.

الهالة التي تصدر عنها... لم تكن ضوءًا، بل نبضًا.

نبضٌ يشبه قلبًا نائمًا... ينتظر من يُوقظه.

وقبل أن أتمكّن من التفوّه بشيء، قال خضر بصوته العميق:

"أتدري ما هذه يا أكحل؟".

قلتُ وأنا أحدّق فيها وكأنها تبتلع الزمان:

"بوّابةٌ نجمية... أليس كذلك؟".

هزّ رأسه، وأجاب:

"نعم... لكنها ليست كباقي البوابات.

هذه... هي أمّ البوابات.

البوّابة الأصل،

النقطة التي بدأت منها بوّابات العوالم وتنتهي إليها".

صمت لحظة، ثم أردف:

"حتى كثيرٌ من الهلاليين يجهلون وجودها...

يعتقدون أنها خرافة، قصةٌ أُنسجت لتخويف الطامحين.

لكنها حقيقية.

أمّ البوابات... البوابة التي لا تحتاج إلى بوّابةٍ تقابلها،

تُفتح من طرفٍ واحد... وتُفضي إلى كلِّ شيء".

قلت وقد تملّكني الذهول:

"وما الذي يجعلها... مميّزةً إلى هذا الحد؟".

اقترب منها خضر، ولمس محيطها، ثم قال:

"هي البوّابة الوحيدة القادرة على نقلك إلى أيّ مكان، وأيّ زمان،

لا تحتاج إلى مرآةٍ مقابلة،

ولا إلى طقوس...

بل تحتاج إلى ما هو أعظم...

إلى مفتاح الوعي الكونيّ والنور الداخليّ".

رمقني بنظرةٍ طويلة، ثم تابع:

"يُقال... إن من يعبرها يتجمّد عمره،

ويُصبح قادرًا على التنقّل بين العوالم والأزمنة كما يتنقّل الإنسان بين حجرات داره.

لكنها توقّفت منذ أكثر من خمسمئة عام".

سألته:

"ولماذا تعطّلت؟".

أجاب:

"لا أحد يعلم السبب الحقيقيّ.

لكن القائد... كان يقول دائمًا:

سيأتي يومٌ،

يولد فيه من يُعيد النبض لهذه البوّابة.

وحين سألته من يكون، قال وهو يبتسم:

(هو منّي... وأنا منه)

وأشار إلى عينيه وقال:

(وعيناه... كحيلتان مثل عينيّ)".

شعرت برجفةٍ خفيفة تسري في أطرافي.

كان لكلامه صدى داخليّ... كأنّ شيئًا فيّ يعرف أن هذه اللحظة ليست غريبة.

تقدّم خضر، ولمس طرف البوّابة، وقال بصوتٍ منخفض:

"وكأنّه يصفك يا أكحل.

أنا... أظنّ أنك هو.

الوحيد القادر على تنشيط هذه البوّابة".

قلت بشكٍّ لم أستطع إخفاءه:

"ولماذا تريد تنشيطها الآن؟".

نظر إليّ بثبات، وأجاب:

"لأننا في سباقٍ مع الظلام.

تنشيطُ هذه البوابة... يعني استعادة السيطرة على كلّ البوابات الأخرى.

يعني أن نتمكّن من التنقّل بين العوالم والطبقات والأزمنة،

دون أن نعتمد على طقوسٍ أو مساراتٍ خفيّة.

يعني أن تُصبح حرًّا يا أكحل...

أن تجمع البقية.

أن توقظ المفاتيح".

ثم وقف مستقيمًا، ورفع صوته عاليًا، وكان لصوته وقعُ الجرس على جدار الحقيقة:

"بإمكانك الخروج الآن يا... حوراء".

(الفصل الخامس)

(البوابة الأم) (صاحبة الرداء القرمزي)

وما إن أغلقت البوّابة خلف خضر، حتى شقّ سكون الغرفة صوتٌ رخيم، فيه من الغرابة ما لا يُنسى.

كأنّ الزمان قد غافل الجدران ليمرّ من خلالها، فظهرت فتاةٌ شابة، أو هكذا خُيّل لي في وهلةٍ أولى.

بيضاء بلون الحليب حين تمسّه الشمس في الصباح الباكر، عيناها واسعتان تحفّهما هالةٌ من كحلٍ أزرق داكن، ليس كحلًا عاديًّا، بل كأنّه سُحِب من سماء ليلٍ لم يُشرق عليه نهار.

كانت ترتدي رداءً قرمزيًّا يغمر جسدها بأنوثةٍ لا تُصرّح بها، ورأسها مغطّى بوشاحٍ لا يُخفي نور وجهها.

ملامحها لا تُشبه أهل الأرض... لا لغرابتها، بل لشدّة اتّساقها.

جميلة... لكن الجمال وحده لا يكفي لوصف غرابتها.

هي أشبه بلوحةٍ من عصرٍ لا نعرفه، مزجت السحر بالعقل، والحكمة بالدلال.

وقفت أمام البوّابة، ثم أمالت رأسها قليلًا إلى اليمين وقالت بنبرةٍ فيها عبق الأزمان وشيءٌ من التهكّم الرقيق:

"كنت على وشك أن أوبّخك يا خضر، كما أفعل في كلّ مرّة تُفسد لحظات تأمّلي...

لكن لا بأس، يبدو أنّك جئتني هذه المرّة بشيءٍ ثمين".

ثم مدّت يدها نحو قلادتها التي تتدلّى على صدرها...

قلادةٌ غريبة، على شكل هلالين متقابلين، يفصل بينهما حجرٌ أزرق، يشعّ بضوءٍ خافت كأنّه ينبض، لا يضيء فقط.

لم أتمالك نفسي من النظر إليها...

إلى كلّ تلك الغرابة التي ترافقها وكأنّها ظلٌّ غريب.

همستُ دون أن أشعر:

"من هذه الفتاة؟".

توقّفت، ثم نظرت إليّ نظرةً حادّة خِلتُ فيها أنّها اخترقت صدري، وقالت بنبرةٍ جديّة:

"فتاة؟ احترم نفسك، أيّها الفتى... فأنا أسبقك بقرون.

انطق بكلمةٍ أخرى، وسأريك ما تفعله الفتيات حين يُغضبن".

ضحك خضر بصوتٍ خافتٍ هذه المرّة، ثم أشار إليها وكأنّه يقدّم أميرةً خرجت من كتابٍ نُسي في الزمن:

"هذه... هي حوراء.

آخر من عبر هذه البوّابة، وآخر من حضر طقوس التنشيط قبل أن تُغلق".

ثم التفت إليّ قائلًا:

"وهذا هو الأكحل..."

لكنّ حوراء قاطعته بسرعة، ورفعت يدها بتلويحةٍ حادّة:

"أعرفه...

هذا هو فتى النبوءة، مفتاح البرزخين، وعابر العالمين...

لطالما انتظرته، طيلة خمسمئة عام، وكنت أعلم أن هذا اللقاء سيأتي ولو بعد أعمارٍ بأكملها".

لم أتمالك نفسي من الدهشة، فقلت:

"خمسمئة عام؟!

إذًا... أنتِ عجوز بالفعل!؟".

رفعت حاجبها، واقتربت نصف خطوة ثم ابتسمت بتلك الابتسامة الغامضة وقالت:

"عجوز؟

بل أرشيفُ أزمنة، وحافظةُ أسرار.

واحرص أن يكون لسانك أوّل ما تُدرَّب عليه، قبل أن أفكّك عنادك، يا فتى".

ضحك خضر وهو ينظر إليّ وكأنّه يختبر ردّ فعلي، ثم قال:

"إنّ تدريب الأكحل سيكون على يديكِ يا حوراء...

وسينتهي بتنشيط هذه البوّابة، أمّ البوابات".

هزّت كتفيها بلا اكتراثٍ ظاهر، لكنها قالت بنبرةٍ لا تخلو من الثقل:

"كنت سأرفض، لولا أنني أعلم أنّ القائد نفسه هو من أراد ذلك.

لكن لا بأس...

سأُجالس الصبيان، ما دام في الأمر إنقاذٌ لما تبقّى من هذا العالم المقيت".

طرق خضر على الصخرة مرّةً أخرى، فارتجّت الأرض كأنها تعي النداء، ثم قال قبل أن يغادر:

"حين تنتهين من تدريبه... أعلميني.

الوقت لا ينتظر أحدًا".

ثم خرج، تاركًا الغرفة لنا وحدنا، والبوّابة خلفنا ترتجف بهالةٍ كأنّها تستفيق.

استدارت إليّ حوراء ببطء، واقتربت خطوة وقالت بابتسامةٍ خافتة كأنّها وُلدت على حافة الخطر:

"والآن...

فلنبدأ في كسر الجدران التي تحيط بك يا ولد،

فكلّ ما كنت تظنّه عن نفسك... لم يكن إلا قشرةً لما هو قادم".

تقدّمت حوراء إلى منتصف الغرفة، بخطى موزونة كأنّ الأرض تُمهّد لها طريقًا لا يُمنح لسواها، ثم وقفت أمام دائرةٍ حجريّةٍ ضيّقةٍ مرسومةٍ داخل أرض القاعة، محاطةٍ بنقوشٍ دقيقةٍ متشابكة...

أشكالٌ تشبه الأبراج القديمة، وأرقامٌ لا تشبه ما كُتب في أيّ كتاب، كأنّها طُبعت من زمنٍ غائبٍ عن الذاكرة.

قالت دون أن تلتفت إليّ:

"ادخل إلى الدائرة".

تردّدت، لا لأنني خائف... بل لأنّ شيئًا ما في الأرض كان ينبض.

خطوةٌ واحدة فقط، ثم شعرتُ كأنّ الهواء تغيّر قوامه من حولي، كأنني خرجت من عالمٍ إلى آخر، دون أن أغادر مكاني.

قالت بصوتٍ جاد، وقد وقفت خارج الدائرة:

"هذه الحلقة تُسمّى حلقة الرنين.

مجرد وقوفك داخلها يُفجّر صدى روحك المدفون، ويُظهر مدى توافقك مع الطاقة العليا في هذا المكان".

ثم رفعت يديها ببطء، وقالت وهي تُغلق عينيها:

"كلّ شيءٍ حيٌّ في هذا المكان...

الجدران، الحجارة، النار، وحتى النقوش على البوّابة...

كلّها تُصغي الآن لصوتك الداخليّ".

ثم مدّت يدها اليمنى نحوي، وهمست بكلماتٍ لم أفهمها.

وفجأة...

شعرتُ بشيءٍ يخرج منّي. لا ألم، ولا دفء، بل كأنني كنت أُسلخ عن جسدي بلطفٍ ساحق.

نورٌ خافت بدأ يتكثّف حول صدري، وشيءٌ من الهمسات أخذ يعلو... لكنها لم تكن خارجيّة، كانت من الداخل.

أغمضتُ عينيّ، لكنني رأيت.

رأيتُ مكانًا آخر... سماءً بلونٍ لم أرَه من قبل، وبوّابةً مكسورةً وسط صحراءٍ مجوّفة، ورجالًا مقنّعين يركضون كأنّهم يهربون من شيءٍ أعظم.

ثم صوتٌ داخليّ قال:

"افتح... ولا تفتح.

أبصر... ولا تتكلّم.

قوّتك ليست لك وحدك".

فتحت عينيّ بسرعة، كأنني كنت أغرق.

فإذا بحوراء تنظر إليّ بدهشةٍ لم تُخفها، ثم قالت:

"ما هذا الذي رأيتَه؟

أنت... استجبت قبل أن أبدأ".

قلتُ، وصدري لا يزال يعلو ويهبط:

"رأيتُ بوّابةً مكسورة... وصوتًا يقول إنّ قوتي ليست لي".

ابتسمت حوراء، لكنها لم تكن ابتسامة راحة، بل دهشةً مخلوطة باليقين، وقالت:

"إنه هو... صوت القائد.

لقد وصلتَ إلى طبقةٍ لا يقدر عليها إلا من حاز مفاتيح العوالم الثلاثة".

ثم سكتت، ووضعت يدها على القلادة في عنقها كأنّها تستمدّ منها يقينًا ما.

قالت بهدوءٍ مرّ:

"إذا بدأت البوّابة تستجيب قبل أن تُمسّ...

فاعلم يا أكحل، أنّ ما ستدخله من أبواب... لن تخرج منه كما أنت".

ثم تقدّمت إليّ بخطوتين، وأخرجت من ردائها خنجرًا قصيرًا، منقوشًا على نصله هلالان متعاكسان، يشبهان القلادة.

قالت:

"هذا ليس خنجرًا... بل مفكّ شفرة.

ضعه فوق راحة يدك، ودعه يختار موضعه".

قلتُ بدهشة:

"يختار؟".

قالت وهي تقرّب الخنجر من راحتي:

"إنه لا يجرح... بل يكشف.

وكلّ ندبةٍ يُحدثها، تُمثّل بابًا في داخلك... لم تُفتح بعد".

وبعينٍ ثابتة، وضعت حوراء الخنجر فوق راحة يدي...

لم يكن باردًا كما توقّعت، بل دافئًا، كأنّ النصل تنفّس حين لامس جلدي.

همست:

"دع روحك تتكلّم".

ولمّا قالتها، شعرتُ بوخزٍ خافت، أشبه بما يحدث حين يلامسك برقٌ خفيف لا يحرق... بل يوقظ.

فانشقت نقطةٌ صغيرة من الجلد في راحة كفّي، ليس نزفًا... بل ومضةُ ضوءٍ خرجت منّي، على هيئة خيطٍ أزرق شفيف، أخذ يلتفّ حول الخنجر... ثم انسحب داخله.

ارتجف الهواء داخل الغرفة...

وتلك النقوش على جدران القاعة، التي بدت جامدة قبل لحظات، بدأت تلمع، وتتحرّك.

أجل...

النقوش نفسها بدأت تدور، كأنّها تروسٌ في آلةٍ كونيّةٍ عتيقة بدأت تستيقظ من سباتها.

قالت حوراء، وقد خفّضت رأسها احترامًا:

"لقد بدأت الحلقة بالنبض... وهذا لم يحدث منذ خمسمئة عام".

نظرتُ إلى يدي، فوجدتُ حيث لمس الخنجر نقشًا صغيرًا...

يشبه الهلال، يتّصل به خطٌّ دقيقٌ يتّجه نحو الرسغ، كأنّه امتدادٌ لشجرةٍ خفيّةٍ تنمو في جلدي.

سألتها بصوتٍ منخفض:

"ما هذا؟".

أجابت وهي تتأمّل النقش:

"هذه العلامة... اسمها أثر البوّابة.

لا يحملها إلا من اختارته أمّ البوابات بنفسها كما يُقال.

وهي التي تفتح لك بوّاباتٍ لم تُفتح منذ قرون... لكن، لكلّ بابٍ ثمن".

اقتربت حوراء من الدائرة، ودخلتها للمرّة الأولى، ثم وقفت أمامي مباشرةً ورفعت يدها إلى القلادة التي على عنقها، تلك التي وُصفت بها نبوءة القدماء...

الهلالان المتقابلان... يفصل بينهما حجر أزرق.

قالت بصوتٍ خافت:

"أتدري يا أكحل...

أن هذه القلادة لا تتوهّج إلا إذا اقترب المفتاح،

وها هي تضيء كما لم تَضِئ من قبل..."

ثم اقتربت خطوة، وخفضت صوتها:

"لا تخبر أحدًا بما سأقوله الآن...

هذه ليست قلادة فقط...

بل هي جزء من قلب البوابة نفسها".

شهقتُ دون وعي:

"قلب البوابة؟".

أومأت برأسها:

"وإن توافقت نبضاتك معها...

فأنت لا تفتح البوابة فقط،

بل تصبح امتدادًا لها.

تصبح البوابة ذاتها، من لحمٍ ودم".

لحظة صمتٍ ثقيلة عبرت بيننا...

ثم رفعت حوراء رأسها، ونظرت إلى النقوش التي بدأت تعود إلى سكونها، وقالت:

"هذا كان الجزء الأول فقط...

التهيئة".

ثم استدارت، وأشارت إلى ممرٍّ صغير خلف البوابة، لا يظهر إلا لمن فتح الحلقة.

"الآن تبدأ الرحلة الحقيقية...

فلتدخل يا أكحل، إن كنت مستعدًا لأن ترى ما لا يعود العقل منه كما كان".

... وما إن دنوت من حافة الممر، حتى بدأ ضوءٌ غامضٌ ينساب من أرضية الحلقة الحجرية...

صوتٌ خافت، كأنّه أنين الزمن القديم، تصاعد من جوف البوابة...

ثم فجأة...

"بووووم...!".

اهتزّت القاعة بكاملها، وتوهّجت النقوش على محيط البوابة بلونٍ أزرق مشعّ، كأنها تستجيب لصوتٍ لا يُسمع، لكن يُشعَر به في العظام.

وعلى حين غرّة، تَحرّك الحجر المركزي داخل الحلقة، وتصدّعت أطرافه، ثم انقسمت الدائرة كاملة إلى خطوطٍ مضيئة بدأت تدور ببطء.

حوراء شهقت بصوتٍ مسموع:

"إنها... تعمل!".

فجأة، ارتفعت أعمدة الضوء من قلب البوابة، واخترقت سقف القاعة كأنها نَبضات من وعيٍ كونيٍّ هائل.

و... لثوانٍ فقط...

انفتحت البوابة.

لم تكن مجرد بوابة...

بل انشقاقًا في نسيج الواقع.

ما رأيته خلفها لا يمكن وصفه بالكلمات:

عوالم تتداخل، ألوان لا تعرف لها اسمًا، أبوابٌ داخل أبواب، وسلالم من نور تتقاطع مع عوالم من ضباب، ودوائر طاقة تدور حول كواكب صغيرة... وكلها تنبض من خلف تلك الفتحة السماوية التي كشفتها البوابة.

لكن...

كما بدأت... انطفأت.

توقّف كل شيء.

عادت النقوش إلى جمادها، وخفت الضوء، وساد ظلامٌ هادئٌ غريب.

الهواء صار ثقيلاً... كأنّ البوابة قد تنفّست للمرة الأولى منذ قرون... ثم نامت.

حوراء وقفت متسمّرة، يداها لا تزال معلّقة في الهواء.

قالت بصوتٍ مصدوم، ثم ممتن:

"لم تفتح البوابة منذ خمسمئة عام...

حتى أمامي، لم تنفتح أكثر من وميض.

لكنها لك، فتحت لبضع ثوانٍ كاملة..."

اقتربتُ منها، وما زال في صدري ارتجافٌ لم يفارقني منذ وهج البوابة، وسألتها:

"ما الذي يعنيه هذا؟".

نظرت إليّ، ثم أطرقت برأسها تفكّر...

ثم قالت بصوتٍ خافتٍ، فيه دهشةٌ وإقرار:

"هذا يعني... أن نبوءة القائد بدأت تتجلّى.

لكن هذا أيضًا... يعني أن تدريبك لن يكون سهلًا، ولن يكون كافيًا أن تكون جاهزًا، بل يجب أن تكون كامل التهيئة.

البوابة تذوّقت طاقتك... لكنها لم تفتح لك بكاملها بعد.

هي تترقّب... تنتظر منك المزيد".

ثم وضعت يدها على قلادتها، وهمست:

"لكنك تجاوزت ما كنا نطمح إليه في أول يوم،

وهذا... مخيف بقدر ما هو مبشّر".

تنفّست بعمق، ثم تابعت:

**"أمامك مراحل من الاختبارات، داخل هذه القاعة وخارجها، ومع كل اختبار... ستتغير أنت، ويتغير شكل هذه البوابة.

لكن تذكّر...

البوابة لا تفتح إلا لمن يُجيد إغلاقها أيضًا".**

وبعد أسبوعٍ ونصف من التدريب...

صدحت ثلاثُ طَرقاتٍ متتالية على الصخرة العملاقة التي تسدّ المدخل الحجري، كما لو كانت توقيعًا مألوفًا.

تحرّكت الصخرة الثقيلة ببطء، تنزلق على مهدها الحجري العتيق، كأنّها جبلٌ يستجيب لنداءٍ قديم. وعندما انفتحت تمامًا، انكشف المشهد الذي لم يكن ليخطر في حسبان خضر... ولا في أعتى رؤاه.

وقف في عتبة الباب، وتجمّدت خطواته.

كان الأكحل جالسًا متربّعًا على الأرض، هادئًا ساكنًا، يشعّ بهدوء، وعيناه نصفُ مغلقتين كمن يغوص في بُعدٍ آخر. وعلى كتفه، كانت حوراء تتكئ برأسها، بعينين سارحتين، تحدّقان في ما هو أبعد من الجدران.

أمامهما، كانت البوابة الأم تعمل.

نعم... تعمل بكاملها.

أقواسها تدور، ونقوشها تهتزّ بضوءٍ كوني، وأسطحها تنبض كأنها شراييُن حجرية تسري فيها حياةٌ قديمة. ومن خلفها، لم يكن هناك جدار... بل فضاء.

فضاءٌ يعجّ بالنجوم والكواكب، مخلوقاتٌ غريبة تسبح في العتمة، أعمدةُ نورٍ تترنّح، وسُحُبٌ طاقيّة تدور في دوائر عملاقة.

صُعق خضر، خانتْه ركبتاه، فخرّ ساجدًا لله، وقد غمرته رهبةٌ كأنّما رأى الآخرة تتجلّى.

بكى، نعم، دمعت عيناه من خلف قناعه الفضي، واختنق صوته من وقع المشهد، ثم همس بحمدٍ ثقيلٍ كمن نجا من فيضان القيامة:

"سبحانك يا الله... إنها تعمل... إنها حقًا تعمل".

ثم رفع بصره إلى الأكحل... ليرى ما هو أعجب.

كان الأكحل يشعّ بالكامل بنورٍ أبيضَ ناعم، يخرج من كلّ شقٍّ في جسده كوهجٍ صامت.

إلا يداه... فقد كانتا تشعّان بنورٍ أخضر صافٍ، كأنهما نُسجتا من الزمرّد.

لكن وجهه كان شاحبًا...

مرهقًا، كمن نزف طاقته لا دمه.

اقترب خضر، وصوته يقطر قلقًا:

"ما بال الأكحل يبدو شاحبًا هكذا؟".

فأجابته حوراء، وهي تزيح خصلات شعرها إلى الخلف بسخرية، وابتسامةٍ تخفي كثيرًا مما تعلمه:

"لعلّنا كنّا نلعب أكثر مما ينبغي في الآونة الأخيرة!".

ثم ضحكت ضحكةً قصيرة، قبل أن يعود الجدّ إلى قسمات وجهها.

قال خضر، مغيرًا الموضوع بعد أن التفت إلى البوابة من جديد:

"كيف انتهى من تدريبه بهذه السرعة؟ كنت أظنّ أنّكم ستحتاجون إلى شهور!".

قالت حوراء وهي تتنهّد:

"وأنا توقّعت مثلك... بل أكثر. لكن يبدو أنّ هذا الفتى لم يأتِ إلينا فارغ اليدين، بل مُدرّبًا مسبقًا".

رفع حاجبيه بدهشة:

"مُدرّب؟".

لم تُجبه... بل أمسكت بيد الأكحل المضيئة، ورفعتها أمام عيني خضر، ثم سألته:

"هل ترى شيئًا غريبًا؟".

قال وقد ضاق نظره:

"يداه تشعّان بنورٍ أخضر غريب..."

قالت بصوتٍ منخفض:

"ركّز جيدًا، يا خضر..."

اقترب ببطء، ودقّق أكثر...

"لا أرى... مهلًا...!".

فجأة، ارتبك صوته، وتأتّأ:

"الخواتم... تلك الخواتم التي في يديه... تشعّ بهالةٍ لا تشبه أيّ شيءٍ رأيته!".

ابتسمت حوراء ابتسامةً مُبطّنة بالأسرار، وقالت بهدوء:

"والآن بدأت ترى...

هذه الخواتم... أو بالأحرى، الأحجار المصنوعة منها... مرتبطةٌ بطاقةٍ أثيريّةٍ قويّةٍ ومتشعّبة".

ثم أطرقت قليلًا، وقالت:

"وعندما سألته عنها... أخبرني أنّه أخذها من جبال قاف".

نظرت في عيني خضر مباشرة:

"ألا تبدو مألوفةً لك، يا خضر؟".

تجمّدت عيناه.

ثم...

صرخ صرخةً صامتة، كأنّ شرارةً أصابته.

أدخل يده المرتجفة في طيّات ردائه، وبدأ يُخرج مخطوطاتٍ قديمة، مهترئةَ الحوافّ.

راح يقلبها، واحدةً تلو الأخرى، بأنامل تتسرّع مع كلّ صفحة.

ثم...

توقّف عند واحدة.

كانت مكتوبةً بأحرفٍ مائلةٍ ذهبية، يتصدّرها عنوانٌ واحد:

"مفاتيح ممالك قاف"

فتحها، وإذا برسوماتٍ دقيقةٍ تظهر فيها نفس الخواتم التي يحملها الأكحل... نفس الشكل... نفس الترصيع... نفس الهالة.

نظر إلى الأكحل مجددًا...

كان في حالة شبهِ غيبوبة.

عيناها نصف مغمضتين، ويداه المتوهّجتان ترتجفان بخفوت، كأنّه يذوب...

نظر خضر إلى حوراء برعب، وهمس:

"أهذه...؟!!".

فقالت:

"نعم يا خضر...

لقد سلّموه مفاتيح عبورهم، وطاقتهم،

التي رفضوا تسليمها لأيّ كائنٍ آخر... حتى الهلاليين... سلّموها لهذا الفتى".

ثم أطرقت، وهمست:

"أتعلم ماذا يعني هذا؟".

التفت خضر نحوها، وعيناه تبرقان بدمعةٍ لم تجفّ بعد.

تبادل كلاهما النظرة... ثم نطقها الاثنان معًا:

"سُكّان قاف... استأمنوا الأكحل على حياتهم!".

(الفصل السادس)

(السديم)

ساد الصمتُ بينهما، كأنَّ اللحظة علقت في حافة زمنٍ لا يمر.

الهواء في الغرفة كان ثقيلًا، مشبعًا برائحة البخور والورق العتيق، بينما ظلّ الأكحل جالسًا على الأرض، رأسه مائل، ويداه ما زالتا ترتجفان، والخاتم الذهبي يلمع بخفوتٍ تحت ضوء المشاعل.

كانت الهالة الخضراء التي انبثقت من الخاتم قبل لحظات ما تزال عالقة في عينيه، كأنها تسللت إلى أعماقه وأعادت فتح أبوابٍ قديمة في روحه.

اقتربت حوراء خطوة، وصوت أساورها النحاسية يرنّ بخفة، ثم جثت على ركبتيها أمامه، تهمس وكأنها تخشى أن يسمعها أحد غيره:

"لقد سلّموك ما لا يُسلَّم... وضعوا بين يديك مصير العبور كلّه... قاف ليست مجرد ممالك، يا أكحل... إنها الحدّ الفاصل بين عالمين".

رفع رأسه ببطء، عيناه نصف مغمضتين، كأن الحلم لم ينتهِ بعد، وقال بصوتٍ مبحوح:

"رأيتهم... الهلاليين... كانوا يقفون في صفٍّ طويل، وخلفهم بوابة من نور... سلّموني الخواتم، ثم اختفوا... ولم يبقَ إلا هذا الخاتم، وهذه الهالة..."

تبادلت حوراء وخضر نظرةً عميقة، نظرة تحمل اعترافًا صامتًا بشيء لا يريد أحدهما أن يقوله بصوتٍ عالٍ. ثم قالت حوراء ببطء:

"إذا ظهرت العلامة... سيتحرّك كل شيء. ولكن... إن فُتحت البوابات قبل أوانها، فلن تُغلق أبدًا".

انكمش صدر الأكحل، وابتلع ريقه، ثم همس:

"أغارثا... أليس كذلك؟".

ارتجفت شفتا حوراء، لكنها لم تجب. كان الصمت كافيًا ليؤكد أن قلب الأكحل بدأ يقترب من السر الذي ظلّ الهلاليون يخفونه قرونًا.

وفجأة، سمعوا جميعًا صوتًا بعيدًا، أشبه برنينٍ معدنيٍّ ثقيل، يتردّد عبر الجدران، كأنما صدر من أعماق الأرض... ارتجف المكان، وانسابت ذرات التراب من سقف القاعة، فيما نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض بعيونٍ واسعة...

لقد بدأ شيء ما في التحرك.

وفجأة... ومن قلب البوابة النجمية الأم، انبثق سديمٌ عملاق، دوّامة من غبارٍ كونيٍّ متوهّج، أخذ ينبض كما ينبض قلب كوكبٍ حيّ، يصدر صوتًا غريبًا... مزيجًا بين صريرٍ معدنيٍّ بعيد وضرب أمواجٍ هائجة تتكسّر على صخور غير مرئية.

ثم، ودون سابق إنذار، تَجلّت في وسط السديم صورة سبعة رجال، يرتدون عباءاتٍ زرقاء داكنة، يجلسون في حلقةٍ دائرية حول شعلةٍ من نور، ووجوههم مغطاة بظلال لا تكشف ملامحهم. رفعوا رؤوسهم ببطء، وتحدثوا بصوتٍ واحد، كأنه صادرٌ من أعماق العصور:

"النبوءة واضحة... إذا اجتمعت خواتم قاف الخمسة في يدٍ واحدة، انفتحت أبواب النجوم، وسُمح للعبور أن يبدأ... ولكن... إذا فُتحت قبل أن تُرى العلامة، فلن تعود البوابات إلا بعد خراب العالمين".

وبلمح البصر، انكمش السديم على نفسه، وانغلقت البوابة الأم كعينٍ أُرغمت على الإغماض، تاركةً خلفها صمتًا ثقيلًا، كأن الكون كلّه حبس أنفاسه.

كان الجميع في حالة ذهول، لم تتحرك فيهم عضلة... إلا حوراء التي قطعت الصمت بصوتٍ مرتجف:

"لكن... العلامة لم تظهر بعد".

لم تُكمل عبارتها حتى انطفأت المشاعل النارية فجأة، وابتلع الظلام المكان كله.

وفي العتمة، دوّى صوتٌ عميق، كان صوت احتكاك الصخرة العملاقة وهي تُفتح ببطء، يتبعه ارتجاف الأرض.

ومن فتحةٍ بين الجدران الحجرية، ظهر رجلٌ طويل القامة، له جناحان أسودان عظيمان، وعينان صفراوان كعيون البوم تشعّان في الظلام، مخترقتين النفوس بنظرةٍ باردة.

كان وجهه غارقًا في الظل، إلا أن ابتسامةً مائلة لمعت فجأة على شفتيه، كشفرٍ معدنيٍّ يبرق في العتمة، وهو يقول بصوتٍ متهكم:

"ستظلون تجهلون الكثير من علومنا... أما العلامة المقصودة... فهي ظهور هذا الفتى الواقف بجانبك".

التفت الجميع نحو الأكحل، وامتزجت الدهشة بالخوف في الوجوه، لكن أكثرهم صدمةً كان خضر، الذي ظنّ هو وحوراء وحدهما يعرفان موقع البوابة الأم.

جحظت عيناه، وصاح بغضب:

"من أنت؟ وكيف عرفت أننا هنا!؟".

ارتفع ضحكٌ غريب، ممتدٌّ كأنما يسخر من صِغَر أسئلتهم أمام عظمة إجابته، ثم دوّى صوته الجهوري في القاعة:

"أنا أمير صقيع... قائد جيوش قاف... ومرسولها الأول. أنا من أدخل فتى النبوءة".

ثم رفّ بجناحيه فجأة، فانطلق تيار هواءٍ عاصف اجتاح القاعة، تبعه اشتعال المشاعل النارية مرة أخرى، لتنكشف ملامحه أخيرًا.

توقفت الألسنة، وساد الصمت، قبل أن ينطق اسمه بثباتٍ ورهبة:

"أنا... آصف".

صُعقتُ في مكاني لحظةَ رأيته... تجمّد الدم في عروقي، وكأنني أواجه شبحًا من ماضٍ حاولت دفنه في أعماقي.

لم أتمالك نفسي، اندفعت نحوه بخطواتٍ متسارعة، حتى بلغته... واحتضنته بقوة، كأنني أريد أن أختبر بيدي حقيقة وجوده، أن أتيقّن أن هذا الكابوس الطويل قد انقلب إلى يقظة.

قلت، وأنفاسي تتلاحق:

"ظننتك قد متَّ... أو أن المتنورين قبضوا عليك..."

ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة المائلة التي تسبق سخريته دائمًا، وقال بصوتٍ لاذع:

"لا تقلق... لم أُعلَّق كذبيحةٍ مثلك".

انفلت منا ضحكٌ قصير، لكن ما لبث أن انقطع حين تراجع آصف خطوةً إلى الوراء، وعيناه تتأملانني من أعلى إلى أسفل بملامح مزيجٍ من الدهشة والاستغراب.

قال ببطء:

"أوه... لقد تغيّرت كثيرًا يا أكحل".

قطّبت حاجبيّ باستفهام:

"ماذا تقصد؟".

آصف، بعينين تضيقان كما لو كان يفحص طاقتي:

"لقد تعاظمت قوتك... وزاد نورك".

لكن صوت خضر اخترق الموقف من الخلف، يصرخ بغضبٍ مكبوت:

"لم تُجبني يا آصف! كيف علمت بوجودنا هنا؟ والأهم... متى استيقظت من غيبوبتك؟".

وضع آصف يده الثقيلة على كتفي، ثم تقدّم نحوه بخطواتٍ ثابتة، وصوته ينخفض حتى صار نصلًا باردًا:

"ألا تعلم يا خضر... أن هذا الشاب مربوط بقلوب جميع سكان قاف؟ إذا شعرنا أن نبضه مهدَّد... أتينا من كل فجٍّ وصوبٍ لنجدته".

رفع خضر ذقنه متحديًا:

"ومن قال إنه في خطرٍ الآن؟".

ابتسم آصف ابتسامةً باردة، وقال:

"التفعيل الطاقي الذي حدث له كان عنيفًا... حتى خُيِّل إلينا أنه يوشك على السقوط. ثم، وكالعادة... كنت أتنعم في نومي العميق حتى أيقظوني أصحاب الحاء الزرقاء... فقط لأطمئن على صديقي جالب المشاكل".

انعقد حاجبا خضر باستغراب:

"أتقصد أنك كنت نائمًا... ولم تكن في غيبوبة؟".

قهقه آصف، وارتسمت على وجهه ملامح ازدراء:

"وهل تظن أننا مثلكم... يُغمى علينا؟".

ثم التفت آصف نحو حوراء، وعيناه الصفراوان تضيقان وكأنه يزن كلماتها قبل أن يطلقها، وقال بنبرةٍ باردة:

"لقد مرّ زمنٌ طويل... منذ آخر مرةٍ رأيتك فيها، أيتها المرفوضة".

قلت أنا وخضر معًا، وكأن الكلمة صفعتنا:

"المرفوضة؟!".

رفع آصف إصبعه، مشيرًا إليها بشماتة، وابتسامةٍ نصفها سخرية ونصفها تحدٍّ:

"لقد كانت تحاول الدخول إلى قاف... لكننا رفضنا دخولها".

ثم أمال رأسه قليلًا، وأضاف وهو يضحك ضحكةً قصيرة:

"أردنا أن نفتح لها البوابة، لكنّ البوابة نفسها أغلقت وقالت: أعذروني... هذا ليس يومي".

اشتعل وجه حوراء بالحمرة، وعيناها تلتمعان بالغضب، وقالت بحدةٍ وهي تقترب منه خطوة:

"لا وقت لي لتفاهتك يا آصف... إن كان كلامك صحيحًا، فالعلامة ظهرت، والشروط اكتملت... إذًا علينا التحرك الآن... وبدء تفعيل جميع البوابات النجمية".

جلس خضر على الأرض، ثم أخذ إحدى المخطوطات بحذرٍ شديد، وفردها أمامهم، فانتشرت على الأرضية الباردة كجلد حيوانٍ أسطوري، مرسومٌ عليها خطوطٌ متشابكة تربط قارات العالم بأضواءٍ رفيعة كخيوط العنكبوت، وفي قلب كل خطٍّ... رمزُ هلالٍ أو نجمةٍ أو عين.

قال خضر بصوتٍ جاد، وعيناه لا تفارقان الخريطة:

"هذه... هي خريطة جميع البوابات النجمية في العالم، كما سجّلها الأوائل قبل آلاف السنين. كل نقطةٍ هنا... ليست مجرد مكان، بل مفتاحٌ لعالمٍ آخر".

بدأ يُمرّر أصابعه على الرموز، ويذكرها واحدًا تلو الآخر:

1. قلب البوابات - قاف الكبرى: حيث تتقاطع مسارات العبور كلها.

2. بوابة الجيزة - أسفل أهرامات مصر، حيث يلتقي شعاع الشمس بالنجوم في موعدٍ محدد كل ألف عام.

3. بوابة شَمس أوروك - في بابل القديمة، تحت أنقاض معبد إينانا.

4. بوابة أغارثا - في أعماق باطن الأرض، لا يصل إليها إلا من يملك دم السلالة النورانية.

5. بوابة المايا - في مدينة تيكال، جوهرة حضارة المايا في غواتيمالا.

6. بوابة ستونهينج - دوائر الحجر العملاقة في إنجلترا، حيث الزمن يلتف على نفسه.

7. بوابة أولورو - صخرة حمراء مقدسة في قلب أستراليا، مفتاحها في أصوات الرياح.

8. بوابة القمر الفضي - في هضبة التبت، عند أعلى قمة تصلها أرواح الرهبان.

9. بوابة أطلانطس الغارقة - تحت أمواج المحيط الأطلسي، لا تُفتح إلا عند عودة النجم الأزرق.

10. بوابة جبل شاستا - في كاليفورنيا، حيث يُقال إن مدينة ليموريا ما زالت نابضة تحت الجبل.

11. بوابة الكعبة النورانية - في المنطقة المقدسة، حيث يتقاطع خط الزوال مع نقطة النور الأولى، وهي (عصب الأرض).

12. بوابة سهول نازكا - خطوط محفورة في صحراء بيرو، لا تُرى إلا من السماء.

13. بوابة جبل قاف الصغرى - في مكان لا يظهر على الخرائط، لكنه يحرس الأطراف الشرقية للعالم.

14. بوابة صحراء الربع الخالي - الرمال تتحرك كأمواج بحرية عند اقتراب موعد العبور.

15. بوابة عين الصحراء - هيكل الريشات في موريتانيا، حلقة حجرية يراها من يعبر فقط.

16. بوابة جزيرة الفصح - على شواطئ المحيط الهادئ، بين صفوف تماثيل الماويّ العملاقة التي تحدّق نحو الأفق، حيث يُقال إن وجوهها هي مفاتيح لمدن غارقة تحت البحر..

رفع خضر رأسه، وعيناه تتنقلان بين الوجوه:

"اختاروا... من أين نبدأ؟ لكن تذكّروا... فتح بوابةٍ واحدة قد يوقظ الأخرى، ولا أحد يعرف أيّها سيستجيب أولًا".

بدأنا نتأمل الخريطة بتمعّن، وكل واحدٍ منا يحاول قراءة ما وراء الرموز والخطوط المرسومة.

قطعت حوراء الصمت بصوتٍ حاسم:

"علينا أن نبدأ من الأطراف... أنا أرشّح بوابة جزيرة الفصح".

التفت آصف نحوها، نظرة عينيه الصفراء لا تخلو من لمعة سخرية، ثم مال برأسه نحو خضر وقال:

"وأنا أؤيد رأي المرفوضة".

انكمشت ملامح حوراء، وجزّت على أسنانها، لكن كبرياءها منعها من الرد، فاكتفت بإدارة وجهها عنه.

رفع خضر عينيه نحوي وسأل:

"وما رأيك أنت يا أكحل؟".

أخذت نفسًا عميقًا، وعيناي تتنقلان بين الوجوه والخريطة أمامي:

"لا يهمّني من أين نبدأ... لكن الأهم الآن أن نسبق المتنورين بعدة خطوات. هناك شعور دفين بداخلي يخبرني أن علينا الإسراع... وأنهم قد علموا أننا بدأنا التحرك".

أومأ خضر برأسه ببطء، ثم أنزل إصبعه بثبات على موقع جزيرة الفصح في طرف الخريطة:

"إذًا... وقع الاختيار".

في تلك اللحظة، خُيِّل إليّ أن الرموز المحيطة بجزيرة الفصح على الخريطة بدأت تومض بخفوت، كنبض قلبٍ يوشك على الاستيقاظ، وأن خطوط الطاقة المتصلة بها أخذت تتوهّج شيئًا فشيئًا... وكأنها استجابت لقرارنا.

قال آصف بابتسامة لا تخلو من التحذير:

"حسنًا... لكن تذكّروا، جزيرة الفصح ليست أرضًا مهجورة كما تظنّون... هناك حُرّاس من حجر، إذا استيقظوا فلن يهدأوا حتى يعود كل من دخل أرضهم جثةً أو أسيرًا".

لفَّ خضر الخريطة ببطء، وكأنه يطوي معها أسرار قرون، ثم وقف ومدّها نحوي، وعيناه تلمعان بجدّية:

"هذه الخريطة لك يا أكحل... فرحلتك ستكون طويلة".

تردّدت لحظة قبل أن أمدّ يدي لآخذها، ثم نظرت إليه:

"ألن تأتي معي يا خضر؟".

ابتسم بخفّة، لكنها لم تكن ابتسامة طمأنة، بل إشارةً لِما لا يُقال:

"سترافقك حوراء... وشخص آخر معكم".

رفعت حاجبي باستفهام:

"شخص آخر؟".

أجاب وهو يدير وجهه بعيدًا عني:

"ستعلم من هو... في الوقت المناسب".

رفع آصف يده فجأة، وقال بنبرة حاسمة:

"وأنا... سأراقبكم من بعيد. تدخّلي لن يكون إلا إذا كان الخطر أكبر مما تستطيعون احتماله".

أومأ خضر ببطء، ثم التفت إلينا:

"لكن قبل أن نبدأ التحرك... يجب أن أخبر خالد".

ثم أشار بيده:

"اتبعوني".

غادرنا غرفة أمّ البوابات، والممرات الحجرية الضيقة تتردّد فيها خطانا، حتى وصلنا إلى بوابة ضخمة من الحديد القديم، محفور عليها نقش للهلالات الخمس محاطة بخطوط متداخلة كشبكة طاقة.

دفعها خضر، فانفتحت بصريرٍ ثقيل، لتكشف عن قاعةٍ واسعةٍ غمرها الضوء القادم من فتحاتٍ في السقف العالي.

في وسط القاعة، انتصبت طاولة دائرية ضخمة من حجرٍ أسود مصقول، تتّسع لخمسة أشخاص فقط، وحولها خمسة كراسٍ شامخة، كلّ واحدٍ منها محفور عليه عدد من الهلالات يرمز إلى رتبة صاحبه.

الجو في القاعة كان مشبَعًا برائحة البخور الممزوجة بشيءٍ معدني، والهواء فيها بدا أثقل، كأنّ الجدران تحفظ أسرار كلّ اجتماعٍ عُقد هنا منذ نشأة الهلاليين.

(الفصل السابع)

(المنارة البيضاء)

دخلتُ القاعة، فما إن تجاوزتُ العتبة حتى تجمّدت خطواتي.

رأيتُ خالدًا جالسًا عند الطاولة الدائرية، وأمامه سبعة أطيافٍ شاهقة، سبعة كياناتٍ داكنة كأنها أعمدةٌ من ضبابٍ مضيء، تتماوج أجسادهم كالنار حين تبتلعها الريح. كان الصوت الذي يتردّد منهم عميقًا، أشبه بقرع الطبول في جوف الأرض.

لم أتمالك نفسي، اقتربتُ من خضر وقلتُ له:

"ما هؤلاء؟".

شعرتُ بيده تُطبِق على كتفي، وضغط بخفّة كمن يُنذرني بالصمت، وقال هامسًا:

"اخفض صوتك يا أكحل... هؤلاء وزراءُ ملوكِ الجنّ السبعة، إنهم من أقوى حلفائنا".

ارتجفت روحي من وقع الكلمة. وزراءُ الجنّ؟! لم أظنّ أن الهلاليين يملكون روابط بهذا العمق.

قلتُ بصوتٍ يكاد يختفي:

"إذَن... حتى الجنّ هنا يقفون إلى جانبكم؟".

أجاب خضر، وملامحه ثابتة:

"نعم، ملوكُ الجنّ المسلمين كانوا أصدقاءَ قائدِنا، يتبادلون الزيارة معه باستمرار... وهو كذلك".

وقبل أن أستوعب تمامًا ما قاله، التفتت الأطياف السبعة إليّ دفعةً واحدة، وانحنت برؤوسها الثقيلة في إيماءةٍ مهيبة، ثم اختفت فجأة... كأنها لم تكن سوى انعكاسٍ لسرٍّ أبدي.

تقدّم خضر نحو خالدٍ وأخبره بالمستجدّات. كنتُ أتابعه بعينيّ وكأنني أقرأ بين كلماته مصيرًا يُرسَم. وحين ذكر اسمي وأنني سأقود مجموعةً إلى جزيرة الفصح، رفع خالد بصره إليّ، وصوته خرج كأنه نبوءة:

"ستذهبون عبر البحر. لا انتقالَ روحيّ ولا بوّابات هذه المرة... فالأنظار علينا، وأيّ خطأ سيفضح أمرنا".

شعرتُ بالحرارة تتصاعد في صدري، وسألتُ:

"عبر البحر؟ وكيف؟".

نظر إليّ خالد طويلًا، كأنه يختبر ثباتي، ثم قال بنبرةٍ لا تقبل النقاش:

"على متن سفينة القائد... المنارة البيضاء".

حين نطق الاسم، شعرتُ أن الجدران نفسها تنفّست، وأن الطاولة الحجرية السوداء ارتجفت للحظة. اسمٌ يحمل ثِقل تاريخٍ لا أعرفه... لكنني أدركتُ أنني على وشك الإبحار في رحلةٍ ليست ككلّ الرحلات.

التفت خالد إلى خضر، وصوته ممتزجٌ بالجدّية:

"من هي المجموعة التي سترافق الأكحل؟".

أدار خضر وجهه نحونا وقال:

"المجموعة ستكون من الأكحل أولًا... ثم حوراء... و..."

توقّف فجأة، وأخذ يلتفت يمنةً ويسرةً كمن فقد أثرًا.

سأله خالد باستغراب:

"ومن تقصد؟".

أجاب خضر وهو يقطّب جبينه:

"أمير صقيع... آصف".

رفعتُ حاجبيَّ دهشةً:

"حقًّا... أين ذهب؟ لقد دخل معنا".

وما كدتُ أنهي كلماتي حتى سقطت حجارةٌ صغيرة على رأس خضر من الأعلى. رفعتُ بصري فإذا بآصف معلّقٌ في سقف القاعة، مخالبه تُشبك الحجارة، وجسده مقلوبٌ كخفّاش، ينظر إلينا بعينين لامعتين.

ضحك بصوتٍ ساخرٍ وهو يقول:

"أنا فوقك هنا يا مغفّل..."

أمسك خضر رأسه متضايقًا، وقال وهو يزفر بحدّة:

"أما زلتَ على مزاحك الثقيل يا آصف؟".

هبط الأخير بسرعةٍ خاطفة، واعتدل واقفًا، ثم أخذ يمشي بخطواتٍ خفيفة وهو يرسم ابتسامةً مائلة على شفتيه، حتى وقف أمام خالدٍ وقال بسخريةٍ ماكرة:

"لم أرَك منذ مدة... أيها البديل".

ارتبك خالد، وارتسمت على وجهه ابتسامةٌ متوترة، ثم اقترب وهمس في أذن آصف، كأنه يذكّره بشيءٍ نسيه. سعل آصف بخفّة وتنحنح، ثم صحّح قائلًا:

"أقصد... يا خالد".

أوشكتُ أن أسأله عن معنى ما قال، لكن خالد كان أسرع، إذ صرف النظر عن الأمر وقال بلهجةٍ حازمةٍ وهو يلتفت إلى خضر:

"هل هذه المجموعة فقط؟".

أجاب خضر وهو يوجّه نظره إلى حوراء التي التزمت الصمت:

"لا... هناك شخصٌ آخر. وحوراء أرسلت له سلفًا".

سأل خالد:

"ومن يكون هذا الشخص؟".

ولم تمهلنا اللحظة طويلًا، إذ انفتحت البوابة الثقيلة على مصراعيها بصريرٍ عميق، حتى دخلت امرأةٌ لم أرَ مثلها قطّ. جسدُها شديدُ البياض حتى خُيّل إليّ أنه يشعّ ضوءًا من ذاته، وثوبُها الطويل ينسدل حولها كأنه غلالةٌ من سحابٍ صافٍ، فيما شعرُها المائل إلى الأرجواني يتماوج مع كلّ خطوة، كحريرٍ يلتقط خيوط النور ويتحوّل إلى وهجٍ ملوّن.

وبجانبها كانت قطةٌ بيضاء تسير بخطواتٍ رشيقة، ذيلها مرفوع، وعيناها اللامعتان تتفحّصان القاعة كحارسةٍ وفيّة. كان مشهدُها مع صاحبتها أقربَ إلى طيفٍ خرج من أسطورةٍ قديمة.

ثم رفعت المرأة بصرها، فأصابتني الدهشة... إذ كانت عينُها اليمنى خضراءَ كزمردةٍ حيّة، واليسرى زرقاءَ كبحرٍ لا قرار له. نظرةٌ واحدةٌ منها كفيلةٌ بأن تُربك القلب وتشدّ الروح، كما لو أنها تقرأ ما يختبئ في الأعماق.

ولم يزد غموضَها إلا تلك الشامةُ السوداء المتربّعة على خدّها الأيمن، صغيرةُ الحجم، لكنها بدت كعلامةٍ مختومة، سرٍّ خفيٍّ يزيدها فتنةً وهيبةً معًا.

تقدّمت بخطواتٍ بطيئة، يرافقها صمتٌ مهيب، حتى وقفت أمامنا وقالت بابتسامةٍ خفيفة وصوتٍ رخيمٍ يقطر ثقة:

"يبدو أنكم... تقصدونني".

ساد الصمت في القاعة لحظة دخولها، حتى خُيّل إليّ أن الجدران ذاتها كفّت عن التنفّس.

لكن حوراء كسرت الصمت، وحدّة السخرية في صوتها واضحة:

"مرّ زمنٌ طويل على آخر مرةٍ التقينا فيها يا حوْلاء... أقصد يا ناصعة".

ارتسمت على وجه ناصعة ابتسامةٌ باردة، وقالت ببرودٍ يقطر ثقة:

"وأعتقد أنه بعد كلّ هذا الزمن... تيقّنتِ أكثر أنني أفوقك بمراحل، أيتها العجوز".

احمرّ وجهُ حوراء غضبًا، فيما أدارت ناصعة بصرها عنها بازدراء، ثم ثبتت عينيها المختلفتين على خالدٍ وخضر وقالت:

"لقد تركتُ عزلتي في الجبل وجئتُ إلى هنا... بناءً على طلب نائب القائد".

أومأ خالد برأسه مرحّبًا بها، بينما تقدّم خضر خطوةً وقال:

"نعم يا ناصعة... فالمهمةُ هذه المرة تتطلب وجودك المكاني لا الزماني".

تنهدت ناصعة بثقلٍ، كمن يحمل سرًّا يعرف ما وراءه:

"إذن... الأمر خطير كما شعرت".

قال خالد بنبرةٍ حازمة:

"بل هو أخطر مما نتوقع... هذه المرة الخطر يهدّد العالم أجمع".

لكن ناصعة لم تُعره انتباهًا كاملًا، بل قاطعت كلماته وهي تحدّق بي بتمعّنٍ حادّ، كأنها تخترق جدران صدري بعينيها المختلفتين:

"إذن هذا هو الأكحل... فتى النبوءة".

ارتسمت ابتسامةٌ غريبة على وجه خالدٍ وهو يحكّ رأسه:

"صحيح... لم أعرّفكم ببعض، هذا هو الأكحل..."

لكنها لم تنتظر أن يُكمل، بل مدّت يدها فجأة إلى رأسي، ولمست شعري بخفّة ثم تمتمت وكأنها تنطق ألقابًا منقوشةٍ في لوحٍ قديم:

"نعم... أعرفه جيدًا. مفتاحُ العالمين، والبرزخين... وحامي الأين والبين".

تسارعت أنفاسي، وأنا أتمتم في داخلي: حامي الأين والبين؟!

لكن دهشتي انقطعت حين انتزعت ناصعة خصلةَ شعرٍ من رأسي فجأة، ثم تراجعت خطوةً للخلف تتأمّلها بعينين ملوّنتين، وكأنها تقرأ تاريخًا مخفيًّا بين خيوطها.

وضعتُ يدي على رأسي وأنا أرمق خالدًا بقلق، وخرجت كلماتي من فمي بتوتر:

"من هذه؟!".

ابتسم خالد ابتسامةً متوترة وهو يجيب:

"هذه... الحكيمةُ ناصعة. تُعَدّ من أقوى من يستخدمون قوّة البصيرة وكشف الأماكن وهم في أماكنهم، فهي أشبه برادارٍ حيٍّ لنا. أضِف إلى ذلك أنها تحمل معارف وعلومًا خفيّة... يُقال إنه لا أحد في عالمنا يُدركها سواها".

قلتُ وأنا أعقد حاجبيّ:

"لكنها تتصرّف كطفلةٍ صغيرة!".

هزّ خالد رأسه وقال بهدوء:

"ذلك لأنها لا تطيق البشر كثيرًا... اعتزلت الناس وسكنت جبلًا قريبًا من هنا، بعد أن كانت تُدرّب بعض الهلاليين. لم تحتمل ضوضاء الجماعة، فطلبت عزلتها. من أراد علمَها أو مددَها... يذهب إليها".

اقترب مني خضر وقال هامسًا:

"حاول أن تنسجم معها يا أكحل... فهي سترافقك زمنًا طويلًا".

لكن فجأة دوّى صوتُ آصف وهو يشير بإصبعه نحوها:

"أنا أعرفك...!".

فعلت ناصعة الشيءَ نفسه، رفعت إصبعها نحوه وقالت ببرودٍ ساخر:

"وأنا أعرفك".

ثم أنزلا أيديهما في اللحظة ذاتها، وضحكا كأن بينهما عهدًا قديمًا.

قالت ناصعة وهي تتقدّم خطوة:

"وكيف تنسى من دلّك على مخبأ المتنورين؟".

قهقه آصف بسخرية:

"لا تبدأي بالمنّ يا ناصعة... كانت مجرد صدفةٍ لا أكثر".

أجابته بضحكةٍ مماثلة، وعيناها تلمعان بدهاء:

"اصمت يا عينَ البومة... ولا تُنكر فضلي عليك".

ضحك آصف ولم يرد، بينما رفعت حوراء يدها إلى رأسها وقالت متذمّرة:

"يبدو أنها ستكون رحلةً طويلة..."

قال خضر بلهجةٍ حادّة، كمن يوبّخنا جميعًا:

"رحلةٌ طويلة وأنتم لا زلتم هنا!... اتبعوني بسرعة نحو السفينة".

تقدّم بخطواتٍ مسرعة، فتبعتُه مع الآخرين. كنتُ على وشك أن أغادر القاعة حين سمعتُ صوت خالدٍ يناديني. التفتُّ فإذا بملامحه قد تبدّلت؛ ارتسم على وجهه خليطٌ من التوتر والخوف.

اقترب مني وقال بصوتٍ متهدّج:

"اعتنِ بنفسك جيدًا يا ابن العم... فأنت الوحيد الذي تبقّى لي".

وضعتُ يدي على كتفه، وحاولت أن أزرع في عينيه بعض الطمأنينة:

"يبدو أننا خُلقنا لمواجهة أصعب وأغرب الأمور... فلا تقلق عليّ".

قال خالد، وصوته يثقل صدره:

"إنقاذ هذا العالم يقع على عاتقك يا أكحل... لذلك توخَّ الحذر جيدًا".

ابتسمتُ وأنا أربّت على كتفه:

"بل على عاتقنا معًا..."

ثم تركتُه خلفي، ولحقتُ بخضر الذي كان قد قادنا إلى ممرٍّ ينحدر نزولًا تحت الأرض. كان الممرّ حجريًّا، رطبًا، يضجّ بالصدى وكأننا نمشي في جوف جبلٍ حيّ.

سرعان ما بلغنا بوابةً حديدية صغيرة. دفعها خضر فانفتحت، وفجأة انكشف أمامي مشهدٌ مهيب:

الجبال الشاهقة تحاوط المكان في صمتٍ مهيب، والبحر يمتدّ أمامنا واسعًا، مياهه تتلاطم بقوّةٍ على الصخور. وعلى يمين الساحل... هناك وقفت المنارة البيضاء.

سفينةٌ أسطورية، بياضها صارخٌ كأنه نُحت من حجرٍ جيريٍّ ناصع، سماكتها تبعث على الثقة، وهيكلها الضخم يلمع تحت خيوط الضوء الرمادي. لم تكن كسفن البشر، بل بدت كأنها قطعةٌ من الجبل تحرّرت من صلابته لتطفو على البحر.

ركبنا جميعًا المنارة البيضاء، بينما بقي خضر على الشاطئ، يودّعنا. كان يدفع السفينة ببطءٍ نحو الموج، وملامحه تجمع بين الفخر والقلق.

(الفصل الثامن)

(غيبات الجب)

دخلنا إلى السفينة، وبدأت أتجوّل في أرجائها بتأنٍّ كمن يتفقد كيانًا حيًّا.

كانت الجدران في الطابق الأول مصنوعة من المرايا، تمتد بلا نهاية، تعكس وجهي في دوّاماتٍ لا تنتهي. أحسست للحظةٍ أنني غصتُ في بحرٍ من انعكاساتي، وأن كل ظلٍّ لي يهمس باسمٍ مختلف.

صعدت إلى الطابق العلوي، حيث دفّة القيادة.

هناك، كانت البوصلات الزجاجية تملأ المكان، تتلألأ كفقاعاتٍ من ضوءٍ محبوسٍ داخل زجاجٍ مقدّس. وعلى خشب الدفّة الكبير، كانت هناك نقوشٌ وأرقامٌ محفورة بعنايةٍ دقيقة، خطوطها كأنها تنبض بالحياة، ونظامها كأنه خريطةٌ سرّية للعالم كلّه.

اقتربتُ منها، ولم أفهم شيئًا... لكنها كانت تُشبه شيئًا يتنفّس، لا يُقرأ.

عدتُ إلى الطابق الأول، حيث وجدت ناصعة وحوراء جالستين على الأرض، مغمضتين أعينهما، كأنهما في سباتٍ عميقٍ أو استحضارٍ ما.

قلتُ متسائلًا:

«لماذا هذا الطابق بأكمله من المرايا؟ أهو نوعٌ من الزينة؟».

لم تُجِب حوراء، بينما فتحت ناصعة عينًا واحدة، نظرت إليّ من خلالها نظرةً ثقيلة كأنها تمرّ عبر زجاجٍ من زمنٍ آخر، وقالت بهدوءٍ غريب:

«هذه المرايا ليست كما تظن يا أكحل... إنها بوابات نجاة.

فالبحر ليس مكانًا واحدًا كما تراه، بل عوالم متداخلة... وبعضها أشدّ خطرًا مما فوقه».

تقدّمتُ خطوة، وقلت:

«وما بال النقوش والأرقام التي على الدفّة في الأعلى؟ ما معناها؟».

فتحت ناصعة عينها الأخرى بسرعة، ونهضت كمن استيقظ على نداءٍ قديم:

«عن أي نقوشٍ تتحدث؟! أرني!».

صعدنا معًا إلى الطابق العلوي، وما إن رأت النقوش حتى اتسعت عيناها، وارتجفت أناملها وهي تلامس الحروف الغائرة في الخشب:

«لم أرَ هذا العلم منذ قرونٍ طويلة...»

قلتُ مستغربًا:

«علم؟ أي علمٍ هذا؟».

استدارت نحوي، ويدها ما تزال تمسّ الحروف، وقالت بصوتٍ عميقٍ كأنه يأتي من الذاكرة:

«هذا هو علم النقش والحرف والأرقام.

إنه أقدم من الكتابة ذاتها، وبه صاغ الأوائل مفاتيح الأكوان.

هو العلم الذي يجمع بين الهندسة الروحية والاهتزاز الرقمي والرمز الطاقي.

كل حرفٍ فيه ليس صوتًا، بل تردّد. وكل رقمٍ ليس عددًا، بل بوّابة.

حين تجتمع الحروف والأرقام وفق ترتيبٍ معين، تولد منها طاقة تُحرّك الوجود نفسه.

به بُنِيَت المعابد الأولى، وبه فُتحت البوابات بين العوالم، وبه أيضًا يمكن تسيير البحر أو تهدئته.

لهذا نُقشت هذه الرموز حول دفّة القيادة... فهي ليست مجرّد زينة، بل خريطةٌ ومحرّكٌ في آنٍ واحد».

صمتت لحظة، ثم أضافت بصوتٍ خافتٍ كأنها تخشى أن يسمعها البحر:

«لكن من الذي تجرّأ ونقش هذا العلم هنا؟ لقد ظننا أنه اندثر...»

أومأتُ لِناصعة وأنا أقترب من النقوش، مددتُ أصابعي ببطءٍ ولمستُ أحد الرموز البارزة على الخشب، فشعرتُ باهتزازٍ خفيفٍ يسري من أطراف أصابعي إلى صدري، كأن السفينة نفسها تنبض تحت جلدي.

تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، لكن الاهتزاز لم يتوقف؛ بل اتسع حتى صار أشبه بدقّات قلبٍ عملاقٍ يملأ المكان.

همستُ:

«هل تشعرين بهذا؟... كأنها تتنفس!».

قالت ناصعة، ووجهها يزداد شحوبًا:

«نعم... المنارة البيضاء ليست مجرّد سفينة يا أكحل، إنها كائنٌ هندِسَ بهذا العلم، أُحييت بالحرف والرقم، لا بالخشب والمعادن. كل جدارٍ فيها، كل مرآة، كل بوصلة... هي جزءٌ من منظومةٍ حيةٍ تستجيب لمن يملك التردّد الصحيح».

نظرتُ حولي إلى البوصلات الزجاجية، كانت تومض جميعها بضوءٍ خافتٍ في الوقت نفسه، وكأنها تعزف أنشودةً سرّية لا يسمعها إلا البحر.

قلتُ بقلقٍ:

«لكن لماذا تستجيب لي أنا؟ لم أفعل شيئًا سوى لمس النقوش».

اقتربت ناصعة بخطواتٍ حذرة، ووضعت يدها فوق يدي، ثم أغمضت عينيها. لحظة صمتٍ طويلة تخلّلها خرير الأمواج من بعيد. ثم قالت:

«دمك... إنه يحمل تردّدًا نادرًا، من سلالةٍ كانت تتقن هذا العلم. لهذا تفاعلت السفينة معك. لقد تعرّفت إليك كما يتعرّف الكائن على صاحبه».

تراجعتُ بخطوةٍ صغيرة، والدهشة تملأني:

«سلالة؟! أي سلالةٍ هذه؟».

فتحت ناصعة عينيها، وفي بريقهما حزنٌ عميق:

«سلالة النورانيين، الذين جمعوا بين دم البشر ونور العوالم العليا. كانوا القادرين على تفعيل علوم النقش والحرف والأرقام... لم يبقَ منهم أحدٌ يملك هذه القدرة... إلا أنت، يا مفتاح البرزخين».

ارتجفتُ للحظة، وكأن البحر نفسه انحنى يسمع.

حوراء التي كانت قد لحقت بنا بصمتٍ، قالت بصوتٍ خافتٍ يشبه ترنيمة:

«إذا كانت المنارة البيضاء قد استجابت له... فهذا يعني أن الرحلة لن تكون نحو بحرٍ فحسب، بل نحو حدود العوالم».

سكتنا جميعًا، نُصغي لصوت السفينة وهي تهتزّ بخفةٍ، كأنها تستعدّ للانطلاق.

عندها نظرت إليّ ناصعة وقالت:

«حين تشرق أول شعلةٍ من مرايا الطابق السفلي، لا تلمس شيئًا دون أن تستأذن البحر... لأن كل سطحٍ عاكسٍ هناك قد يكون بوابةً مفتوحة، أو فخًّا لا عودة منه».

ثم أدارت وجهها نحو الأفق الرمادي، وأكملت:

«استعدّ يا أكحل... فالمنارة البيضاء لا تبحر إلا بأمرٍ من سلالةٍ واحدة، وسرّها لا يُكشف إلا حين يُستدعى النور من الظل».

وفي تلك اللحظة، دوّى صوتٌ غريبٌ من أعماق السفينة، أشبه بصرخةٍ مكتومةٍ في جوف الماء، فاهتزّت الأرض تحت أقدامنا، وارتفعت المرايا في الطابق السفلي تلمع كأنها تغلي بالضوء...

تبدّل ضوء البحر فجأة.

لم يعد رماديًّا كما كان، بل أخذ يكتسي زرقةً داكنة تومض في قلبها خيوطٌ من فضّةٍ تتحرّك ككائنٍ حيّ. اهتزّت المنارة البيضاء تحت أقدامنا، فتمسّكتُ بحافة الدفّة، بينما ارتفع صوتٌ عميقٌ من تحت السفينة، لا يُشبه أي هديرٍ سمعته من قبل، كأنه نشيدٌ قديمٌ يُتلى من جوف الماء.

صاحت حوراء وهي تشير إلى المرايا التي تزيّن جدران الطابق السفلي:

«لقد بدأت البوابات تستيقظ! إن السفينة تتعرّف على التردّد الذي بُعث فيها!».

ركضتُ نحو السلالم لأرى ما يحدث في الأسفل، تبعتني ناصعة وحوراء.

وما إن وصلنا إلى الطابق الأول حتى رأيت شيئًا يفوق الوصف:

المرايا التي كانت جامدةً قبل لحظات، أخذت تذوب ضوئيًّا، أسطحها تتماوج كما لو كانت ماءً مضيئًا، ودوائر من الرموز تسبح فوقها ببطءٍ مثل كواكب في مدارٍ صامت.

كل انعكاسٍ لي داخلها لم يعد يشبهني، بل كان يتحرّك وحده، كأنه نسخٌ مني تعيش في أبعادٍ مختلفة.

قالت ناصعة بصوتٍ مخنوقٍ بين الدهشة والخوف:

«ها قد فُتحت الممرّات بين البحار والأكوان. نحن الآن على حدود العالم المرئي».

تقدّمتُ ببطءٍ، ومددت يدي نحو واحدةٍ من المرايا، كان الضوء فيها كثيفًا حدّ الألم، لكنني لم أستطع مقاومته.

حين لمستُ سطحها، شعرتُ ببرودةٍ حادةٍ تسري في عروقي، وتجمّد الهواء حولي، ثم انشقّت المرايا كأنها صفحة ماءٍ انقسمت نصفين، وظهر من خلفها فضاءٌ أزرق لا نهاية له، فيه جزرٌ من نورٍ معلّقة بين السماء والماء.

تردّد صدى صوت ناصعة من خلفي:

«توقّف يا أكحل! لا تفتح البوابة دون أن تسمع نَفَس البحر!».

لكن الأوان كان قد فات.

السفينة كلّها مالت إلى الأمام، وكأن قوةً هائلة جذبتها إلى الداخل، فاختفى الشاطئ والسماء، وانغمرنا في بحرٍ لا شمس له ولا قمر، بحرٍ من الضوء السائل.

كانت الأمواج مصنوعةً من طاقةٍ شفافة، والنجوم تتحرّك تحتنا لا فوقنا.

سمعتُ ناصعة تصرخ، لكن صوتها جاء من بعيد، كأن بيننا مئات الطبقات من الزجاج.

تقدّمتُ نحو الدفّة لأحافظ على توازن السفينة، غير أن البوصلات بدأت تدور بجنونٍ واحدةً تلو الأخرى، ثم توقّفت فجأةً في اتجاهٍ واحد... نحو نقطةٍ تتلألأ في الأفق.

قالت حوراء وهي تمسك بجدارٍ من الضوء:

«إنها ليست نجمة... إنها البوابة الأولى، بوابة السرّ!».

رفعت ناصعة يدها فوق النقوش المنحوتة حول الدفّة، وردّدت كلماتٍ بلغةٍ لم أفهمها، لكن البحر تجاوب معها. تفتّحت البوابة كزهرةٍ من لهبٍ أزرق، وانطلقت المنارة البيضاء عبرها بانسيابٍ هائل، لا يشبه إبحارًا بل انزلاقًا بين نبضات الزمن.

في تلك اللحظة شعرتُ بشيءٍ غريبٍ في صدري، كأن أحدهم فتح داخلي بابًا خفيًّا، وامتلأت روحي بضوءٍ لم أعرفه من قبل.

كنتُ أرى العوالم تتقاطع، سماءً فوق سماء، وبحارًا تطفو على بحار.

ثم سمعتُ همسًا في أذني، همسًا أعرفه جيدًا:

صوت القائد المحتجز في أغارثا، يقول لي كما في الرؤيا القديمة:

«لا تفتح البوابات... إلا إذا ظهرت العلامة».

انطفأ كل شيء في لحظة.

الضوء انكمش، والمرايا عادت إلى صلابتها، والمنارة البيضاء توقّفت في بحرٍ ساكنٍ لا موجَ فيه ولا نسيم.

نظرتُ إلى ناصعة، كانت تتنفّس بصعوبةٍ ودمعةٌ تلمع على خدّها، وقالت بصوتٍ مبحوح:

«لقد رأيتَها... أليس كذلك؟ العلامة بدأت تظهر فيك، يا مفتاح البرزخين».

سرتُ ببطءٍ نحو الدفّة، وما زال قلبي يخفق كطبولٍ في كهفٍ عميق.

نظرتُ إلى كفّي، فشاهدتُ خيطًا من الضوء يمتدّ تحت الجلد، رفيعًا كالعرق، لكنه يلمع بلونٍ ذهبيٍّ خافتٍ ثم يخبو.

رفعتُ نظري إلى ناصعة، فبدت مأخوذةً بالمشهد، عيناها متّسعتان بين خوفٍ وإجلال.

قالت وهي تقترب بخطواتٍ مترددة:

«إنها العلامة... تلك التي وُصِفَت في السجلات القديمة. وها هي الآن تتجلّى فيك».

تقدّمت حوراء وأمسكت بذراعي برفق، كأنها تخشى أن تُطفئ النور بلمسةٍ عنيفة.

همست:

«كان البحر ليبتلعنا لولا هذا... السفينة أطاعتك يا أكحل. لقد عرفت سيدها».

بينما كانت كلماتها تتلاشى، اهتزّت المنارة البيضاء اهتزازًا طفيفًا، ثم استقامت على سطح الماء.

الضوء الذي كان يملأ المرايا بدأ يخفت تدريجيًا، والبوصَلات هدأت واحدةً تلو الأخرى، حتى ساد سكونٌ تام، لا يُسمع فيه إلا خرير البحر وتنفس الخشب.

تقدّمتُ نحو الدفّة، وضعت يدي على النقوش، فإذا بها دافئة، تنبض كجلدٍ حيّ.

همستُ لها دون وعي:

«اهدئي... لقد عدنا».

فأجابت السفينة كأنها فهمت، وانسابت بخفةٍ فوق الماء.

تحرّكت المنارة البيضاء من جديد، تمخر البحر بسلاسةٍ عجيبة، لا تُصدر صريرًا ولا صدى.

كانت تمشـي كأنها لا تمشـي، تنزلق فوق سطـحٍ غير مرئي، والريح تداعب أشرعتها دون أن تُمزّقها.

وقفت ناصعة بجانبي، تتأمل الأفق الممتدّ أمامنا، وقالت بنبرةٍ هادئة بعد طول اضطراب:

«لقد اختارت طريقها... يبدو أنّها تتجه نحو الجنوب الغربي، نحو منطقةٍ لا تظهر في خرائط البشر».

سألتها:

«وهل تعرفين ما ينتظرنا هناك؟».

أجابت:

«لا أحد يعرف، يا مفتاح البرزخين.

لكن السفينة لا تُبحر عبثًا، بل تتبع نداء البحر، والبحر لا ينادي إلا من كُتب له أن يسمع».

نظرتُ إلى المرايا المحيطة بنا، كانت لا تزال تعكس وجوهنا، لكنها هذه المرّة بلا اضطرابٍ ولا دوّامات. انعكاساتي كانت ساكنة، مطمئنة، كأنها وجدت مكانها أخيرًا.

رفعت رأسي نحو السماء، فإذا بالسحب الرمادية بدأت تتفكك، وخيطٌ من الضوء الذهبي انحدر من الأفق، ليلامس مقدّمة السفينة كما لو كان بشارةً من عالمٍ آخر.

وقفتُ هناك، والريح تحرّك أطراف شعري، وقلبي يهدأ شيئًا فشيئًا.

قلتُ في نفسي:

«ربما لم تكن العلامة كما ظننت... بل بوصلتي الحقيقية».

وحين نظرتُ إلى البحر مجددًا، رأيتُ الدرب المائي يفتح نفسه أمام المنارة البيضاء، طريقًا من ضوءٍ خفيفٍ يمتدّ حتى الأفق.

فابتسمتُ، وقلتُ بصوتٍ سمعه الجميع:

«إلى حيث يشاء البحر... فلنمضِ».

وانطلقت السفينة بسكونٍ مطمئن، تشقّ صفحة الماء كما يشقّ الحلم صدر الليل، تمضي بثقةٍ نحو المجهول.

نزلنا جميعًا إلى الطابق الأول، حيث كانت المرايا قد استعادت صفاءها، تعكس صفحة البحر الهادئ كأنها تراقب نبضه في صمت. جلسنا نتأمّل المشهد، والموج يتكسّر على جوانب السفينة بهدوءٍ يشبه التنفّس.

في تلك الأثناء، انفتح غطاءٌ خشبي في أرضية الطابق السفلي، وخرج منه آصف عاقدًا ذراعيه، وعلى وجهه ابتسامةٌ خفيفة، كمن اكتشف سرًّا صغيرًا في عالمٍ كبير.

قال وهو يمرّر يده على ثوبه المتّسخ قليلًا بالغبار:

«أظنّ أنّني أعلم إلى أين ستقودنا هذه السفينة».

رفعت ناصعة حاجبًا واحدًا، ونظرت إليه بنصف ابتسامةٍ مشككة:

«إلى أين يا عين البومة؟».

ضحك آصف بخفة، وقال وهو يتقدّم نحونا:

«إلى أرض المعالجين الشعبيين».

استدارت حوراء نحوه، وقد ارتسمت على وجهها علامات استغرابٍ ممزوجة بالتحفّز:

«ولماذا تظنّ ذلك يا آصف؟».

أجاب وهو يتكئ على أحد الأعمدة، نبرةُ الواثق تلوّن صوته:

«ببساطة... لأنها تتجه نحو الجنوب الغربي، وهناك فقط تقع تلك الأرض.

ثمّ إنّها المنطقة الوحيدة التي ما زال فيها الزاد».

تبادلت ناصعة وحوراء نظراتٍ سريعة، قبل أن تقول ناصعة بجدّيةٍ مفاجئة:

«أتقصد أنّ السفينة خاليةٌ تمامًا من الزاد؟».

ابتسم آصف بسخرية وهو ينفض الغبار عن كفه:

«وماذا تظنّين كنتُ أفعل في الطابق السفلي يا حولاء؟

كنتُ أتفقد المخازن، ووجدتها خاويةً كما فؤادٍ تركه البحر منذ زمن».

قاطعتْه ناصعة بنبرةٍ جافة:

«اسمي ناصعة، وليس حولاء».

أجابها آصف بابتسامةٍ جانبيةٍ وهو يشيح بنظره نحو الأفق:

«الفرق بينكما في النطق، لا في المعنى».

ضحكت حوراء ضحكةً صغيرة كسرت الصمت، بينما رمقته ناصعة بنظرةٍ حادة كأنها خنجرٌ مائل.

كنتُ أراقبهم بصمتٍ، وشعورٌ غامضٌ يسري في صدري؛ مزيج من الطمأنينة والقلق.

قلتُ وأنا أتأمل الأفق الممتدّ أمامنا:

«إذن، إلى أرض المعالجين... هناك حيث يبدأ أول اختبارٍ لنا».

ساد السكون لحظة، لا يُسمع فيها إلا خرير البحر وصوت أجنحةٍ بعيدةٍ تلامس الهواء.

وفجأة، ودون سابق إنذار، صرخت حوراء وهي تنهض بسرعة:

«لحظة! لحظة! أرض المعالجين الشعبيين!».

ثم اندفعت راكضة نحو الدفّة في الأعلى، تصعد السلالم بخفةٍ مضطربة، وعباءتها ترفرف خلفها كظلٍّ مذعور. وصلت إلى الأعلى وبدأت تتفقد البوصلات بتوترٍ واضح، تقلبها بيديها وتهمس لنفسها بكلماتٍ مبعثرة لا نكاد نفهمها.

التفت آصف ناحيتنا، وقال بنبرةٍ ضجرة وهو يشيح برأسه:

«ما بها هذه المجنونة؟».

قالت ناصعة بسخريةٍ باردة، وهي تعقد ذراعيها على صدرها:

«يبدو أنها تعاني من نفس مرضك».

وقبل أن يعلّق آصف، دوّى صوت حوراء من الأعلى وقالت:

«أرض المعالجين تبعد عنّا أسبوعًا ونصف!

كيف سنصمد طيلة هذه المدة دون طعامٍ ولا شراب؟!».

ساد الصمت في السفينة لوهلةٍ كأن الهواء نفسه توقف.

نظرتُ إلى ناصعة، كانت عيناها تتبادلان القلق رغم ملامحها الصارمة، بينما ظلّ آصف واقفًا بلا حراك، يحاول إخفاء ارتباكه بابتسامةٍ متكلفة.

قلت بهدوءٍ وأنا أتجه نحو السلالم:

«دَعوني أتحدث معها».

صعدت إلى الأعلى، كانت حوراء منحنية فوق الدفّة، تحدق في البوصلات الزجاجية التي تدور ببطءٍ كأنها تئنّ.

قلتُ وأنا أقف خلفها:

«اهدئي يا حوراء... سوف نجد حلاً».

ردّت بسرعة دون أن تلتفت:

«الأمر خطير يا أكحل!».

وضعتُ يدي على كتفها برفق، فتنهدت كمن أفاق من حلمٍ ثقيل، ثم قالت بصوتٍ خافت:

«أسبوعٌ ونصف دون زاد يعني أن البحر نفسه سيختبرنا... إما أن يطعمنا من أسراره، أو يبتلعنا في أعماقه».

وقفت بجانبها، أتابع الأفق الممتد أمامنا.

كانت السماء قد بدأت تميل إلى الرمادي، والبحر يزداد كثافةً كلّما تقدّمنا، كأنه يبتلع الضوء شيئًا فشيئًا.

في تلك اللحظة، لمحت ناصعة تصعد نحونا بخطواتٍ ثابتة، وقالت بصوتٍ هادئٍ كمن يُلقي حُكمًا قديمًا:

«لا تقلقي يا حوراء... المنارة البيضاء لا تبحر بالجسد، بل بالنية.

طالما فينا النور، فلن نجوع».

ابتسم آصف من أسفل السلالم وقال بنبرةٍ ساخرة رغم كل شيء:

«جميل... إذن اجعلوا النية تشبعني الليلة، لأنني بدأت أشعر بالجوع الآن!».

ضحكت حوراء بخفةٍ وسط توترها، أما أنا فكنت أراقب البوصلة، التي لم تتوقف عن الدوران منذ لحظة، وأدركتُ في أعماقي أن الرحلة القادمة لن تختبر صبرنا فحسب... بل إيماننا أيضًا.

ثم قلت محاولًا تهوين الموقف، مبتسمًا رغم توتر الموقف:

«ألسنا نحن الروحانيين لا نحتاج أن نأكل أو نشرب كثيرًا؟».

قالت حوراء وهي تنظر إلى البحر بنظرةٍ قلقة:

«صحيح، لكن الجسد وإن ترفّع عن شهوة الطعام، يبقى له صوته.

بضع تمراتٍ وجرعة ماء، لا أكثر... لكنها الفرق بين الصمود والسقوط.

ونحن في هذا البحر، لا تمرات ولا ماء... ولا حتى شاطئ نلوذ به».

أومأت برأسي بتفكّرٍ وقلت:

«بما أننا في وسط البحر، سأحاول أن أَصطاد لنا بضع سمكات.

وأنت يا آصف، أريدك أن تطير في الأرجاء، ربما تجد مصدرًا للماء هنا أو هناك».

حدّق فيّ آصف بعينيه اللامعتين كعيني بومةٍ ترى في الظلام.

ابتسم بخفةٍ وقال بصوتٍ مبحوحٍ يحمل سخريةً خفيّة:

«أترسل جنيًّا ليبحث لك عن ماء؟ أليس هذا كمن يطلب من النار أن تجلب له المطر؟».

ابتسمت وأنا أجيبه بثقةٍ هادئة:

«ومن قال إنك نار يا آصف؟ أنت ما بينهما... لا تحترق ولا تُبلل.

ثم إن السماء تفتح صدرها لمن يعرف طريقها».

ضحكت حوراء بخفةٍ قصيرة وقالت:

«إذن احذر ألا تُغريك الغيوم يا آصف... فكم من طائرٍ ضلّ الطريق وهو يظنّ أن الضوء صيده».

ابتسم آصف بزاوية فمه، وارتسمت على وجهه ملامح كبرياءٍ خفيّ، ثم قال بنبرةٍ عميقة:

«الطائر الذي يضلّ طريقه يا حوراء... لم يعرف يومًا كيف ينظر بعينين تشبهان الليل».

ثم انحنى قليلًا، وفتح أجنحته السوداء الضخمة.

انطلقت منها ريحٌ باردة كأنها صدى، وارتجّت المنارة البيضاء تحتنا.

أحسستُ للحظةٍ أننا نقف أمام مشهدٍ من زمنٍ نسيه البحر.

رفع رأسه نحو الغيوم، وصاح بصوتٍ عميقٍ دوّى في الأفق:

«سأعود قبل أن يغيّر البحر لونه!».

ثم ضرب الهواء بجناحيه، فانطلق صاعدًا نحو السماء، تاركًا خلفه أثرًا من الغبار الأسود والشرر الفضيّ.

اختفى في الغيوم الرمادية، وظل صدى جناحيه يتردد في الفضاء كأن السماء نفسها صار لها صوت.

وقفت حوراء تتابعه بعينيها المندهشتين، وقالت بصوتٍ منخفضٍ يشوبه الإعجاب:

«لو لم أعرف أنه معنا، لقلت أن البحر أطلق مخلوقًا من ظله».

(الفصل التاسع)

(شاعر العالمين) بعد ثلاثة أيام...

(نقش وحرف)

كانت المنارة البيضاء تمخر البحر بصمتٍ يشبه الانتظار، لا يُسمع فيه إلا همس الموج وصرير الحبال القديمة وهي تتمايل مع النسيم.

في صباح اليوم الثالث، جلستُ عند حافة السفينة أمسك بخيط الصيد، أراقب انعكاس السماء على الماء.

كان البحر ساكنًا أكثر من المعتاد، كأنّه يحبس أنفاسه معي.

وفجأة تحرّك الخيط في يدي بعنف، فشدَدته بقوة حتى خرجت من الماء سمكةٌ ضخمة، يلمع جسدها تحت الضوء كقطعة فضّةٍ حيّة.

وضعتها على سطح السفينة، كانت لا تتحرك كثيرًا، فقط تحدّق بي بعينين واسعتين باردتين، فيهما سكونٌ غريب... سكونُ من اختار الرحيل طوعًا.

جلست ناصعة أمامها، تنحني عليها بهدوء، ثم مدّت يدها تمسح على رأسها برفقٍ كما لو كانت تمسح على طفلٍ نائم.

قالت بصوتٍ خافتٍ تأمليّ:

أتَعلم يا أكحل ما هو علم النظرة؟

قلت باستغراب:

علم النظرة؟ لا... أخبريني عنه.

قالت وهي تشير إلى عين السمكة:

انظر إلى عينيها جيدًا... ما الطابع الذي تعطيه لك؟

تأمّلتها لحظة، ثم قلت:

يبدو أنها كانت سعيدة قبل أن أصطادها.

قالت بهدوءٍ عميق:

وكيف استنتجت ذلك؟

قلت:

من عينيها بطبع.

ابتسمت ناصعة وقالت:

بالضبط، هذا ما أعنيه.

فعلم النظرة يحوي انعكاس ما مرّت به الروح، لينعكس بدوره على العين.

العين مرآة الصدق الأول، فيها تُكتب الحكايات التي لا تُقال.

قلت وأنا أزفر بخفة:

هذا معروف يا ناصعة، لا جديد في ذلك... أين العلم هنا؟

اقتربت مني، وضعت يدها على صدري وقالت بصوتٍ دافئٍ يحمل نغمةَ يقين:

العلم هنا يا أكحل...

إذا أدركنا أن انعكاس روحنا يأتي عبر أعيننا، يمكننا أن نوجّه منه ذبذباتٍ معينة، رسائل طاقية تصل لمن أمامنا دون كلمة واحدة.

هذا بحرٌ واسع من الفهم، لا يخوضه إلا من كان نوره صافيًا.

سكتت لحظة، ثم أضافت وهي تنظر في عينيّ مباشرة:

وأنت يا أكحل... من الذين وُهبوا هذه الميزة.

نورك القويّ المنبثق من روحك ينعكس في عينيك، فيجعل حضورك مهيبًا، يلفت النظر ويهزّ القلوب.

من كان في قلبه مرض، أو من كان ملبوسًا من الجن أو الشيطان، يشعر برعبٍ داخليّ حين يراك.

لأنك لا تُخيفهم أنت، بل يراهم النور الذي فيك كما تراهم المرايا.

ابتسمت وهي تزيح يدها عن صدري وقالت:

لذا لا تقلق... إن عدت إلى حياتك يومًا ما، ورأيت بعض البشر يخافونك دون سبب، فتذكّر أنك لا ترعبهم... بل ترعب قرناءهم.

ضحكت حوراء بخفة وهي تأخذ السمكة من أمامنا:

أما أنا فأتضور جوعًا هنا، وأنتم تتفلسفون كأننا في درسٍ من دروس الغيب!

ابتسمت ناصعة، غير أنها لم تتحرك من مكانها، بل نظرت إلى السمكة بعينٍ دامعة وقالت بصوتٍ مبحوح:

يبدو أنني لن آكل هذه السمكة تحديدًا.

ردّت حوراء بسخريةٍ لطيفةٍ وهي تضعها على الجمر:

إذن موتي جوعًا، فلسفتك لن تشبع أحدًا.

لم أكَد أبتسم حتى اخترق الصمت صوتٌ هائلٌ قادمٌ من بعيد...

رفرفة أجنحةٍ قويةٍ تشقّ الريح كالصواعق، صدى يقترب بسرعةٍ من السماء حتى تزلزل سطح السفينة.

رفعت حوراء رأسها وقالت بدهشة:

إنه آصف!

قالت ناصعة وهي تتظلل من الريح المتصاعدة:

أتمنى أنه تمكّن من إيجاد بعض الماء لنا.

قالت حوراء بنبرةٍ ساخرةٍ تخفي قلقها:

ثلاثة أيام كفيلة بذلك، وإلا فليعد ومعه البحر نفسه!

وما هي إلا لحظات حتى ظهر من بين الغيوم...

جناحان أسودان عظيمان يخترقان الضباب، وريشٌ يتلألأ ببريقٍ رماديٍّ في الضوء الباهت.

هبط آصف بخفقةٍ عظيمةٍ على سطح المنارة البيضاء، والغبار يدور حوله كدوّامةٍ من ظلالٍ حيّة.

كان يحمل بين ذراعيه وعاءً غريبًا من حجرٍ أزرق، يقطر من أطرافه بخارٌ بارد كالدخان.

قال بصوته الأجشّ، وقد لامست قدماه الخشب:

وجدتُ هذا في قمة جبلٍ بعيد...

قالت ناصعة وهي تنظر إلى آصف بنظرةٍ حانيةٍ فيها قلق:

ولِمَ يبدو على وجهك الحزن يا آصف؟

حتى وإن كان الماء قليلًا فسوف يفي بالغرض.

أجاب آصف بصوتٍ خافتٍ يحمل بين نبراته غموضًا حزينًا:

لم أجد هذا الوعاء وحده... بل وجدت شيئًا آخر معه.

قالت حوراء باستغراب وهي ترفع حاجبيها:

وماذا وجدت أيضًا؟

صمت آصف قليلًا، وكأنّه يبحث عن ترتيبٍ للكلمات التي تكفي لتفسير ما رأى، ثم قال:

في الحقيقة... ظللت طوال عودتي أفكر كيف سأقول لكم ما حدث،

وكيف ستصدقونني أصلًا،

لأنني نفسي لم أجد تفسيرًا منطقيًا لما رأيته.

قلت وأنا أقترب منه خطوةً بخطوة:

لا تختبر صبرنا يا آصف، وأخبرنا بما جرى فورًا.

أخذ آصف نفسًا عميقًا، أغمض عينيه لـ لحظة وقال بصوتٍ منخفضٍ كمن يروي حلمًا لم يستيقظ منه بعد:

عندما انطلقت باحثًا عن الماء، قصدتُ الجبال.

قلت في نفسي: لعلّي أجد واديًا فيه بعض الندى أو نبعًا نائمًا تحت الصخر.

ظللت أُحلّق يومًا كاملًا، حتى تعبت الريح من جناحي،

لكن فجأة... رأيت شيئًا لم يكن في الحسبان.

في البداية ظننت أن عينيّ تخدعاني،

فتقدّمت أكثر لأتأكد،

وحين اقتربت، تأكدت أن ما أراه حقيقي.

كان هناك جسدٌ لرجلٍ عجوز يرتدي عباءةً سوداء،

وبجانبه عصًا خشبية،

مستلقٍ فوق قمة أحد الجبال،

أو هكذا ظننته في البداية... جسدًا ميّتًا.

قالت ناصعة باستغرابٍ وهي تقترب منه:

ماذا تقصد بـ (ظننته جثة)؟

ثم كيف لإنسيٍّ أن يوجد هناك أصلًا؟

تلك الجبال مقفرة، لم يسكنها البشر منذ آلاف السنين!

أومأ آصف برأسه وقال بصوتٍ متهدّج:

وهذا ما أثار خوفي قبل دهشتي.

المنطقة لا تصلح لحياة أحد... لا بشرًا ولا جنًّا.

لكن ما قصدته أنني ظننته جثة، لأنه كان ساكنًا لا يتحرك،

وقد غاص جسده في التراب حتى صار جزءًا منه،

ثم حين هممت بمغادرة المكان، أحسست بحركة خلفي...

التفتُّ بسرعة، فرأيته واقفًا!

دون أن تُحركه ريح، ودون أن يثني ظهره،

عيناه حمراوان تلمعان كجمرةٍ في الضباب،

يمسك بعصاه الخشبية ويحدّق نحوي بثباتٍ لا يوصف.

حبستُ أنفاسي وأنا أسمع آصف يكمل، فقال:

قال لي بصوتٍ أجشّ يشبه صدى الكهوف:

(أشمّ حولك رائحة مفتاح العالمين والبرزخين...)

ثم ابتسم ابتسامةً غريبة، خافتة، فيها حكمةٌ وتهديدٌ معًا.

خلع عباءته السوداء ومدّها نحوي قائلًا:

(هذه أمانةٌ عندك، سلّمها لفتى النبوءة، فسوف يحتاجها...)

ثم رفع سبابته إلى السماء، وتشهد قائلًا:

(الفتى أمانةٌ لديكم، فاحفظوه يا بني الجنّ).

ثم استدار، وأعطاني ظهره،

وعاد إلى مكانه ذاته،

واستلّ جسده إلى الأرض كمن يعود إلى نومٍ أبديٍّ،

حتى غطّاه التراب من جديد.

مدّ آصف يده نحوي، كانت ترتجف قليلًا،

وفيها تلك العباءة السوداء.

قال بصوتٍ مبحوحٍ وقد انعكست النار في عينيه:

هذه الأمانة لك يا أكحل.

ساد صمتٌ مهيب، سكونٌ كأن الزمن توقّف معنا.

الهواء تجمّد، والموج نفسه خفّف أنفاسه.

قالت ناصعة وحوراء بصوتٍ واحدٍ، وقد نظرتا إلى العباءة بدهشةٍ خالصة:

طاقةٌ نورانيةٌ ثائرة!

مددتُ يدي ولمستها...

وفي اللحظة التي لامست أصابعي القماش، شعرت كأنّ الرعد انسكب في عروقي،

كهرباء مقدّسة تسري من صدري إلى أطراف

أصابعي.

قالت ناصعة بذهولٍ وهي تراقب وجهي:

من يكون هذا العجوز يا ترى؟

أجابت حوراء وهي تمسك رأسها بألمٍ خفيف:

لا أدري... لكني بدأت أشعر بصداعٍ من شدّة طاقته.

وهذا يعني شيئًا واحدًا...

أنه ليس رجلًا عاديًا.

نظرتُ إلى آصف وقلت بقلق:

أما أخبرك من يكون؟

قال آصف بصوتٍ مضطربٍ وهو يتذكّر:

حاولتُ سؤاله مرارًا... لكنه لم يجبني.

بقي مستلقيًا على الأرض كما لو أنه عاد إلى سباته الأول.

لكن أكثر ما أخافني... عينيه.

صمت قليلًا، ثم قال وهو ينظر بعيدًا:

عينا ذلك العجوز... كان فيهما شيء لم أفهمه.

نظرة لا يملكها بشر... ولا حتى جنيّ.

ولأول مرة منذ قرون، خِفت... من إنسيٍّ.

مددتُ يدي نحو (العباءة السوداء)، كانت ساكنةً كظلٍّ نائم، لا تتحرك رغم الريح.

وحين لامست أصابعي نسيجها، أحسست كأن آلاف الهمسات القديمة تسري في جلدي، أصواتٌ خافتة تشبه لغاتٍ من زمنٍ لم يعد يُتلى.

رفعتها ببطءٍ، كانت أثقل مما ظننت، وكأنها تحمل تاريخًا لا وزنًا.

نظرتُ إلى (ناصعة) و(حوراء) قبل أن أقول بهدوء:

يبدو أن عليّ أن أرتديها...

قالت حوراء بسرعةٍ وفي صوتها ارتجافٌ خفيف:

تمهّل يا أكحل، لا نعلم ما قد يحدث... هذه ليست عباءةً عادية.

لكن ناصعة وضعت يدها على كتفي وقالت بثباتٍ مهيب:

إنها أمانةٌ سُلّمت لك بالاسم... ولا تُختبر الأمانات بالخوف.

أغمضتُ عينيّ، وسحبتُ نَفَسًا عميقًا، ثم ارتديتُ العباءة.

وفي اللحظة نفسها، دوّى صوتٌ خافتٌ داخل السفينة، كأن المرايا في الطابق الأول تنفّست دفعةً واحدة.

ارتجّت (المنارة البيضاء) كلها، وتحوّل لون البحر حولها من الرماديّ إلى الفيروزيّ المشعّ.

شعرتُ بحرارةٍ تسري في صدري، كأن قلبي صار مصدرَ ضوءٍ صغير.

العباءة التصقت بجسدي ثم تمدّدت، واندمجت بي كأنها تعرف موضعها منذ الأزل.

صرخت حوراء وهي تتراجع خطوةً إلى الوراء:

عيناه! انظروا إلى عيناه!

كانت المرايا تعكس وجهي من كل اتجاه،

وعيناي تلمعان الآن بلونٍ ذهبيٍّ متوهّج، لا يشبه ضوء النار، بل نورًا ناعمًا ساكنًا كاليقين،

نورًا كأنه يقرأ ما لا يُرى.

قالت ناصعة بصوتٍ مبحوحٍ، تكاد لا تصدّق ما تراه:

طاقتك تغيّرت تمامًا... كأن العباءة أزالت عنك غشاءً خفيًا.

أكحل... هل تشعر بها؟

قلتُ وأنا أضع يدي على صدري:

نعم... أشعر أن قلبي يسمع، لا ينبض فقط.

أسمع السفينة، أسمع البحر، أسمع الريح... كلها تتحدث بلغاتٍ لم أكن أفهمها من قبل.

وفجأة، ودون سابق إنذار، ارتجّت السفينة كلها، وظهرت على جميع مراياها صورة رجلٍ عجوز،

يقف شامخًا كعمودٍ من زمنٍ غابر، ممسكًا بعكازه الخشبي، يضحك ويقهقه بصوتٍ يملأ المكان:

(آن أوان الأين... آن أوان الأين!)

صرخ آصف بفزعٍ وهو يتراجع للخلف:

إنه هو! الرجل العجوز الذي كان على قمة الجبل!

أغمض العجوز عينيه وفتحهما بسرعة،

وانعكست صورته في كل المرايا وهو يحدّق نحوي مباشرةً، ثم بدأ يُلقي شعرًا غريبًا، بصوتٍ كأنه قادم من باطن الأرض:

لا يفهم كلامي إلا أصحابُ علمٍ يُشهدْ

أقولُه الآن أمام المشهدْ

وهو للظاهرين مذهبْ

وللغافلين مسندْ

ألفٌ وحاءٌ وميامٌ ودالٌ، والـ (بِنُ) بعد المجد تُشهدْ

اسمٌ سوف يسطره التاريخ ويُخلّدْ

ليُعرف أصحاب المسند، من يترأس المشهدْ

يا ابنَ العالمين، هل خُضتَ غمارها في يومين؟

أم تعدّيت العامين؟

عامين دفينين توقّفتَ خلالهما قرنينْ

وشهدتَ البدرينْ

حتى نادى إليك رجلٌ: إلى أين؟

وقد غرقتَ في البرزخينْ

وتقدّم عمري قرنينْ

وطفتُ بين المحيطينْ

وأدركتُ الحربينْ والسلمينْ

والمنادي بندائينْ

ثم توجهتُ إلى بلاد الحرمينْ

وكبّرتُ مرتينْ

واجتمع الجيشينْ

فسألوني: إلى أين، يا ابن العالمينْ؟

قلتُ: إلى رب القبلتينْ

وملك العالمينْ

وحاكم الثقلينْ

ثم انفتحت بوابةُ (الأين) مطلّةً على البرزخينْ

انتقلتُ إلى (الأين) وكان جلّ ذلك في عامينْ

وهي في الأصل قرنينْ

أوما كان صعبًا إدراك القرنينْ؟

وتشهّد بعينينْ

وتشرب من بطون المدركينْ

لحظة! أوما كانا خالدين؟

وعلى رمشِ عينك، زاد السواد من هول ما رأيتَ

حتى اكتحلتَ إلى الأبدين.

حين انتهى من إنشاده، ساد الصمت...

كأن السفينة كلها حبست أنفاسها معنا.

لم نتحرك، ولم نتنفس،

كانت المرايا ترتجف بصوتٍ خفيفٍ أشبه بترقّب السماء لحدثٍ جلل.

وفجأة اندفعت (المنارة البيضاء) بقوةٍ هائلةٍ إلى الأمام،

تشق البحر كالسهم، والريح تصفر حولنا بعنفٍ جنونيّ،

كأنّ يدًا غير مرئيةٍ تسحبنا نحو المجهول.

صرخت حوراء وهي تتشبّث بالحبال:

ما الذي يحدث؟!

أمسكنا جميعًا أطراف السفينة خشية أن نُلقى في البحر،

كانت المنارة البيضاء تندفع بسرعةٍ لم نعرف مثلها،

السماء تمزقت بالضوء، والماء يتطاير حولنا كسيوفٍ من الفضة.

حتى إذا هدأت فجأةً، وجدنا أنفسنا أمام جزيرةٍ مكسوّةٍ بالضباب، ترتفع منها أعمدة من نورٍ ذهبيٍّ صاعدٍ إلى السماء.

رفعت ناصعة رأسها ببطء، تأملت الجزيرة،

ثم التفتت نحونا ورفعت سبابتها نحو الأفق،

وعلى وجهها علامات الدهشة الخالصة وقالت بصوتٍ مرتجفٍ:

لقد وصلنا... نحن الآن في (أرض المعالجين الشعبيين).

انفجر آصف ضاحكًا وقال وهو يمسح العرق عن جبينه:

لا أدري من يكون هذا العجوز، لكن يبدو أنه خطيرٌ جدًا.

بقينا جميعًا في حالةِ صدمةٍ وذهول،

ننظر إلى بعضنا في صمتٍ طويل،

غير مصدّقين أننا وصلنا في لحظةٍ واحدةٍ

إلى مكانٍ كان من المفترض أن يستغرق الوصول إليه أسبوعًا كاملًا.

وقفنا جميعًا نلتقط أنفاسنا بعد الرحلة العاصفة، وبدأنا ننفض ثيابنا من غبار البحر وملح الريح.

كانت (المنارة البيضاء) ما تزال تهتزّ بخفةٍ فوق الماء، وكأنها تتنفس معنا بعد ولادةٍ جديدة.

نظرنا إلى الجزيرة أمامنا؛ أرضٌ مكسوّةٌ بالضباب، تفوح منها رائحة الأعشاب المجهولة، والهواء مشبعٌ بطاقةٍ غريبةٍ تشبه مزيج الندى والدخان.

تجهّزنا للنزول، فربط آصف أجنحته خلف ظهره، وسحبت حوراء عباءتها حتى لا تبتل، بينما كانت ناصعة تنظر إلى الأفق بعينٍ يقظةٍ كمن يقرأ إشاراتٍ لا يراها سواها.

هبطنا من على السفينة، وخطونا أولى خطواتنا على أرض (جزيرة المعالجين الشعبيين).

كانت التربة دافئة تحت أقدامنا، وكأنها تنبض بالحياة.

لكن لم تكد تمر لحظات حتى سمعنا أصوات أقدامٍ كثيرةٍ تقترب من كل اتجاه.

أصوات عصـيّ تضـرب الأرض بخطى منتظمـة، تتقـدم نحونا ببطءٍ ثقيلٍ يوحي بالرهبة.

قالت حوراء بصوتٍ متوتر وهي تلتفت حولها:

هذا لا يبشّر بالخير...

وما هي إلا ثوانٍ حتى تجلّى أمامنا مشهدٌ غريب...

خرج من الضباب جمعٌ كبير من الرجال والنساء، جميعهم شيوخٌ وكهول، يحملون عصيًّا خشبيةً طويلةً منقوشة، يتكئون عليها كأنها امتدادٌ لأعمارهم.

حتى الأطفال الذين رافقوهم كانوا قلةً، يُعدّون على الأصابع، يختبئون خلف كبارهم كطيورٍ صغيرةٍ خلف أجنحةٍ هرمة.

كان سكان الجزيرة جميعهم من كبار السن، كأنها أرضٌ لا تولد فيها الطفولة، بل تُحيا فيها الشيخوخة إلى الأبد.

توقفوا أمامنا صفًّا واحدًا، دون حركةٍ ولا كلام،

ثم فجأةً، ضربوا بعصيّهم على الأرض دفعةً واحدةٍ فاهتزت التربة تحت أقدامنا.

تقدّم منهم رجلٌ عجوز كفيف، عينُه اليمنى مشطوبة بندبةٍ عميقةٍ تشقّ وجهه، وصوته حين تكلّم كان كزئيرٍ يخرج من كهفٍ قديم:

أنا (غافر)، عمدةُ المعالجين هنا.

من أنتم؟ ومن أرسلكم إلينا؟

ساد الصمت لوهلة، حتى همّت ناصعة بالكلام،

لكنني رفعت يدي قاطعًا إياها، وتقدّمت خطوةً إلى الأمام وقلت بثبات:

أنا الأكحل، مفتاحُ العالمين والبرزخين،

أتيتُ من بين البُعدين لأحمي العالمين،

وقد آن أوانُ قيامة الكونين،

على أعداء البُعدين،

لينجلي الحقُّ بالحقّ على كل من خان توازن العالمين.

تبادلت العيون من حولي نظراتٍ متوترة،

وفجأةً التفت الجمع بكامله نحو بعضهم البعض في ذهولٍ صامت،

ثم ضربوا الأرض بعصيّهم ثلاث مراتٍ متتاليةٍ بصوتٍ واحدٍ اهتزّت له الأشجار.

أخرج غافر من بين ثنايا عباءته بوقًا عجيبًا، بدا كأنه نابُ مخلوقٍ منقرض،

ووضعه على فمه، ثم نفخ فيه بكل قوته،

فانطلق صوته العميق كأنه استدعاءٌ قديمٌ للسماء.

وفور أن خمد صداه، صرخ الجمع بصوتٍ واحدٍ كأنهم كيانٌ واحد:

أتيتَ سهلًا ولك المكان والأمان،

أتيتَ سهلًا يا ابن الأين والآن،

مرحبًا بك يا فتى النبوءة!

ثم استدار الجمع جميعًا في لحظةٍ واحدة،

وعادوا أدراجهم نحو عمق الجزيرة بخطواتٍ ثابتةٍ متناغمةٍ،

بينما ظلّ (غافر) واقفًا في مكانه، وجهه مرفوعٌ نحونا،

وأشار بعصاه الخشبية وقال:

اتبعوني... فقد تأخّر قدومكم كثيرًا.

تبادلنا النظرات ثم بدأنا نسير خلفه في صمتٍ،

حتى قطعت ناصعة السكون بضحكةٍ خفيفة وقالت مازحة:

لم أكن أعلم أنك تجيد الخُطب العسكرية والشعر أيها الأكحل.

ابتسمتُ وأنا أعدل العباءة على كتفي:

الفضل لما خضته من معارك في (قاف).

ضحك آصف وهو يسير خلفنا واضعًا يديه خلف رأسه وقال:

لو رأيتِه هناك يقود الجيوش ما انخدعتِ بشكله الجميل الآن...

ثم غمز لي وأضاف:

فقاف لا تُخرج إلا الرجال، أليس كذلك يا أكحل؟

ابتسمتُ وقلت:

والشاهد على ذلك (عوص).

فضحكنا أنا وآصف معًا،

بينما كانت حوراء وناصعة تنظران إلينا باستغرابٍ لا يخلو من فضول،

كأنهما لم تفهما ما الذي بين السخرية والحنين في حديثنا عن (قاف).

بدأنا نسير خلف (غافر) ببطءٍ، والضباب يزداد كثافةً كلّما توغّلنا في عمق الجزيرة.

كانت الأرض مغطاةً بعشبٍ رطبٍ ينبعث منه نورٌ خافت، كأنّ كلّ نبتةٍ فيها تحمل ذرّةً من القمر.

هواء الجزيرة مختلف... يحمل رائحة الأعشاب المُرّة والملح القديم.

كلّما تقدّمنا خطوةً، كنا نسمع همساتٍ بعيدةً لا نرى مصدرها، تشبه تراتيل تُتلى من تحت الأرض.

كانت أصواتًا ناعمةً كأنها أنفاس أرواحٍ قديمةٍ ما زالت تمارس الطقوس الأولى للشفاء.

تجلّت أمامنا بعد مسافةٍ قصيرةٍ قريةٌ صغيرة،

بيوتها من الحجارة البحرية، مستديرة الشكل، وأسقفها مغطاةٌ بأوراقٍ خضراء لامعةٍ تتوهّج في العتمة.

كلّ كوخٍ تحيطه أعشابٌ غريبة الألوان، بعضها يضيء بالأزرق الفاتح، وبعضها يتنفّس بخيوطٍ من الدخان البنفسجي.

وفي منتصف الساحة كانت هناك شجرةٌ ضخمة، جذعها ملتفٌّ كأفعوانٍ من نورٍ ذهبيٍّ باهت، وأغصانها تمتدّ إلى ما فوق الضباب.

توقّف غافر أمام الشجرة، وغرز عصاه في الأرض، ثم قال بصوته العميق:

هذه هي (شجرة الإحياء)، قلب الجزيرة ومصدر علمنا.

منها نعرف المريض من السليم، والممسوس من النقي،

وهي التي تحفظ أرواحنا من نسيان الطريق بين الدنيا والعوالم.

ثم أدار وجهه نحوي وقال:

يا فتى النبوءة، لقد أخبرتنا الرياح أنّك ستأتي.

ولكن... الرياح لا تذكر إلا من كانت له قضيّةٌ بين السماء والأرض.

فأخبرني، يا ابن العالمين، أيّهما أرسلك؟ السماء أم الأرض؟

نظرتُ إليه طويلًا، ثم قلت بهدوءٍ يشبه يقين البحر:

جئتُ من بينهما، من الحدّ الفاصل بين النور والظلّ،

أحمل سرَّ البرزخين... وأبحث عمّا بُعثتُ لأجله.

هزّ غافر رأسه بإجلالٍ، ثم قال:

إذن أنت في موضعك الصحيح.

(أرض المعالجين) لا تستقبل الضالين،

بل من خضّبوا أرواحهم باليقظة، وتوضّؤوا بالاختبار.

تقدّمت (ناصعة) بخطوةٍ وسألت:

وهل ستعلّموننا ما جئنا من أجله؟

ابتسم غافر، كانت ابتسامته غامضةً تشبه الشرارة الأولى في ليلٍ قديم، وقال:

بل أنتم من سيذكّرنا بما نسيناه.

ثم أشار بعصاه نحو الأكواخ وقال:

لكلٍّ منكم مكانٌ هناك،

سوف تقيمون هذه الليلة في (بيوت الضوء)،

ففي الفجر... ستبدأ مرحلة الكشف.

نظرت إليه حوراء وقالت بخفّةٍ حاولت بها كسر رهبة الموقف:

الكشف؟! وهل نحن مرضى؟

ضحك غافر بخفّةٍ مبحوحةٍ وقال:

كلّ من يمسّ هذا العالم، يُصاب بشيءٍ من دائه.

ونحن هنا... نُشفي بما لا يُرى.

ثم استدار بخطاه البطيئة نحو الشجرة،

وأخذ يهمس لها بكلماتٍ غير مفهومةٍ، بينما كانت أغصانها تتحرّك كأنها تجيبه.

رفع (غافر) رأسه ببطء، والعتمة المتسلّلة من بين أغصان (شجرة الإحياء) انعكست على وجهه المتجعّد كأنها خطوطٌ من زمانٍ آخر،

ثم قال بصوته الجهوريّ العميق الذي يخرج كصدى من بطن الأرض:

أنتم متوجّهون نحو (جزيرة الفصح)... أليس كذلك؟

تبادلنا النظرات باستغرابٍ صامت، ثم بادرت حوراء بالجواب وهي ترفع حاجبها بحذر:

نعم، لدينا عملٌ هناك...

ابتسم غافر، وكانت ابتسامته هذه المرة مختلفة؛ مزيجًا من المعرفة والشفقة، كمن يعلم أكثر مما يقول، ثم قال بنبرةٍ خافتةٍ حملت بين طيّاتها نغمةَ تحذير:

عملكم هذا... عملٌ سرمديٌّ...

وسرّ (جزيرة الفصح) ليس سرًّا عابرًا كما تظنّون،

إنه فخٌّ للعقل قبل أن يكون اختبارًا للروح...

تحوم حولها مكائد كثيرة... وقِوى لا ترحم الجاهلين.

اقترب خطوةً منّا، وأرض الجزيرة تئنّ تحت قدميه.

ثم أضاف وهو يشير بعصاه نحو الأفق الملبّد بالغيوم:

لذلك يجب أن تتحرّكوا بعد الغد...

فالوقت لا يرحم، والسماء بدأت تُرسل إشاراتها.

ثم صمت لحظةً، خيّم فيها السكون على المكان حتى كدنا نسمع أنفاس الشجرة.

اقترب منّي بخطواتٍ بطيئةٍ ووقف أمامي تمامًا، ثم مدّ يده ووضعها على كتفي.

كانت كفّه دافئةً على غير المتوقّع...

قال بصوتٍ عميقٍ وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة:

بل الأصحّ أن أقول... عليّ أن أُجهّزكم جميعًا،

لكن بالأخص... أن أُجهّزك أنت، أيها الأكحل.

ثم أغمض عينيه وهمس بكلماتٍ غير مفهومةٍ،

فلمع جذع (شجرة الإحياء) بضوءٍ ذهبيٍّ ناعمٍ،

وانبعث من بين أغصانها بخورٌ شفاف،

تحوّل شيئًا فشيئًا إلى دوائر من نورٍ تحيط بنا جميعًا.

نظرت إليه ناصعة وقالت بقلق:

ما الذي تنوي فعله؟

فتح (غافر) عينيه ببطء، وبدت في عينه اليسرى لمعةٌ غريبة، ثم قال بصوتٍ متهدّجٍ كأنّه يخرج من أعماق الأرض:

تماثيل (جزيرة الفصح) ليست حجارةً جامدة كما تظنّون، بل أجسادٌ لُعِنَت منذ قرونٍ بعيدة، حُبست فيها أرواحٌ نائمة تنتظر من يوقظها.

قرّب عصاه حتى كادت تلامس وجهي وقال:

لكن اللعنة يا بُني لا تُواجه بالسيف، ولا تُكسر بالعلم... بل تُحجَب.

يجب أن يكون لها (حاجب)، حاجبٌ من نورٍ ولحمٍ، يقف بينها وبين العالمين.

تبادلتُ النظرات مع ناصعة وحوراء، وشعورٌ غريبٌ تسلّل إلى صدري قبل أن يُكمل:

ولأنك جئت من بين البُعدين،

فأنت وحدك من يمكن أن يحملها دون أن يهلك.

اقترب أكثر، وحرك يده المرتجفة حتى وضع كفّه على صدري مباشرةً.

وفجأة تحوّلت رائحة البخور إلى نَفَسٍ من طِيبٍ مالحٍ كنسمة بحرٍ قديم.

تمتم بكلماتٍ بلغةٍ لم أعرفها، فبدأت الدوائر المضيئة التي تحيط بنا تدور ببطء، تلتفّ حول جسدي، ثم حول كفّه، حتى اجتمع النور في نقطةٍ واحدةٍ بين صدري ويده.

شعرت بحرارةٍ حارقةٍ تخترق جلدي،

ثم بخفّةٍ غريبةٍ تسري في عروقي كأن شيئًا يُزرَع بداخلي.

فتح غافر عينيه فجأةً، وقال بصوتٍ عميقٍ رزين:

تمّ الأمر... زرعتُ فيك (زرعة الحاجب).

تراجعت نصف خطوةٍ إلى الوراء، أتلمّس صدري،

كنت أشعر بنبضٍ غريبٍ تحت الجلد،

نبضٍ ليس من قلبي... بل كأنه نَفَسُ شيءٍ آخر يستيقظ في داخلي.

ابتسم غافر وقال بهدوءٍ مهيب:

الآن أصبحت اللعنة تعرفك... وتخشاك أيضًا...

لكن لكي تكتمل الزرعة، عليك أن تبيت الليلة تحت (شجرة الإحياء).

سألته حوراء بقلقٍ واضح:

هل سينام هناك وحده؟

هزّ رأسه إيجابًا وقال:

لن يكون وحده،

فالجزيرة تفتح عينيها على من تحبّه الشجرة.

أمّا أنتم فعودوا إلى الأكواخ.

ثم التفت إليّ وقال بصوتٍ خافتٍ يحمل ما يشبه الرجاء:

نمْ هنا الليلة، يا أكحل،

فالفجر القادم لن يراك كما أنت الآن،

بل كما كنتَ قبل أن تولد.

همَّ الجميع بالذهاب نحو أكواخهم،

وبقيت (ناصعة) عندي تُسلّيني بالحديث، وقد بدا عليها القلق من فكرة أن أظلّ وحدي تحت الشجرة تلك الليلة.

كانت تثرثر لتشغل بالها أكثر مما كانت تحاول إشغالي عن التفكير.

طوال الليل كان (غافر) يمرّ بين الحين والآخر، يقترب منّا ثم يقول بنبرته العميقة:

اذهبي يا ناصعة، لقد آن أوان النوم.

لكنها كانت تهزّ رأسها رافضةً الرحيل، فتختلق حديثًا آخر لتبقى.

حتى قال لها بعد محاولاته المتكرّرة:

يبدو أنكِ لا تستطيعين مفارقة معشوقكِ يا صاحبة العينين الملوّنتين.

احمرّ وجه (ناصعة) غضبًا واستشاطت وقالت بعصبيّةٍ مفاجئة:

أنا أكبر منه بأجيالٍ يا هذا العجوز الخَرِف!

ضحك (غافر) بخفّةٍ مبحوحةٍ وقال وهو يلوّح بعصاه:

وهل للحبّ يا ناصعة عمرٌ أو رقم؟

ارتبكت، وبدت على وجهها ملامح خجلٍ ممزوجةٍ بالغيظ، ثم قالت بصوتٍ مرتفعٍ وهي تدير ظهرها له:

تبًّا لك أيها الخرف!

وانطلقت مسرعةً نحو الكوخ القريب، تختبئ بين ضوء المشاعل وظلال الأشجار.

نظرتُ إلى (غافر) فضحكنا معًا، ضحكةً قصيرةً دافئةً كسكون ما قبل الفجر.

ثم وضع يده على كتفي وقال وهو يتنهّد:

نمْ الآن يا فتى النبوءة، فالشجرة لا تفتح عيونها إلا للنائمين.

ابتسمت، وراقبته وهو يمضي إلى كوخه القريب من جذع (شجرة الإحياء).

أمّا أنا، فجلست أرقب السماء، أتابع النجوم التي كانت تتلألأ بين الضباب،

وأفكر في الغد...

فيما سيحدث حين نُفعِّل جميع البوابات النجمية،

وفي القائد المحتجز في أغارثا، وفي فضولي العميق تجاه لقائه يومًا ما.

بدأت جفوني تثقل، والنعاس يتسرّب ببطءٍ إلى أطراف وعيي،

فأغمضتُ عينيّ وسمحت للهدوء أن يتملكني.

لكن قبل أن أغفو تمامًا،

سمعتُ صوتين قريبين يتحدثان خلف الشجرة.

فتحتُ عينيّ من جديد ببطء، والتفتُّ نحو مصدر الصوت،

لأرى مشهدًا غريبًا:

كهلًا عجوزًا يجلس متربعًا، وإلى جواره طفلٌ صغير،

وكان العجوز يقول للصبيّ بنبرةٍ هادئةٍ عميقةٍ تشبه النصح القديم:

دعني أسألك يا يونس...

قال الطفل ببراءة:

تفضل يا عمّ.

قال العجوز:

هل حمدتَ الله على الله؟

استعجبت من السؤال،

ودخلتُ في دوامةٍ لا متناهيةٍ من التفكير في هذا السؤال الفلسفي العميق، فظللتُ مُنصتًا لهما بشغفٍ غريب، متشوقًا لسماع الإجابة.

قال الطفل باستغراب:

ماذا تقصد يا عمّ أنور؟

قال العجوز وهو ينظر إلى الأفق:

أقصد... هل حمدتَ الله على أنه خلقك،

وأوجدك في الدنيا،

ورزقك عقلًا لتفكر به،

وجعلك مُخيّرًا لا مسيّرًا،

وجعلك قادرًا بإذنه على أن تختار مصيرك،

إمّا إلى الجنة... وإمّا إلى النار؟

قاطع الفتى يونس العمّ ببرودٍ وقال:

لا أعتقد أننا مخيّرون.

ابتسم العمّ أنور وقال:

كيف لا، وأنت الآن اخترت أن تتحدث بمحض إرادتك المطلقة؟

قال يونس ببرودٍ طفوليٍّ غامض:

لم أفهم...

فقال العمّ بهدوءٍ وهو يشير له بيده:

اقترب... لكي أشرح لك بشكلٍ أفضل.

اقترب يونس من العمّ أنور،

وبمجرد أن أصبح أمامه...

لطمه العمّ أنور على وجهه لطمةً قويةً مفاجئة.

تراجع الفتى خطوةً إلى الخلف، واضعًا يده على خده بدهشةٍ ووجعٍ خافت، وقال بصوتٍ مرتجف:

لِمَ فعلتَ ذلك يا عمّ؟

ردّ العجوز بنبرةٍ هادئةٍ لكنها مليئةٌ بالمعنى:

الآن أخبرني يا بني...

هل كنتَ تملك أن تتفادى اللطمة؟

قال الطفل وهو يرمش بعينيه:

لا... لقد فاجأتني بها!

ابتسم أنور وقال بهدوءٍ يشبه الحكمة:

إذن أنت مخيّر، واخترتَ أن تقترب، ولكنك أيضًا مخيّر في اختيار الغضب أو الرضا...

سكت يونس لحظة وقال وهو يرمش بعينيه بتفكيرٍ طفوليٍّ عميق:

فهمت أني أختار شعوري بعد الفعل،

لكن كيف أكون مخيّرًا في الاقتراب نفسه؟

أليس ذلك مكتوبًا عليّ من قبل؟

ابتسم أنور بهدوءٍ وقال:

يا بُني... نعم، كل شيءٍ مكتوب، حتى اختياراتك.

ربّك يعلم إن اقتربتَ فستتلقى الصفعة،

ويعلم أيضًا إن لم تقترب فلن أستطيع أن أصفعك.

كل شيءٍ مكتوب بالفعل،

لكنّك مخيَّر في اختيار مكتوبك، أفهمت؟

ظلَّ (يونس) صامتًا، تتقلب عيناه بين الذهول والفهم، كأن الكلمات التي قالها العمّ (أنور) لم تُلقَ في أذنه بل في روحه مباشرة، كمن سمعها من ذاكرته لا من رجلٍ أمامه.

تلاشت الأصوات من حولي، حتى هدأت أنفاسي مع أنفاس الشجرة، وسكن كلُّ شيءٍ من حولي إلا قلبي، كان ينبض بهدوءٍ جديدٍ لم أعرفه من قبل.

رفعت بصري نحو السماء،

النجوم كانت تومض ببطءٍ كأنها تحمد هي الأخرى،

فأغمضتُ عينيّ وقلتُ في نفسي:

(الحمد لله على الخلق، على الوجود، على النور، على الظلمة، على ما فهمتُ وما لم أفهم بعد).

كان الحمد يتردّد في صدري كصدى الأسماء الأولى،

كأن كل حمدٍ يُفتح به بابٌ من طمأنينةٍ لا توصف.

وفي تلك الأثناء، أحسست بأن شيئًا في داخلي يُغلق آخر أبواب الوعي، كأن جسدي أُذيب في سلامٍ دافئٍ يُنادي النوم لا كراحةٍ بل كعبور.

استلقيت على الأرض تحت (شجرة الإحياء)،

وأغمضتُ عينيّ ببطءٍ،

وآخر ما سمعته كان همس الريح،

ثم دخلتُ في نومٍ عميق لم يكن نومًا من جسدٍ مرهق،

بل غفوةَ روحٍ على أعتابِ عالمٍ آخر...

استيقظت في اليوم التالي على صوت (ناصعة) وهي تقول بصوتٍ يحمل مزيجًا من القلق والفرح:

أكحل!.. أفق، لقد طلع الفجر!

فتحتُ عينيّ ببطء، كان الضوء يتسلّل من بين أغصان (شجرة الإحياء) كأنها مصفاةُ شمسٍ سماوية،

وشعرت بحرارةٍ لطيفةٍ في صدري عند موضع (زرعة الحاجب)، كأنها نبضٌ يتناغم مع خفقان قلبي.

اقتربت ناصعة أكثر، كانت تحمل بيدها وعاءً صغيرًا من الماء،

وانحنت وهي تبتسم بخفةٍ قائلة:

ظننتك قد متَّ من طول النوم، لقد ناديتك أكثر من خمس مرات!

قلت وأنا أجلس ببطءٍ ممسكًا برأسي:

كم نمتُ؟

قالت وهي ترفع حاجبها:

يومًا كاملًا تقريبًا، لم تتحرك طوال الليل ولا النهار،

حتى إن غافر قال إن الشجرة احتجزتك في حلمها.

نظرتُ نحو جذع الشجرة،

كانت أوراقها تلمع بوميضٍ خافتٍ بلونٍ ذهبيٍّ يميل إلى الأخضر،

والأرض من حولها تبدو مبلّلةً بندًى لم تهطل به السماء.

قلت بصوتٍ منخفضٍ وأنا أمدّ كفي على التراب:

لقد رأيت... أشياء لا تُوصف يا ناصعة.

جلست أمامي، نظراتها تنضح فضولًا واهتمامًا، وقالت:

أشياء؟ ماذا رأيت؟

تأملت السماء قليلًا ثم قلت بهدوء:

رأيتُ رجلًا وطفلًا يتحدثان... عن الله والقدر،

وكأنهما لم يكونا مجرد رؤيا، بل صوتين من داخلي.

قالت ناصعة وهي تهمس بجديةٍ واضحة:

هذا ليس غريبًا يا أكحل،

(شجرة الإحياء) لا تُري إلا ما بُذِر في القلب، وما خرجت منه تلك الليلة... سيُثمر فيك اليوم.

سكتُّ لحظةً وأنا أتأملها،

ثم لاحظتُ أنها تحدّق في صدري بقلقٍ،

فقالت بصوتٍ متردد:

أكحل... ما هذا الضوء؟

نظرتُ إلى صدري،

فإذا بموضع (زرعة الحاجب) يلمع بضوءٍ خافتٍ نابضٍ كأنه قلبٌ ثانٍ،

يتوهج مع كل نَفَسٍ أتنفسه.

مددت يدي إليه، كان الدفء يتصاعد من جلدي كأن داخلي بحرٌ من نورٍ يحاول الخروج.

نظرت إليّ ناصعة بدهشةٍ وهمست:

لقد اكتملت الزرعة... لقد أصبحت الحاجب حقًا.

قاطع حديثنا صوتُ صراخاتٍ عاليةٍ لأطفالٍ من جهة الساحة،

فالتفتنا نحو الصوت لنرى (آصف) يجري بخفةٍ فوق تراب الجزيرة،

وأجنحته السوداء تتماوج خلفه،

فيما كان خلفه عشرات الأطفال يركضون وراءه بضحكاتٍ بريئةٍ وعيونٍ مملوءةٍ بالدهشة.

تبادلتُ النظرات مع (ناصعة) ثم انفجرنا ضاحكين على هذا المشهد المضحك الغريب،

وقلت وأنا أتنفس بين الضحكات:

لِمَ يجرون خلف آصف؟!

قالت ناصعة ساخرةً وهي تمسح دمعة ضحكٍ من عينها:

تخيّل يا أكحل، لو كنت طفلًا ورأيت رجلًا بعينَي بومةٍ وجناحين سوداوين يمتدان بطول جسده،

ألن تظنّ أنك أمام دميةٍ ضخمة؟

لم أملك نفسي من الضحك،

لكنّ المشهد لم يدم طويلًا،

إذ ظهرت (حوراء) من بين الأكواخ وهي تحمل إناءً نحاسيًّا صغيرًا تصعد منه أبخرةٌ عطرةٌ خفيفة،

وقالت بصوتٍ مفعمٍ بالحيوية:

الحساء جاهز يا دبّ الكوالا!

رفعت حاجبي باستغرابٍ وقلت:

كوالا؟!

ابتسمت وهي تضع الإناء أمامي:

نعم... لأنك تنام كثيرًا مثلهم!

ضحكت (ناصعة) وقالت وهي تضع يدها على خاصرتها:

بل أظن أنه لن ينام بسهولةٍ بعد اليوم...

نظرتُ إليها وقلت مبتسمًا:

ولِمَ لا؟

أجابت بثقةٍ وهي ترفع رأسها:

طاقتك الآن أقوى من أن يطفئها النوم بسهولة،

لكن بإمكانك الدخول في حالة كمونٍ إن احتجت لذلك...

أو تثبيطها لاحقًا حين تتقن التحكم بها.

حينها تذكّرتُ ما تعلمتُه في قاف، وبدأتُ أستذكر تلك الأيام، ولكن فجأة ضربت (حوراء) بملعقتها على الإناء وقالت مقاطعةً بنبرةٍ مرحة:

دعونا من فلسفة الحولاء هذه!

واشرب حساءك يا أكحل،

فأنت لم تأكل منذ يومين،

وأقسم أن حساءهم هنا لذيذٌ للغاية...

ثم أمالت رأسها بابتسامةٍ خبيثةٍ صغيرةٍ وقالت:

خصوصًا أنني أنا من سكبته لك بنفسي.

كتمت (ناصعة) ضحكتها بصعوبة،

فيما بدأتُ أحتسي الحساء ببطءٍ تحت نظراتهما الساخرة.

قالت (حوراء) وهي تراقبني:

ما بكِ تضحكين يا حولاء؟

ردّت (ناصعة) وهي تنظر إليّ بخبثٍ واضح:

كنتُ فقط أتساءل...

هل تعلمين ممَّ يُعدّ هذا الحساء؟

رفعت (حوراء) حاجبها وقالت وهي تشمّ رائحته:

يبدو أن مكوّنه الرئيسي هو السبانخ... أليس كذلك؟

قهقهت (ناصعة) وقالت وهي تميل بجسدها نحوها:

بل مكوّنه الرئيسي هو (طحالب البحر المضيئة)!

توقفت عن الشرب فجأةً،

ونظرتُ إليها مصدومًا، بينما انفجرت (حوراء) ضاحكةً وقالت:

اهدأ يا دبّ الكوالا، إنها ليست سامة!

بل تُستخدم هنا لتقوية الجسد بعد طقوس الزرع،

توازن الطاقة، وتفتح مجرى النور في الروح...

لكنها لا تناسب من يُخفي شيئًا في صدره.

قالت (ناصعة) وهي ترفع كتفيها بمكر:

إن لم يكن قلبك صادقًا، فستحرمك من النوم ثلاثة أيامٍ بلياليها.

نظرتُ إليهما بقلقٍ مصطنعٍ وقلت:

عظيم... تخبراني بذلك بعد أن شربتُ نصف الإناء!

ضحكت (حوراء) بصوتٍ عالٍ وهي تلوّح بملعقتها:

لا تقلق، إن اختنقتَ الليلة فسنعتبرها تجربةً روحية!

أطلقت (ناصعة) ضحكةً طويلةً وقالت وهي تمسح دموعها:

لا بأس، سنضع وردةً على قبرك إن حدث ذلك.

ابتسمتُ وأنا أرفع الملعقة من جديد وقلت:

جميل، إذًا إن رأيتم ضوءًا يخرج من بطني الليلة... فلا تخافوا، إنها الطحالب تعمل عملها.

ارتفعت ضحكاتهما معًا،

بينما كان (آصف) في الخلفية لا يزال يركض محاصرًا بين الأطفال الذين يلاحقونه بانبهارٍ ومرح.

كان الصباح مشرقًا والهواء نقيًّا،

وشعرتُ للحظةٍ أن كل شيءٍ في هذه الجزيرة ينبض بالحياة.

ضحك، دفء، وبداياتٌ تشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة...

لكن فجأةً،

تبدّل الجو من حولنا، وسُمع صوتُ خطواتٍ وئيدةٍ قادمةٍ من جهة الشاطئ...

خطواتٌ يعرفها الجميع...

صوتُ عصا تضرب الأرض بإيقاعٍ مهيبٍ ثابتٍ لا يخطئه أحد.

ساد الصمت في المكان،

حتى الأطفال توقّفوا عن اللعب والتفتوا نحو الصوت...

كنتُ أعلم أن القادم هو (غافر).

نظرتُ إلى الأفق الممتد أمامي،

شعرتُ بحرارةٍ خافتةٍ في صدري،

كأن (زرعة الحاجب) تنبض فرحًا بقدومه،

أو ربما خوفًا مما سيقوله بعد قليل...

سكنت الضحكات فجأة،

وتجمّع الأطفال في صمتٍ خلف الأكواخ،

بينما كانت رائحة الأعشاب تزداد ثِقلاً في الهواء.

ظهر (غافر) أخيرًا من بين الأشجار،

رداؤه الرمادي الطويل يتمايل مع نسيم البحر،

وعصاه الخشبية تطرق الأرض كلّ بضع خطواتٍ بصوتٍ يشبه الطبول القديمة.

كان وجهه أشبه بخريطةٍ محفورةٍ بالتجارب،

وعينه الوحيدة تلمع بلونٍ بين الذهبي والعنبر...

وقف أمامنا بصمتٍ لثوانٍ طويلةٍ قبل أن يقول بصوته العميق المهيب:

"الوقت انتهى...

الريح بدأت تتبدّل، والمدّ في طريقه إلى الانكسار".

نظر إليّ مباشرةً، ثم تابع وهو يرفع عصاه نحو البحر:

"عليكم أن ترحلوا قبل أن تتحرك قوى الظلام...

فمنذ الليلة الماضية، اهتزّت بوابة الجنوب،

وتحرّكت أنواء اللعنة في أعماق (جزيرة الفصح).

إن لم نسبقهم إليها... سيسبقوننا إليها،

وحينها لن يبقى في هذا العالم ضوءٌ يكفي لإنقاذه".

ساد صمتٌ ثقيل،

الهواء نفسه بدا وكأنه يتوقّف عن التنفس ليستمع.

قالت (ناصعة) بخفوتٍ وفي عينيها قلقٌ شفيف:

قوى الظلام؟ أتعني أنهم يحاولون إيقاظ لعنة الجزيرة؟

أومأ (غافر) ببطءٍ،

ثم قال:

"نعم... فالظلام لا ينام طويلًا يا ابنتي، وما زال يبحث عن مفتاح العالمين... عن الأكحل".

شعرتُ بحرارةٍ خافتةٍ ترتفع من صدري نحو عنقي،

فمددتُ يدي لا إراديًا نحو موضع (زرعة الحاجب)،

كانت تنبض بسرعةٍ وكأنها تستجيب لحديثه.

قال (غافر) وهو يلاحظ ذلك:

"لقد استيقظت الزرعة تمامًا...

وهذا يعني أن علامتها اكتملت، وأن الوقت نفد.

المنارة البيضاء تنتظركم عند الساحل،

لكن عليكم أن تتحرّكوا قبل أن تغرب الشمس...

فإن غربت، أُغلقت الطرق السبعة،

وستصبح (جزيرة الفصح) خارج نطاق النداء إلى الفجر القادم".

تبادلتُ النظرات مع (ناصعة) و(حوراء) و(آصف) الذي كان قد عاد للتوّ من بين الأشجار،

كان التعب باديًا على وجهه،

لكن عينيه البوميتين تلمعان بترقّبٍ غامضٍ وكأنه يعلم ما ينتظرنا هناك...

قلتُ بهدوءٍ أحاول أن أخفي التوتر في صوتي:

سنكون هناك قبل غروب الشمس يا (غافر)،

حتى لو اضطررنا لشقّ البحر بأنفسنا.

ابتسم العجوز ابتسامةً خفيفةً وقال وهو يلوّح بعصاه:

"لا تشقّ البحر يا أكحل...

بل استمع إليه، فهو يعرفك منذ زمنٍ بعيد".

أومأتُ برأسي،

ثم التفتُّ إلى (ناصعة) و(حوراء) و(آصف)،

كانت وجوههم متوترةً لكنها حازمة،

كلٌّ منهم يدرك أنه لا عودة بعد هذه الرحلة...

قال (غافر) وهو يرفع عصاه في الهواء:

"الريح الجنوبية ستبدأ بعد لحظات،

وعندما تسمعون صفيرها، ارحلوا...

أما نحن، فسنظلّ ندعو الله أن تنجح مهمتكم قبل أن تنطفئ آخر منائر العالم".

توجّهنا إلى الساحل، كانت (المنارة البيضاء) تنتظرنا،

كأنها تعرف موعدنا دون أن نخبرها...

النسيم كان عليلًا، كأن الموج نفسه يتهيّأ لسماع وصيةٍ.

وقف (غافر) غير بعيدٍ عن الشاطئ،

وحوله عددٌ من كبار الجزيرة، رجالٌ ونساءٌ

كانت وجوههم تلمع بضوء الغروب الذهبي، وعيونهم تتبعنا بحبٍّ صامتٍ وطمأنينةٍ غريبةٍ كأنهم يودّعون أبناءهم لا مسافرين.

تقدّمتُ نحوه بخطواتٍ مترددة،

فابتسم وقال بصوته المبحوح الدافئ:

"رحلتكم ليست طويلة يا فتى النبوءة، لكنها عميقة...

أوصيك ألا تخاف من البحر... فهو لا يُغرق من يعرف اسمه".

ثم وضع يده على صدري، فوق موضع (زرعة الحاجب)،

وقال بخفوت:

"هذه ستقودك حين يُظلم الطريق...

إن شعرتَ بالضياع، أغمض عينيك واصغِ إلى ما بين نبضَيْك...

هناك ستسمع ما لم يُقَل بعد".

أحسست بحرارةٍ دافئةٍ تسري في قلبي مع كلماته...

ثم نادى بصوته على (ناصعة) و(حوراء) و(آصف)،

فجاؤوا ووقفوا إلى جواري.

قال (غافر) وهو يوزّع نظره بيننا جميعًا:

"أنتم لستم ضيوفًا على هذه الأرض، بل جزءٌ من توازنها...

احملوا عنّا السلام، وإن رأيتم الشرّ، لا تقاتلوه بغضب،

بل بالثبات... فالنور لا يصرخ حين يطرد الظلام".

كانت (حوراء) تحبس دموعها وهي تبتسم له،

أما (ناصعة) فخفضت رأسها احترامًا دون أن تتكلم،

وكذلك فعل (آصف)، ثم قال:

"أعدك أننا سوف ننتصر ونعود إليكم يومًا ما".

ضحك (غافر) بخفةٍ كأنها تنهيدةٌ من القلب وقال:

"عودوا كيفما شئتم، المهم أن تعودوا نورًا لا ظلالًا".

ثم أشار بعصاه نحو البحر وقال بنبرةٍ هادئةٍ حزينةٍ كأنها وصية:

"اذهبوا الآن... فالريح الجنوبية لن تنتظر كثيرًا،

وقوى الشرّ تتحرّك في صمتٍ كما تتحرّك الكوابيس قبل الصحو...

إن سبقتموها إلى (جزيرة الفصح)، فسيبقى النور سابقًا في العالمين".

اقتربتُ منه للمرة الأخيرة،

مددتُ يدي فقبض عليها بكل قوّته وقال وهو ينظر إلى عينيّ:

"حين ترى تماثيل الفصح، لا تهابها،

فاللعنات لا تُصيب من يثق بالله".

أومأتُ له،

ثم صعدنا إلى السفينة واحدًا تلو الآخر.

لم يلوّح أحدٌ بيده،

كان الوداع صامتًا لكنه ثقيلًا.

تحركت (المنارة البيضاء) ببطءٍ فوق الموج،

ورياح المساء تدفعها كأنها ذراعٌ خفيةٌ تمرّ عبر تلك النسمات،

أما على الشاطئ،

فكان (غافر) يقف شامخًا بعصاه، يراقب الأفق حتى ابتلعنا البحر،

وعلى وجهه تلك الابتسامة القديمة التي لا تُفرّق بين الحزن والرضا.

ندعوك للانضمام إلى قناتنا الرسمية على التلغرام

حيث نضع بين يديك مكتبة متجددة من المعرفة.

للإنضمام اضغط هنا

(الفصل العاشر)

(جزيرة الفصح ومفترق العوالم) بعد شهر...

مرّ شهرٌ كاملٌ ونحن على البحر.

شهرٌ طويلٌ كانت فيه الأيام تتشابه،

لكنّ الروح تتبدّل في كل فجرٍ كما لو أننا نولد من جديد.

كنت أقضي معظم الوقت جالسًا عند مقدّمة السفينة،

أكتب وأدوّن كلّ ما مرّ في حياتي منذ لحظة اختطافي من قِبَل المتنوّرين،

مرورًا بسلسلة جبال (قاف)،

وحتى هذه الرحلة التي لا تشبه أيّ رحلةٍ عرفها البشر.

كنّا نتواصل بين الحين والآخر مع المقرّ الرئيسي للهلاليين.

كانت رسائلهم تصلنا على هيئة نبضاتٍ ضوئيةٍ صغيرةٍ تُترجمها مرايا السفينة إلى كلماتٍ من نور،

يبشّروننا فيها بأنّ قوّتهم بدأت تطيح بمراكز المتنوّرين واحدًا تلو الآخر،

ويطمئنوننا أن العدوّ لم يصل إلى جزيرة الفصح قبلنا،

لأنهم منشغلون بلملمة شتاتهم بعد معارك طاحنة.

كنت أشعر أننا لسنا مجرّد صدفةٍ جمعتنا،

بل أن أحدًا ما، في مكانٍ ما، اختارنا بعنايةٍ دقيقةٍ كما تُختار الأحجار الكريمة لترصّع تاجًا خفيًّا.

رغم اختلافنا في الطباع، كانت بيننا ألفةٌ غريبة،

دفءٌ لا تفسير له، كأننا عائلةٌ ضاعت ثم وجدت نفسها أخيرًا.

في الصباحات، كان صخب (آصف) و(حوراء) يملأ السفينة.

شجاراتهما اليومية كانت أشبه بعزفٍ مألوفٍ لا تكتمل الرحلة بدونه،

فما إن يبدأ أحدهما بالحديث حتى تردّ الأخرى كالسهم،

ثم يتدخّل صوت (ناصعة) الرزين ليحاول تهدئتهما أو يُشعل الخلاف أكثر أحيانًا.

مع مرور الوقت بدأت أتعرف على (ناصعة) أكثر...

اكتشفت أنها تُبطن أكثر مما تُظهر،

ولا أقصد ذلك بالسوء... بل كانت تحمل في داخلها عالمًا آخر،

عميقًا كالمحيط، دافئًا كالأمومة، وغامضًا كالعوالم التي نعبرها...

كانت تارةً تبدو لي فتاةً صغيرةً تضحك بخفةٍ طفوليةٍ،

وتارةً أخرى امرأةً حكيمةً تشي عيناها بعصورٍ مضت

قبل مولدنا جميعًا.

وفي إحدى الليالي، اعترفت لي بسرٍّ لم أكن أتوقّعه...

قالت إنها في عمري تمامًا.

صُدمت للحظة، فكلّ تصرّفٍ منها كان يوحي بأنها أقدم من الزمن نفسه، ثم روت لي قصتها...

قالت إنها وُلدت يتيمة، وجدت والديها ميتين منذ صغرها،

وعاشت بلا مأوى حتى وجدها (الهلاليون) وضمّوها إليهم.

شاركتها (حوراء) ابتسامةً حزينة وقالت إنها أيضًا يتيمة،

لكنها أكبرنا سنًّا عدا (آصف)، وأقدمنا انضمامًا إلى الهلاليين.

كانت تتحدث عن ماضيها بحنينٍ لا يخلو من الألم، وكانت بمثابة الأمّ الروحية لنا جميعًا،

أشدّنا عطفًا، وأسرعنا غضبًا،

تصيح وتضحك وتطبخ وتواسي في آنٍ واحد.

كنت أحيانًا أنظر إليها فأشعر أنني أمام أحد عجائب الدنيا السبع؛ روحها شابة،

لكنّ في عينيها عمرَ حضارات.

كانت تُصرّ أن آكل جيدًا، تغضب إن تركت شيئًا في طبقي،

وتعاملني كما تعامل الأمّ طفلها العنيد.

تحكي كثيرًا عن زمن المماليك الذي عاشت فيه، وعن الأسواق والحروب والقصور،

وعن المآذن حين كانت تُنحت بأيدي المؤمنين لا بأيدي التجار.

وحين تفيض في الكلام، كان (آصف) يصرخ:

"اصمتي يا عجوز!".

فتغتاظ وتردّ عليه بالشتائم بلغةٍ لم نعرفها بعد.

أمّا (آصف)، فكان لا يملّ من التفاخر بأصله...

قال لنا ذات ليلةٍ إن أحد أجداده من الجنّ القدماء الذين حاربوا إبليس نفسه،

وأنه ورث عنهم جناحيه الأسودين وجرأته التي لا تعرف الخوف.

كنّا نضحك من غروره، لكنه كان يقولها بجديةٍ تثير الإعجاب والريبة في آنٍ واحد.

في تلك الليالي الطويلة، كانوا يسألونني عن عائلتي...

كنت أتنفس قليلًا قبل أن أجيب...

أخبرتهم أنني أنتمي إلى عائلةٍ لها مكانةٌ دينيةٌ ونَسَبيةٌ عالية، وأنّ لأفرادها مناصبَ سياسيةً حساسة،

لكن خلف كلّ ذلك الوهج كانت طفولتي مظلمة.

قلت لهم إن أبي لم يكن أبًا بالمعنى المعروف...

كان قاسيًا، يدرّبني كما لو أنني جنديّ في معسكر،

يضربني إن ضعفت، ويصرخ بي إن تعبت،

حتى ظننت أنه يريد قتلي لا تقويتي.

أما أمي... فكانت أشدّ.

لم أعرف يومًا منها حضنًا أو ابتسامة.

كانت تضربني بقسوةٍ على أتفه الأخطاء،

وتحبسني في غرفةٍ أحيانًا لأشهرٍ دون أن يزورني أحد...

كانت الغرفة مظلمةً إلا من بصيص نورٍ يتسلّل من تحت الباب،

ومع ذلك كنت أراها دائمًا حين تغادر:

قوية، متجهّمة،

لكن في عينيها حزنٌ غامضٌ لا تفسير له.

عندما وصلت إلى هذه الذكريات،

كانت (ناصعة) و(حوراء) تحدّقان بي بعيونٍ دامعة،

أما (آصف) فقد ابتسم ابتسامةً هادئة وقال:

"هذا ما جعلك قويًا يا أكحل... النار لا تلد إلا الحديد".

حينها تذكّرت كلمات أبي التي كان يردّدها كلّما سقطت أو بكيت:

(الصعوبات تصنع الرجال).

ابتسمت بمرارةٍ وأنا أفكر،

لو كان هنا الآن... هل كان سيراني رجلًا فعلًا؟

لكن ما أثار قلقي لم يكن القسوة، بل الذكريات التي بدأت تعود.

كنت أرى بين لحظةٍ وأخرى ملامح أبي أمامي،

تتبدّل في ذاكرتي وتتلألأ في الضوء...

حتى لم أعد أميّز، هل كان إنسانًا حقًّا؟

انتبهت (ناصعة) إلى شرودي،

فسألتني برقةٍ وهي تضع يدها على ذراعي:

"ما بك؟".

قلت بصوتٍ خافت:

"في أحد الأيام رأيتُ شيئًا غريبًا في عينيه...

كان يخرج منهما نورٌ أبيض، حقيقيٌّ، لا يمكن أن أكون قد تخيّلته".

رفعت (حوراء) حاجبها وقالت بدهشة:

"هل أنت متأكد؟".

أومأت ببطء.

"ذاكرتي لا تخونني، رأيت النور بأمّ عيني".

نظرت (حوراء) إلى (ناصعة) ثم قالت بصوتٍ مترددٍ:

"يبدو أن الأمر وراثة يا أكحل... النور في دمكم".

طلبت مني (ناصعة) أن أستحضر تفاصيل أكثر،

فأغمضت عينيّ قليلًا لأحفر في الذاكرة،

ثم قلت بعد لحظة صمتٍ ثقيلة:

"تذكرت شيئًا آخر... يومها كان يستعدّ للسفر،

ناداني إلى الخارج، فتح باب سيارته،

والتفت نحوي، كانت عيناه تضيئان وقال:

(هل أنت موافق؟ هل أنت جاهز لهذا؟)".

سكتّ لحظةً،

ثم أضفت بصوتٍ مرتجفٍ وأنا أنظر إلى البحر:

"حينها لم أكن أعي ما يقول،

لكنني شعرت كأن شيئًا داخلي يجيب عنه لا لساني...

قلت له: نعم، موافق... نعم، جاهز".

نظرتا إليّ (ناصعة) و(حوراء) في صدمةٍ تامة،

فقالت (حوراء) وهي تميل نحوي بفضولٍ واضح:

"أصبحت أتوق للقاء والدك أكثر من أي شيء".

ضحكت بخفةٍ وقلت:

"وأنا أيضًا... لكنّي لا أظنّه ما زال كما تركته".

حينها تقدّمت (ناصعة) نحوي،

احتضنتني بقوةٍ غير متوقعةٍ،

صوتها مختنقٌ بالعاطفة وهي تقول:

"لم تكن طفولتك سهلة يا أكحل...

لكن ربما، فقط ربما، كانت تلك القسوة طريقك إلى هنا".

ساد صمتٌ طويلٌ بيننا،

صمتٌ دافئٌ يشبه اعترافًا لا يُقال بالكلمات.

ثم ارتجّت السفينة قليلًا،

وصاح (آصف) من الأعلى بصوته الجهوريّ:

"أكحل! ناصعة! حوراء! تعالوا بسرعة!".

ركضنا إلى مقدّمة السفينة،

وهناك... تجلّى أمامنا المشهد الذي كتم أنفاسنا جميعًا.

كانت (جزيرة الفصح) أخيرًا أمامنا،

تنهض من قلب البحر ككتلةٍ حجريةٍ سوداء،

تغطيها غاباتٌ من الطحالب المضيئة التي تشعّ كأنها أنفاسُ أرواحٍ قديمة.

التماثيل العملاقة تصطفّ على الساحل، وجوهها محفورةٌ بعمقٍ مخيف،

عيونها موجّهةٌ نحو الأفق كأنها تنتظر قدومنا منذ قرون.

كان بعضها مائلًا،

والآخر غارقًا نصفه في البحر،

لكن جميعها تحمل النظرة ذاتها،

نظرة من يعرف أكثر مما يُقال.

قال (آصف) وهو يحدّق بدهشةٍ لا تشبهه:

"يا الله... إنها تنظر نحونا حقًّا".

همست (ناصعة):

"بل تشعر بنا... تماثيل الفصح لا ترى بالعين، بل بالروح".

وقفتُ أمام المشهد،

والريح تضرب وجهي،

والسماء تميل إلى لونٍ رماديٍّ غامقٍ كأنه تحذير،

ثم قلت بصوتٍ خافتٍ تسمعه الريح وحدها:

"ها نحن ذا... أمام البوابة التي تُفرّق بين الأسطورة والحقيقة".

النسيم صار أثقل من ذي قبل،

يحمل في طيّاته شيئًا لا يُشبه الهواء... كأنّه ذاكرةٌ تتنفّس.

تقدّمتُ أكثر نحو مقدّمة السفينة،

عيناي تتبّعان الخطّ الفاصل بين البحر والحجر،

حيث كانت أمواجٌ صغيرةٌ تضرب أقدام التماثيل فتبدو كأنها توقظها من سباتها الطويل.

صرخت (حوراء) من خلفي، وصوتها يرتجف بدهشةٍ لم تُخفِها:

"انظروا إلى صدورهم! إنها تتوهّج!".

وبالفعل...

على صدور بعض التماثيل، ظهرت نقوشٌ باهتةٌ بدأت تشتعل ببطءٍ بنورٍ أزرقٍ متماوج،

يتحرّك كأنه نَفَسٌ ينبض بالحياة.

كلُّ تمثالٍ يُضيء، يتبعه آخر، ثم آخر...

حتى بدت الجزيرة بأكملها كمدينةٍ من الحجارة المضيئة،

تتنفّس في صمتٍ مهيبٍ تحت سماءٍ ملبّدةٍ بالغيوم الرمادية.

قال (آصف) وهو يطوي جناحيه بقلقٍ واضح:

"شيءٌ ما يحدث... إنها تستجيب لوجودنا!".

أجابت (ناصعة) بنبرةٍ حذرةٍ وهي تضع يدها على صدرها:

"زرعة الحاجب تنبض داخلك يا أكحل... أشعر بها حتى من هنا.

التماثيل تتعرّف على طاقتك، إنها تميّز النور من الظلال".

مددتُ بصري إلى الأفق،

ورأيت خيوطَ البرق تشقّ السماء كأنها كتابةٌ سماويةٌ تُنقش لحظةً بلحظة...

حينها قال قلبي قبل لساني:

"يبدو أنها تعرف من نحن... وأن الوقت قد حان".

اقتربنا أكثر من الشاطئ،

فارتطمت مقدّمة السفينة بالرمال الصلبة ارتطامًا خافتًا،

وانتشر رذاذ البحر كستارٍ من الماس المبتلّ...

ثبتت السفينة في مكانها دون أن نُلقي مرساتها،

كأن البحر نفسه أرادها أن تتوقّف...

قفز (آصف) أولًا إلى اليابسة،

نشر جناحيه ليحطّ برفقٍ،

ثم استدار نحونا صارخًا:

"الأرض صلبة، يمكنكم النزول!".

تقدّمت (ناصعة) بخطواتٍ مترددةٍ وهي تهمس لنفسها:

"كم من الأرواح سكنت هذه الصخور؟ كم من الأسرار دُفنت هنا؟".

أما (حوراء)، فقد كانت تحدّق في أحد التماثيل الأقرب إلى الساحل،

وقالت بصوتٍ مبحوحٍ من الدهشة:

"انظروا... هذا ليس وجه إنسانٍ عاديّ... إنها وجوهُ من سُلبوا النور وتمّ سخطهم".

نزلتُ بعدها بخطوةٍ واحدةٍ على الرمل،

وفور أن لامست قدمي الأرض،

حدث شيءٌ لم أستطع تفسيره.

الهواء تغيّر.

صوت البحر خمد فجأة،

الريح توقّفت وكأنها تنتظر شيئًا.

ثم بدأت الأرض من حولي تضيء بخطوطٍ رفيعةٍ من الضوء تمتدّ تحت الرمال،

تتشابك كشبكةٍ من رموزٍ قديمةٍ تتحرّك كأنها تنبض بالحياة...

تراجعت (حوراء) خطوةً إلى الوراء وقالت بصوتٍ مرتجف:

"أكحل... لقد أيقظتَ أرض الفصح!".

وقبل أن أجيب،

دوّى صوتٌ عميقٌ من تحت أقدامنا،

صوتٌ يشبه خرير الماء لكن فيه نبرةُ كلامٍ لا ينتمي إلى بشرٍ ولا جنّ.

ارتفعت الحرارة حولي،

وزُرعة الحاجب في صدري بدأت تتوهّج حتى شعرت بحرارتها في عينيّ...

قالت (ناصعة) وهي تصرخ بي:

"توقّف! لا تتحرّك!".

لكنني لم أعد أسمع شيئًا...

كنت أرى فقط النور يتجمّع أمامي،

يرسم دوائر من الرموز على الأرض،

تتشابك حتى صنعت بوّابةً من الضوء بيني وبين أحد التماثيل...

ثم انشقّت الأرض من أمامي،

وانبثق منها عمودٌ من نورٍ صافٍ صعد إلى السماء،

فارتجّت الجزيرة بأكملها...

صرخ (آصف):

"لقد فُتحت البوّابة الأولى!".

وحين هدأ الضوء شيئًا فشيئًا، وجدت نفسي واقفًا وسط دائرةٍ من الرموز المتوهجة،

والتماثيل من حولي تحدّق بي جميعًا بعيونٍ اشتعلت فيها نارٌ ذهبية...

رفعتُ بصري نحو السماء،

وكان الضباب قد بدأ يبتعد تدريجيًّا،

كأنه ينكشف عن سرٍّ ظلّ مخفيًّا لقرون.

شعرت أنني لستُ أنا فقط من يرى ذلك،

بل الأرض والبحر والسماء... كلها كانت تشهد هذه اللحظة...

همست (حوراء) بخوفٍ خافت:

"وماذا بعد؟".

أجبت وأنا أراقب التماثيل التي بدأت تتصدّع من أعلاها:

"الآن... سنرى إن كانت الأساطير كانت تحكي الحقيقة،

أم أننا نحن الذين نصنعها بأيدينا".

وقفتُ أمام أكبر التماثيل جميعًا،

كان شامخًا، ضخمًا، صامتًا كأنه جبلٌ نُحت من غضب، وجهه مائلٌ نحو البحر، وعيناه الغائرتان تحدّقان بي كأنهما تريان ما تحت جلدي.

ولوهلةٍ، شعرت أنه ينظر إليّ حقًا... نظرةً لا تخطئ، نظرةً فيها عتابٌ وغضبٌ مقدّس.

تجمّد الهواء من حولي،

ثم سرت في يدي رعشةٌ غريبة،

كأن تيارًا من طاقةٍ باردةٍ صعد من راحتي حتى كتفي.

نظرت إلى يديّ... فإذا بخواتم (قاف) تتوهّج جميعها.

كان الضوء يخرج منها على شكل نبضاتٍ متتالية،

كل نبضةٍ تتلوها أخرى،

كأنها تستجيب لنداءٍ من تحت الأرض.

أدركتُ حينها أن أسفل هذا التمثال العملاق

توجد البوّابة النجمية الرئيسية.

كانت الرؤية تتضح في ذهني دون أن أراها فعلاً،

كأن وعيي يقرأ طاقة المكان،

وكان الخاتم الأخضر يزداد توهّجًا حتى أضاء وجهي بالكامل...

رفعتُ يدي إليه، وبدافعٍ لا إراديٍّ قرّبت الخاتم من أذني...

وفور أن فعلت،

سمعت همساتٍ خافتة، أصواتًا ليست بشريةً ولا جنّية،

كأنها لغةُ طاقةٍ نقيةٍ تُترجمها الروح فقط.

كانت تهمس لي:

"ضع راحة يدك على التمثال".

فعلت كما قيل.

وضعتُ راحتي على سطحه الحجريّ،

وشعرت كأن الأرض كلّها تهتزّ من تحت قدمي.

التمثال بدأ بالاهتزاز أولًا بخفوت، ثم بعنفٍ متزايد...

ارتجّت الصخور التي حوله، وبدأت شقوقٌ رفيعةٌ تمتدّ على جسده الحجريّ،

ثم سمعنا صوتًا كأن الجبال نفسها تتنفس.

قلت بصوتٍ مرتفعٍ ثابت:

"بسم الله الرحمن الرحيم".

وما إن خرجت الكلمة من فمي،

حتى دوّى صوتٌ عظيم، وتحطّم التمثال أمام أعيننا،

انفجر إلى مئات الشظايا التي تطايرت في الهواء ثم تبخّرت كالدخان.

ساد صمتٌ مطبق،

ثم علت أنفاس الدهشة من الجميع.

لكن الذهول لم يكن من تحطّم التمثال...

بل مما كان يرقد تحته.

كانت هناك دائرةٌ هائلة، محفورةٌ في الأرض بعمقٍ غير طبيعي،

يتوسّطها نجمٌ سباعيّ الأضلاع يتوهّج بلونٍ أزرقَ خافتٍ،

كأنه قلبٌ من ضوءٍ يئنّ في سكون.

النقوش القديمة تحيط بالدائرة من كل الجهات،

وكلُّ رمزٍ فيها كان يتغيّر مع كل ومضةٍ،

كأنها لغةٌ حيّةٌ تنطق ببطءٍ.

اقتربت (حوراء) مني،

وجهها غارقٌ في رهبة المشهد،

وقالت بصوتٍ مبحوحٍ لكنه ثابت:

"تذكّر تدريبنا يا أكحل... لقد حان الوقت لتفعل ما علّمتُك إياه".

التفتُّ إليها وأومأت برأسي،

ثم تقدّمت بخطواتٍ بطيئةٍ نحو البوّابة.

كل خطوةٍ كانت أثقل من التي قبلها،

كأن الأرض تبتلع التعب مع كلّ قدمٍ أضعها.

وقفت في مركز النجمة السباعية،

مددت كفّي ببطءٍ نحو مركز الضوء،

ووضعتها فوق النقش الوسطيّ.

في اللحظة الأولى،

اشتعلت البوّابة كلّها بضوءٍ أزرقَ لامعٍ،

ارتفعت النقوش من الأرض كأنها صفائحُ حجريةٌ تتحرّك بإرادتها،

تدور حولي ببطءٍ، ثم أسرع فأسرع،

كأنني في مركز دوّامةٍ من الرموز الطائرة.

لكن بعد لحظاتٍ قليلةٍ،

بدأ الضوء يخفت، والنقوش تهبط إلى الأرض من جديد.

انطفأ كل شيء.

فتحتُ عينيّ في حيرةٍ، وقلت بصوتٍ متوتر:

"ما الذي يحدث؟ إنها لا تستجيب!".

قالت (حوراء) بسرعة:

"لقد استجابت، لكنها لم تكتمل بعد!

أنت المفتاح الرئيسي يا أكحل،

لكن تفعيلها الكامل يحتاج بقية المفاتيح البشرية، كما قال (خضر)!".

صرختُ بغيظٍ:

"وكيف أتواصل معهم وأنا لم أعرفهم بعد؟!

ألم يكن علينا أن نجدهم قبل أن نصل إلى هنا؟!".

ضربت (ناصعة) كفّها على رأسها وقالت بحدةٍ متوترة:

"صحيح! لقد نسينا ذلك!".

في تلك اللحظة، صاح (آصف) من الخلف،

وعيناه تتقلّبان بين السماء والبحر:

"يجب أن نتحرك بسرعة!

إذا تأخّرنا أكثر، سيصل أعوان المتنورين إلى هنا!

لقد شعروا بفتح الطاقة من خلال البوابات الأخرى!".

ازدادت حرارة الجوّ فجأة،

والتوتر يملأ وجوه الجميع.

كانت الطاقة تتقلّب من حولنا مثل عاصفةٍ محصورةٍ في صدورنا...

وفجأة...

لمعت فكرةٌ في رأسي، قويةٌ كوميضِ البرق.

نظرت إلى خاتمي الأزرق، الخاتم الذي أعطوني إياه (أصحاب الحاء الزرقاء)،

وشعرت بخفقٍ حادٍّ في رأسي، كأن أحدًا أيقظ ذاكرةً منسية...

رفعت رأسي وقلت بصوتٍ حاسمٍ يسمعه الجميع:

"سأتواصل معهم عبر الأثير!".

تجمّعوا حولي بقلقٍ وترقّب،

ثم جلست في منتصف الدائرة،

أغمضتُ عينيّ،

وغرقتُ في صمتٍ عميقٍ حتى اختفى صوت البحر من حولي..

رأيت نفسي أخرج من جسدي،

أتحرك بسرعةٍ لا تُقاس،

كأنني سهمٌ من طاقةٍ يعبر القارات في رمشة عين..

أول ما رأيته... كانت مصر تحديدًا، الجيزة.

في غرفةٍ صغيرةٍ باهتة الإضاءة،

شابٌّ فقيرٌ نائمٌ على سريرٍ صدئ،

ورائحة الورق والحبر تملأ المكان.

اقتربتُ منه،

همستُ له بالاسم..

فتح عينيه فجأة، نظر حوله بخوف، ثم همستُ في أذنه:

"هل أنت مستعدّ؟ هل توافق على أن تُكمل النور؟".

تردّد لحظةً،

ثم قال بصوتٍ خافتٍ لكنه صادق:

"نعم... أوافق".

اختفى المشهد،

وانتقلتُ بسرعةٍ عبر الأثير إلى أرض الرافدين.

وجدتُ فتاةً صغيرةً، في السابعة عشرة،

جالسةً أمام نافذةٍ نصف مفتوحة،

ترسم دوائر على زجاجها بيدٍ مرتجفة.

ناديتُها،

رفعت رأسها فجأة،

وعيناها استقرتا في عينيّ مباشرة،

كأنها تراني فعلًا.

ابتسمت وقالت دون أن أنطق:

"كنتُ أنتظرك".

ثم أغلقت عينيها وهمست:

"أنا معكم".

تابعتُ رحلتي الأثيرية، كنتُ أتحرك بخفّةٍ لا توصف،

كأن الطريق مرسومٌ لي مسبقًا.

فجأةً وجدتُ نفسي في مقرّ الهلاليين.

لكن المكان كان فارغًا تمامًا.

جدران المقرّ تشعّ بطاقةٍ خامدة،

وصوت الرياح يعبر الممرات الطويلة.

كِدتُ أظن أنني أخطأتُ الاتجاه،

لكنّ صوتًا مألوفًا اخترق الصمت قائلًا:

"أهلًا بابن العم".

استدرتُ لأرى (خالد) يقف خلفي مبتسمًا.

قلتُ بدهشةٍ وابتسامةٍ في آنٍ واحد:

"إذن أنت تراني أيضًا؟!".

ضحك وقال:

"يبدو أنك التقيت بالكثير من أهل الكشف يا أكحل...

لكنني أعجب أن أكون أنا أحد المفاتيح".

قلتُ على عجلٍ:

"لا وقتَ للدهشة، يا خالد... تبقّى واحدٌ فقط، وافق بسرعة!".

ضحك مرةً أخرى وهزّ رأسه:

"إذن فلنُكمل الطريق كما بدأناه".

ثم وضع يده على صدره وقال:

"موافق".

بمجرد أن قالها،

وجدتُ نفسي أندفع من جديد عبر الأثير،

أطير كالشهاب حتى توقفتُ فوق أرضٍ أعرفها بقلبي قبل أن أراها بعيني...

(المدينة المنوّرة).

كان الليل ساكنًا،

ورأيتُ رجلًا كبيرًا في السنّ،

يجلس على الأرض، ظهره لي،

يقرأ القرآن بصوتٍ رخيمٍ عميقٍ يملأ المكان سكينة.

اقتربتُ منه ببطءٍ،

وما إن هممتُ بالكلام،

قال دون أن يلتفت، بصوتٍ حادٍّ قاطعٍ يشبه السيف:

"موافق... والآن، اغرب عن وجهي".

تجمّدتُ مكاني.

كيف عرف بوجودي؟ كيف سمعني دون أن أنطق؟

شعرتُ بالخشوع، وبالخوف في آنٍ واحد.

حينها فقط أدركتُ أن في هذه الأرض من الأرواح ما لا نُدركه بعد.

وبسرعة، عدتُ إلى جسدي الماديّ،

استيقظتُ على هدير الطاقة حولي.

فتحتُ عينيّ،

وكلُّ ما حولي يهتزّ.

بدأت النقوش على الأرض تتوهّج مجددًا،

والبوابة النجمية تصدر صوتًا عميقًا يشبه هدير الكواكب.

ارتفعت الطاقة من باطن الأرض،

وانفجرت دائرة النور كلها دفعةً واحدة.

صرخ الجميع:

"لقد تفعلت البوابة!".

ارتفعت النجمة السباعية من الأرض ببطءٍ،

ثم أخذت تدور في الهواء حول نفسها،

وألسنة الضوء تتطاير من أطرافها كأنها شراراتٌ من شمسٍ مصغّرة.

كان المشهد مهيبًا يفوق كلّ وصفٍ، نورٌ أزرقٌ يغمر المكان،

وصوتٌ عميقٌ يرنّ في الهواء لا يُشبه أي صوتٍ سمعناه من قبل.

تراجعتُ إلى الخلف،

أراقب البوابة وهي تدور وتضيء،

شعرتُ براحةٍ غامرة،

كأن حملًا ثقيلًا انزاح عن صدري.

لكنّ تلك الراحة لم تدم طويلًا...

بدأت قواي تخور،

وركبتيّ ترتجفان،

حتى كدتُ أسقط.

صرخت (ناصعة) وهي تجري نحوي،

أمسكت بي بذراعيها،

ووضعت رأسي على كتفها وهمست:

"لقد فعلتَها... حان وقت راحتك، أيها المحارب".

كانت كلماتها آخر ما سمعته قبل أن يغمرني الظلام،

وسقطتُ في نومٍ عميقٍ يشبه الغيبوبة،

كأنّ البحر، والسماء، والبوابة،

كلّهم ناموا معي.

استيقظتُ ببطءٍ، وكأنني أعود من أعماق غيبوبةٍ لا زمن فيها،

كان أول ما رأيته تلك القُبّة المذهلة فوقي، منقوشةً بعنايةٍ دقيقةٍ بنقوشٍ هندسيةٍ متداخلة،

تتوهّج بلونٍ أخضر خافتٍ مع كلّ شهيقٍ أتنفّسه.

عرفتُ فورًا... أنني في مقرّ الهلاليّين.

حاولت أن أرفع رأسي،

فانتابني دوارٌ خفيف،

لكن ما إن فعلت، حتى رأيتُ (ناصعة) نائمةً على فخذي.

شعرها الأرجواني كان منثورًا على ردائي الأبيض،

وعيناها المغلقتان ما زالتا متورّمتين من البكاء.

ابتسمتُ دون وعي...

كانت تبدو كطفلةٍ أنهكها الحزن، فنامت لتستريح روحها قليلًا.

وفجأة، تحرّكت، فتحت عينيها ببطء،

وحين وقع نظرها عليّ،

تجمّد الزمن لوهلةٍ في وجهها،

ثم امتلأت عيناها بالدموع،

وانفجرت بالبكاء وهي ترتمي عليّ،

تضمّني بقوّةٍ كأنّها تخاف أن أختفي ثانية.

قالت بصوتٍ مبحوحٍ متقطّعٍ بالبكاء:

"ظننتك ستموت يا أكحل...! ظننتك لن تستيقظ أبدًا!".

لم أدرِ ماذا أفعل...

تجمّدت يداي لحظةً،

فأنا... لا أعرف كيف أتعامل مع هذا النوع من المشاعر.

طوال حياتي، لم يخَف عليّ أحد، ولم أُحتضن هكذا.

كنت أشعر أنني رجلٌ خالٍ من المشاعر...

فارغٌ من الداخل كوعاءٍ قديمٍ نُزعت منه الروح.

لكنّ شيئًا غريبًا في داخلي تحرّك،

أو ربما شيءٌ في (ناصعة) هي من أيقظه.

مددتُ يدي بهدوءٍ، ووضعتها على كتفها، ثم بادلتها العناق للمرة الأولى في حياتي،

وقلتُ بصوتٍ خافتٍ وأنا أبتسم:

"أنا بخير... لا تقلقي".

كانت تبكي بصوتٍ مكتومٍ كمن يفرّغ خوف عمرٍ كاملٍ في لحظةٍ واحدة.

ثم قلتُ مازحًا:

"وحيّكِ يا ناصعة... لقد بلّلتِ ثيابي ببكائك".

رفعت رأسها بسرعة، وصرخت بانفعالٍ طفوليٍّ مليءٍ بالارتياح:

"أتدري كم بقيت نائمًا يا أكحل؟!".

قلتُ ببرودٍ وأنا أحاول أن أبدو هادئًا:

"يوم... يومان ربما؟".

صرخت بصوتٍ عالٍ وهي تلوّح بيديها:

"بل شهران كاملان!".

شهران!

كأنّ الوقت ضاع من بين أصابعي دون أن أشعر به.

نظرتُ إليها بذهولٍ وقلتُ:

"شهران؟! ما الذي حدث؟ هل عاد القائد؟ هل أنقذنا العالم؟! أخبريني!".

كانت تحاول الردّ، لكن دموعها كانت تغلبها، وفي تلك اللحظة، فُتح الباب.

دخل (آصف) أوّلًا، جناحاه المطويّان خلفه يتلألآن بظلٍّ خفيف،

يليه (خالد) بخطواتٍ واثقة،

ثم (حوراء) وهي تحمل كوبًا من الأعشاب،

وأخيرًا (خضر) يضع يديه خلف ظهره كعادته، يراقب بصمتٍ عميق.

قال (آصف) وهو يبتسم بسخريةٍ معتادة:

"أوه... لقد استيقظ دبّ الكوالا أخيرًا من سباته العظيم!".

ضحكت (حوراء) وهي تضع الكوب على الطاولة وقالت:

"ها هو الدليل أن لقبي لك لم يأتِ من فراغ".

جلس (خالد) على طرف السرير،

نظر إليّ بعينيه الدافئتين وقال بنبرةٍ مطمئنة:

"الحمد لله على سلامتك يا بطل".

أمّا (خضر)، فظلّ واقفًا عند الباب،

صوته هادئ لكنه يحمل نغمة الجدّ:

"يبدو أن عليك أن تشكر ناصعة أوّلًا،

لقد سخّرت نفسها لخدمتك طوال الشهرين، لو لم تفعل، لبقيتَ نائمًا خمسة أشهر أخرى على الأقل".

لم أحتمل وقلتُ مقاطعًا:

"وماذا عن القائد؟!".

قبل أن يجيب، قاطعته (حوراء) فجأة،

اقتربت بخطواتٍ سريعة،

ثم صفعتني على وجهي صفعةً مدوّية،

صرخت وهي ترتجف غضبًا:

"يا لك من وقحٍ بارد! الرجل يقول لك اشكر من سهرت الليالي بجانبك،

وأنت تتجاهلها وتسأل عن القائد؟!

أأنت إنسانٌ أم حجر؟!".

ساد الصمت في القاعة،

الجميع تجمّد من دهشة ردّها المفاجئة.

أمّا أنا،

فلم أشعر بالصفعة،

ولا بالألم،

شعرت فقط بلسعةٍ خفيفةٍ على وجهي... بلا أثرٍ في القلب.

عندها أدركت الحقيقة التي لطالما تجاهلتها ـــ

أنني فعلًا فقدت الإحساس...

أنني لا أشعر كما يشعر البشر.

ابتسمتُ بخفوت،

نظرتُ إلى (ناصعة)،

كانت تنظر إليّ بدموعٍ معلّقةٍ على وجنتيها.

اقتربتُ منها بهدوء،

وضعتُ يدي على رأسها وقبّلتُ جبينها قائلًا بصوتٍ خافتٍ صادق:

"شكرًا لكِ على كلّ ما فعلتِه... أنا مدينٌ لكِ بحياتي".

احمرّ وجهها خجلًا،

خفضت رأسها وقالت بصوتٍ مرتجف:

"العفو يا أكحل..."

تنحنح (آصف) متصنّعًا الجديّة،

وقال بابتسامةٍ ساخرةٍ وهو يتكئ على الجدار:

"حسنًا، بعد أن انتهينا من مشهد العواطف النادر هذا،

لنعد إلى المهمّ ... إنقاذ العالم".

ضحك (خالد) قليلًا وقال:

"يمكنك أن تقول إننا أنقذناه بنسبة سبعين في المئة".

رفعتُ حاجبيّ مستغربًا:

"سبعين فقط؟ أليست الخطة قد اكتملت بعد أن فعّلنا جميع البوابات واستحوذنا عليها؟".

تقدّم (خضر) بخطوةٍ إلى الأمام وقال بنبرةٍ عميقةٍ كعادته:

"اكتشفنا بعد رحلتك الأثيريّة أن هناك بوابةً أخيرة...

بوابةً لم نكن نعلم بوجودها،

يخفيها أعوان المتنوّرين في مقرّهم الرئيسي.

لذلك، لم تكتمل الخطة تمامًا،

لكننا نجحنا في تعطيل مشروعهم لتحرير طاقتهم الشيطانيّة".

قلتُ وأنا أتنفّس ببطءٍ مندهشًا:

"إذن... القائد؟".

أجاب (خالد) بصوتٍ مائلٍ إلى الحزن:

"لم يستطع القائد العودة يا أكحل.

لكن قبل أن تُغلق البوابات تمامًا،

استغلّ الخلل الذي أحدثته أنت في الحاجب النوراني،

وأرسل لنا رسالةً بالغة الأهميّة".

اعتدلتُ في جلستي بسرعة، الفضول يشتعل في

داخلي:

"وماذا قال في تلك الرسالة؟".

ابتسم (خالد) وهو يربّت على كتفي:

"اهدأ... استعدّ قواك أوّلًا.

حين تكون جاهزًا، سأعرضها عليك بنفسي، لا تقلق".

تنهدتُ وأنا أشعر بمزيجٍ من الفضول والقلق:

"حسنًا، لكن لا تماطل يا خالد... أنا جاهزٌ متى شئت".

ضحكت (ناصعة) وهي تمسح آخر دمعةٍ من خدّها،

ثم صرخت وهي تشير إلى المرآة المقابلة للسرير:

"جاهز؟! انظر إلى وجهك في المرآة يا أكحل!

لقد أصبحتَ لحمًا على عظم!

لن ترى الرسالة حتى تأكل طبقين على الأقل!".

انفجر (آصف) بالضحك قائلًا:

"أوافقها تمامًا، دبّ الكوالا يحتاج طعامًا قبل أن يحلّ ألغاز القائد!".

حتى (حوراء) التي كانت غاضبةً قبل قليل،

ضحكت بخفّةٍ وقالت:

"هيا، لا تجعل من إنقاذ العالم عذرًا لترك المطبخ".

أمّا أنا، فابتسمتُ أخيرًا ابتسامةً هادئةً لم أعرف طعمها منذ زمن، وشعرتُ، ولأوّل مرّةٍ منذ عودتي من البحر،

أنّ هذا المكان...

يشبه البيت.

(الفصل الحادي عشر)

(علم النظرة) (وتراها ناصع)

خرج الجميع بعد دقائق، وبقيت (ناصعة) قليلًا إلى جواري،

كانت تضع يديها على خاصرتها وتوبّخني بنبرتها المعتادة:

"يجب أن تأكل جيدًا يا أكحل، لا يمكنك أن تتعافى وأنت تتجاهل جسدك!".

اكتفيت بابتسامةٍ متعبة،

بينما كانت عيناها الواسعتان تتنقلان بين وجهي وصدري كأنها تراقب نبض الحاجب الخافت بداخلي...

ثم تنهدت وقالت:

"سأعدّ لك حساءً خاصًّا... وصفةً قديمةً تعلمتُها،

تُعيد التوازن بين الروح والجسد".

وخرجت مسرعةً بخفّتها المعتادة،

تغيب خلف الممر الحجري تاركةً في المكان أثر عطرٍ عشبيٍّ يشبه النعناع والورد...

ظللت بعدها وحيدًا في القاعة،

أنظر إلى سقف القبة الذي يضيء بخيوطٍ خضراءَ متشابكة،

وأفكر في كل شيء...

في البوابات التي فتحتها، وفي العالم الذي كان على حافة الهلاك،

وفي رسالة القائد التي لم تُفكّ رموزها بعد...

كان الفضول ينهشني ببطء...

ما الذي يمكن أن تحتويه تلك الرسالة حتى يُخفيها خالد عني؟

هل فيها نبوءةٌ جديدة؟

أم تحذيرٌ من شيءٍ لم ندركه بعد؟

كاد الفضول أن يقتلني حتى قاطع حبلَ أفكاري صوتُ الباب يُفتح بهدوء.

دخلت (ناصعة) من جديد،

تحمل بين يديها إناءً فخاريًّا ينبعث منه بخارٌ أزرقُ اللون.

تقدمت نحوي بخطواتٍ ناعمةٍ،

وقالت وهي تبتسم ابتسامةً ماكرةً لم أعتدها منها:

"ها هو الحساء، جرّب هذا قبل أن تسأل عن محتواه".

نظرت إلى الإناء...

كان الحساء بلونٍ أرجوانيٍّ داكنٍ،

تطفو على سطحه خيوطٌ رفيعةٌ من بخورٍ مضيءٍ،

ورائحته تشبه خليط الزعفران والورد والرماد.

سألتها وأنا أرفع حاجبيّ:

"وما مكوناته يا ناصعة؟".

ضحكت بخبثٍ جميلٍ وقالت:

"لو أخبرتك لن تتجرأ على تذوقه".

هززت رأسي مبتسمًا،

وأخذت منها الإناء قائلًا:

"لا يهمّ، ما دام سيساعدني على التشافي أسرع".

أمسكت بالملعقة، لكنّ يدي خانتني.

كانت ثقيلةً كأنها قطعةُ حجرٍ ذائب،

سقطت من بين أصابعي وارتطمت بالأرض بصوتٍ خافت،

فتبعها صمتٌ ثقيل.

شعرت بضعفٍ يسري في ذراعيّ وساقيّ،

كأن الطاقة التي كانت تتدفق في عروقي قد خمدت فجأة.

نظرت إلى (ناصعة)...

كانت عيناها دامعتين،

فيهما حزنٌ خفيٌّ وشفقةٌ بريئة.

جلست إلى جانبي بصمت،

أخذت الإناء من يدي بلطف، ثم غمست الملعقة فيه،

ورفعتها نحوي وهي تقول بصوتٍ خافتٍ مفعمٍ بالعاطفة:

"اترك الأمر لي... سأطعِمك بنفسي".

ترددت للحظة، ثم استسلمت.

كانت حركتها بطيئةً، دقيقةً،

تطعمني الحساء كما تُطعم الأمُّ طفلها،

وعلى وجهها مزيجٌ من الحنان والإصرار.

لم أفهم لماذا تفعل ذلك،

ولا لماذا تهتمّ بي بهذا الشكل الغريب،

لكني شعرت في تلك اللحظة أن وجودها بحد ذاته كان دواءً،

كأن حضورها يعيد ترتيب فوضى الجسد والروح في داخلي...

مرّ الليل الأول، ثم الثاني،

وظلت (ناصعة) كما هي،

تعتني بي،

تسقيني حساءها العجيب الذي قالت إنه مزيجٌ من (الزعفران، والمسك، وأوراق النخيل القمرية)،

وتبيت قرب سريري خشية أن أحتاج شيئًا وهي بعيدة.

أحيانًا كنت أستيقظ على صوتها الخافت وهي تدعو لي بالشفاء،

تضع يدها فوق صدري وتهمس بكلماتٍ كأنها تخاطب النور نفسه...

وخلال تلك الأيام، كان (خالد) و(خضر) يزوراني بين الحين والآخر،

يتفقدان حالتي بصمتٍ يليق برجالٍ يعرفون معنى الانتظار...

أما (آصف)، فكان يدخل ضاحكًا كل مرة وهو يقول:

"هل ما زال هذا الكوالا بحاجةٍ لحساءٍ آخر؟!".

لكن (حوراء) لم تظهر.

كلما سألت عنها،

يكتفي خالد بنظرةٍ عميقةٍ وصمتٍ طويلٍ كأنه يخفي أمرًا لا يريد الإفصاح عنه.

وفي اليوم الثالث،

حين فتحت عينيّ على ضوء الفجر الأخضر المتسلل من سقف القبة،

شعرت بشيءٍ مختلفٍ في داخلي،

خِفّةٍ، دفءٍ، طاقةٍ عادت تجري في عروقي كما لو أن شيئًا أُعيد تشغيله فيّ.

جلست ببطء،

حرّكت أصابعي ويدي،

ثم نهضت...

لم أصدق أنني أقف مجددًا على قدميّ بثباتٍ كامل.

دخلت (ناصعة) في تلك اللحظة،

فابتسمت عندما رأتني واقفًا،

وقالت بابتسامةٍ يغلبها الفخر:

"ها قد عادت طاقتك يا مفتاح العالمين... لقد استيقظ النور فيك مجددًا".

مددت يدي نحوها،

أمسكتُ كفّها برفق،

وقلت بهدوءٍ يشبه الوعد:

"بفضل الله ثم بفضلكِ يا ناصعة".

خرجتُ مسرعًا من غرفتي، لا أرى أمامي إلا وجه خالد في ذهني وصدى الرسالة التي وعدني أن أكشف سرها اليوم.

كانت أقدامي تضرب أرض الممر الحجريّ بإيقاعٍ سريعٍ، كأن قلبي يسبقني إلى قاعة الاجتماعات.

حين وصلت إلى البوابة، سمعت أصواتًا مكتومةً تتسرّب من الداخل.

كانت (حوراء) تتحدث بنبرةٍ منخفضةٍ وحازمة:

"لقد تمّ الأمر... سيصلون في أيّ لحظة".

أجابها (خالد) بصوتٍ فيه ثقل القيادة وقلقُ الانتظار:

"أتمنى فقط أن يكون الأكحل قد استعاد عافيته تمامًا قبل أن يحين الموعد".

دفعت الباب بخفةٍ ودخلت.

توقّف الحديث فورًا، والتفت الجميع إليّ بدهشةٍ خفيفةٍ تداخل فيها الفرح والاستغراب.

قال (خالد) وهو يبتسم بارتياحٍ نادر:

"لقد عدت في الوقت المناسب يا أكحل!".

وتقدّم نحوي ليحتضنني،

أما (حوراء) فابتسمت بسخريةٍ لاذعةٍ وقالت:

"أظنّه أتى بهذه السرعة لأن فضوله قتله لمعرفة محتوى رسالة القائد".

قلت وأنا أحدّق في خالد بجدية:

"بالضبط... هذا ما جئت لأسمعه الآن".

تبدّل وجه خالد، اختفت ابتسامته، وارتسمت ملامح الجدّ على قسماته.

أشار إلى الطاولة الخشبية في وسط القاعة، تلك التي نُقش في قلبها شعار الخمس أهلةٍ يلمع بضوءٍ أخضر خافت.

قال بنبرةٍ رسمية:

"اجلس يا أكحل".

جلست، وشعرت أن المكان يتهيّأ لشيءٍ أكبر من مجرد اجتماع.

توجّه خالد نحو الجدار الأيمن، وطرق عليه ثلاث طرقاتٍ متتابعة.

ارتجّ الحجر قليلًا، ثم انزاحت صخرةٌ صغيرةٌ لتكشف عن تجويفٍ مخفيٍّ بداخله مظروفٌ فاخرٌ مختومٌ بشمعٍ ذهبيٍّ يحمل شعار الهلاليين.

أمسك خالد بالمظروف بكلتا يديه، وعاد إلى الطاولة، جلس أمامي، وجلست (حوراء) إلى جانبي.

كان الجوّ مهيبًا...

حتى إنّ تنفّسي صار أبطأ مما ينبغي.

فتح خالد الظرف ببطء،

وسحب منه ورقةً بيضاءَ مصقولةً بحوافٍّ ذهبيةٍ تتلألأ مع ضوء القاعة،

ثم قال بصوتٍ منخفضٍ لكنه واضحٌ وحازم:

"بسم الله الرحمن الرحيم،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أُحدثكم من بين البُعدين، لا أطلب منكم سوى تنفيذ ما اختاره الأين...

أما بعد، وبعد ما شهدنا من شدائد وانتصارات،

أطلب منكم يا أبناء الهلاليين المباركين ما يلي:

إرسال الأكحل إلى مقرّ الأعوان الرئيسي،

لينضمّ إليهم ويكون جاسوسًا لنا في صفوفهم،

الشوكة التي تخترق أعماقهم من الداخل،

فالخطر لا يزال مستمرًا بين العالمين،

ويجب على المفتاح الرئيسي الوصول إلى البوابة الموجودة في مثلّث البحر،

وإلّا فسنكون جميعًا في خطرٍ جسيم.

هذا ما آمركم به الآن،

والباقي عليكم يا أبنائي الأعزاء...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

أنهى خالد القراءة،

ووضع الورقة على الطاولة ببطءٍ وكأنه يخشى أن تنكسر،

بينما كان صدى الكلمات يتردّد في القاعة كأنها لم تُقَل بعد.

نظرت إلى الورقة،

ولوهلةٍ شعرت أنّ كلّ الحروف التي خُطّت فيها تزن أكثر من جبل قاف نفسه.

لم تكن رسالةً عادية...

كانت أمرَ قتالٍ، ووصيّةً، واختبارًا في آنٍ واحد.

رفعت عيني نحو خالد،

كان ينظر إليّ بصمتٍ، ينتظر إجابتي،

بينما حوراء شبكت يديها أمامها وقالت بخفّةٍ مصطنعةٍ تخفي قلقها:

"ها قد جاء دورك من جديد يا مفتاح البرزخين...

لكن هذه المرة، سيكون بابك مفتوحًا على الجحيم".

لم أفكّر كثيرًا... نظرت إلى خالد بعزمٍ ثابتٍ وقلت بصوتٍ جادٍّ حازم:

"كيف سنبدأ؟".

ساد الصمت لبرهةٍ في القاعة.

خالد كان يحدّق في الأرض، ثم رفع رأسه وقال بصوتٍ ثقيل:

"هذه المهمّة ليست بسيطة يا أكحل... دخولك إلى مقرّ الأعوان أمرٌ في غاية الصعوبة.

فهم ليسوا كالمتنورين الذين واجهناهم من قبل، بل هم رأس الهرم ذاته... مقرّهم الرئيسي قد يكون عند عرش إبليس نفسه.

أتفهم نوع المخاطر التي ستواجهها؟".

قلت بثبات:

"إذا كان الأمر بين الحياة والموت، فاعلم أنّني رجلٌ منذ نعومة أظافري أمسك روحي على كفّي وأسير بها.

لا يهمّني موتي بقدر ما يهمّني أن أُنقذ هذا العالم من الخطر المحدق به.

فابدأ بإخباري... كيف أصل إليهم؟".

تنفّس خالد بعمق، ثم قال وهو يحدّق في وجهي:

"في الحقيقة... لم أكن أنوي إرسالك لهذه المهمّة رغم أنّها أمرٌ مباشر من القائد نفسه، لخطورتها البالغة.

لكنّي أرى في عينيك الآن شيئًا يجعلني لا أستطيع منْعك... عزيمةً لم أرَ مثلها من قبل".

ابتسمت قليلًا وقلت بثقةٍ هادئة:

"وأنا كذلك يا خالد... أنا مستعدّ".

أخذ خالد نفسًا عميقًا وقال:

"أولًا، يجب أن تعلم أنّ هذه المهمّة قد تأخذ وقتًا طويلًا، وسرعة إنجازها تعتمد عليك بالكامل.

ثانيًا، هذه المهمّة تحتاج تجهيزًا خاصًّا، وهناك علوم معيّنة يجب أن تتقنها قبل أن تبدأ".

سألته باهتمام:

"وما هي هذه العلوم؟".

قال خالد:

"يجب أن تعرف أنّ كلّ شيطانٍ على وجه الأرض يُراقَبه شيطانٌ آخر، وهكذا وصولًا إلى إبليس نفسه.

الأمر أشبه بسلسلةٍ أنشأها إبليس ليصلَه كلّ خبرٍ عن أيّ تمرّدٍ أو انشقاقٍ أو توبةٍ من أحد أتباعه.

من يحاول الانقلاب أو الإسلام... يُقتل فورًا.

لذلك، عليك أن تتعلّم (علم عضلات الوجه)".

نظرت إليه بدهشة:

"علم عضلات الوجه؟! ظننتك ستقول لي (علم إخفاء الطاقة) أو (تبديل الهالة)!".

ضحك خالد بخفّةٍ وقال:

"أعلم أنّك تتقن هذه العلوم، لكن علم عضلات الوجه شيءٌ آخر تمامًا...

إنه علمٌ نادر، يُمكّنك من تغيير ملامح وجهك وتفاصيلك الدقيقة، بحيث تستطيع التواصل مع أعوان إبليس من البشر دون أن يشكّوا فيك.

ملامحك أصبحت معروفة لديهم، وأغلب أعوان إبليس يملكون شياطين مرافقين يُخبرونهم إن كان الشخص نورانيًّا أو لا.

وهنا يأتي دورك: يجب أن تغيّر ملامحك بالكامل متى احتجت لذلك".

قلت بجدية:

"حسنًا... وما هي العلوم الأخرى؟".

قال خالد وهو يشبك يديه:

"علم الكتابة والنقش والأرقام.

هذا العلم جوهريّ، فهو مفتاح دخولك لاجتماعاتهم السرّية.

عليك أن تتقنه تمامًا، لأنه سيمكّنك من تغيير ترددك الروحي، وجعلك تشبه ترددهم حتى لا يشكّوا فيك.

هؤلاء حذرون جدًا يا أكحل".

سألته وأنا أضع يدي على الطاولة:

"وماذا تقصد بعلم الأرقام؟".

قال خالد مبتسمًا وهو ينظر إليّ بثبات:

"ألم تفكّر يومًا أنّ الأرقام مخلوقةٌ من مخلوقات الله؟

وأنّها تملك رموزًا خاصة، وأنّ كلّ شيءٍ في الكون يعود في جوهره إلى رقم؟

ألم تتساءل لماذا قال الله تعالى إنّه خلق السماوات والأرض في (ستة أيام)؟

استخدامه للعدد ليس صدفةً، إنه ترتيبٌ إلهيّ.

الأعداد كانت موجودةً منذ البدء، لكن من يتقن نقشها وكتابتها بطريقةٍ محددةٍ يمكنه استخدام طاقتها.

وقلائل جدًّا من البشر من يعرفون هذا العلم حقّ المعرفة".

سكت لحظة، ثم تابعت بسؤالٍ آخر:

"وبعد أن أتقن كلّ هذه العلوم... كيف سأذهب إلى هناك دون أن يشكّ أحد؟".

ابتسم خالد وقال بثقةٍ هادئة:

"حين تنتهي من تدريبك، ستكتسب القدرة على إنشاء (بوابةٍ نجميةٍ شخصية) من صنعك،

تستطيع من خلالها التنقّل إلى أيّ مكانٍ تشاء.

لكن يجب أن تتقن (ضبط ترددك الطاقي) بدقّةٍ عالية، وإلا سيُكشف أمرك فورًا".

توسّعت عيناي بدهشة وقلت:

"أتقصد أنني سأذهب إلى مقرّ الأعوان عبر بوابةٍ نجميةٍ من صنعي أنا؟".

ضحكت حوراء التي كانت تراقبنا بصمتٍ وقالت بنغمةٍ فيها شيءٌ من الفخر:

"وكيف تظنّ هم يتنقّلون بهذه السرعة؟

الأقوياء منهم فقط من يستخدمون بواباتهم الخاصة، تلك التي يصنعونها بأنفسهم من ترددداتهم".

قلت بدهشة:

"لكن... هذه أول مرة أعرف أن الإنسان يمكنه التنقّل بتلك السرعة دون مساعدة كيانٍ آخر!".

أجابت حوراء بابتسامةٍ غامضةٍ وهي تميل نحوي:

"ومنذ متى ظننت أن الشياطين أقوى من البشر؟

لقد حقدوا علينا منذ الأزل لأننا أقوى منهم ونحمل سرّ النور،

فأخفوا قدرات البشر الروحية عبر القرون حتى يظنّ الناس أنهم ضعفاء وأنّ لهم اليد العليا.

لكننـا لسنـا كذلك... افتخر بكونك بشـريًّا يا أكحـل ولا تقلّل من نفسك، فأنت بالذات... استثناء".

تملكني الصمت وأنا أفكّر في كلامها،

وفي كمّ العلوم الغريبة التي تنتظرني، وكم من الوقت سيستغرق حتى أتقنها جميعًا.

كنت غارقًا في تفكيري حين رفعت رأسي فجأة لأرى (خالد) جالسًا واضعًا كفّه على وجهه.

سألته بقلق:

"خالد، هل أنت بخير؟".

أزاح يده ببطءٍ عن وجهه...

لكن ما رأيته جعلني أتجمّد في مكاني...

وجهه تغيّر بالكامل!

أنفه أصغر، حاجباه أقصر، فمه أعرض بقليل، وصوته حين ضحك كان مختلفًا كليًّا...

تراجعت خطوة وقلت مذهولًا:

"كيف... فعلتَ ذلك؟!".

ضحكت حوراء بخفّة، بينما خالد مرّر يده على وجهه مجددًا فعاد إلى هيئته الأصلية وقال مبتسمًا:

"وهذا يا أكحل... هو علم عضلات الوجه".

وقفت في مكاني مدهوشًا...

أدركت أن هناك عوالم من المعرفة لم نكشفها بعد،

وأننا رغم كلّ ما خضناه من معارك وأسرار لا نزال في بداية الطريق.

سألت بحماسٍ صادق:

"متى... ومع من سأبدأ تدريباتي؟".

قال خالد وهو ينهض من مكانه:

"الوحيدة التي جمعت كلّ هذه العلوم في جسدٍ واحدٍ هي (ناصعة)...

اذهب إليها، وابدأ تدريبك معها من اليوم".

وقفت فورًا وقلت بلهجةٍ حازمةٍ لا تحتمل التردد:

"سأبدأ من الآن، لا وقت لنضيّعه".

غادرت القاعة بخطى سريعة،

والتفكير يعصف في رأسي:

كيف لامرأةٍ لطيفةٍ وهادئةٍ مثل ناصعة أن تتقن كلّ تلك العلوم المعقّدة؟

كم من الأسرار تخفي خلف تلك الابتسامة الهادئة؟

وكم من الأعوام قضتها لتصل إلى هذا المستوى؟

كنت أشعر أني ذاهبٌ لأتعلّم منها شيئًا

لن يغيّر وجهي فحسب...

بل قد يغيّر مصيري بأكمله.

في طريقي قابلت آصف عند الممرّ الحجريّ المؤدّي إلى الساحة الشرقية:

كان يقف متكئًا على أحد الأعمدة الرخامية، جناحاه مطويان بإهمال، وعيناه تراقبان الأفق كعادته حين يغرق في التفكير.

قال لي بابتسامةٍ جانبية:

"ها قد نهض فارس البوابات من سباته الطويل".

اقتربت منه وقلت:

"آصف، هل رأيت ناصعة؟ بحثت عنها في القاعات ولم أجدها".

قال وهو يشبك يديه خلف رأسه:

"عادت إلى كوخها في أعلى الجبل بعد أن تأكدت أنك تعافيت تمامًا.

قالت إنها بحاجةٍ لبعض السكون بعد كلّ ما حدث.

يبدو أنها استنزفت الكثير من طاقتها عليك".

قلت وأنا أومئ برأسي:

"حسنًا، سأذهب إليها".

ثم سألته مبتسمًا:

"أتريد أن تأتي معي يا آصف؟ الطريق إلى الجبل طويل".

ضحك بخبثٍ وقال:

"لا يا صديقي، اذهب وحدك.

أنا ذاهب إلى قاعة الطعام، سمعت أنهم أحضروا رمانًا طازجًا من حدائق الشرق،

وأظن أنني أدمنته فعلًا".

ضحكت وقلت:

"إدمان الرمان؟ هذه أول مرة أراك تدمن شيئًا غير الجدال مع حوراء".

رفع حاجبه بسخريةٍ وقال وهو يبتعد:

"وهل تعتقد أن الجدال معها لا يتعب الروح؟

الرمان على الأقل يريح القلب ولا يرفع الضغط".

ضحكت بصوتٍ عالٍ ولوّح لي بيده دون أن يلتفت وهو يقول:

"اذهب يا أكحل قبل أن تغلق ناصعة بابها في وجهك، إن غضبت منك فودّع أيامك الهادئة القادمة".

ابتسمت ومضيت في طريقي:

الريح كانت تهبّ من الشرق باردة تعبق برائحة البحر والطحالب،

والسماء تميل إلى لونٍ نحاسيٍّ يتدرّج إلى الأرجواني مع اقتراب الغروب..

كنت أسير بخطواتٍ ثابتة، والممرّ الصخريّ يتلوّى صعودًا نحو الجبل،

أشجارٌ ملتفّة كأنها تحرس الطريق، وصخورٌ مبلّلة يكسوها الطحلب اللامع،

وصوتُ الماء المنحدر من القمم يتردّد بين الجدران الحجرية كأن الجبل يتنفّس..

وحين بلغتُ القمّة، رأيتُ كوخَ ناصعة:

كان صغير الحجم، لكنه يفيض نورًا دافئًا يشعّ من نوافذه،

الضوء الأرجواني يتسرّب منها بهدوءٍ كأن الجدران نفسها تتوهّج بالحياة،

والباب نصف مفتوحٍ وكأنه ينتظرني منذ زمنٍ بعيد..

طرقتُ بخفّة، فسمعتُ صوتها من الداخل:

"ادخل يا أكحل، كنتُ أعلم أنك ستأتي قبل الغروب".

دفعتُ الباب بخفّة ودخلتُ:

كان المكان يغمره دفءٌ غريبٌ يشبه السحر أكثر مما يشبه الواقع،

رفوفٌ خشبيةٌ عالية امتلأت بالكتب القديمة، وأوراقٍ مترهّلة كُتبت عليها رموزٌ وأحرفٌ غير مألوفة،

وأوانٍ زجاجيةٌ تحوي سوائلَ بلونٍ أزرقَ وأخضرَ وأرجوانيٍّ خافتٍ تتلألأ مع كلّ اهتزازٍ لهبِ الشموع،

وكانت رائحة المكان مزيجًا من الورد والخزامى واللبان، كأنك تمشي داخل ذاكرةٍ طيّبةٍ لا تموت..

في الزاوية جلست قطّتها البيضاء،

تراقبني بصمتٍ مهيبٍ وهي تلتفّ حول نفسها كأنها حارسُ المكان..

رفعت ناصعةُ رأسَها عن أحد الكتب،

تلك العينان المختلفتان فيها لم تكفّا عن إدهاشي كل مرةٍ أراها فيها،

إحدى عينيها زرقاءُ كبحرٍ في منتصف الشتاء، والأخرى خضراءُ كلون الغابات بعد المطر،

وفي كلٍّ منهما حياةٌ كاملةٌ تختلف عن الأخرى..

ابتسمت وقالت بصوتٍ هادئ:

"كنتُ أعلم أنك ستأتي قبل الغروب، فجلوسي اليوم لم يكن للقراءة فقط... كنتُ أتهيّأ لك".

اقتربتُ منها بخطواتٍ بطيئة، وكان الهواء بيننا مشبعًا بعطر المكان،

قلتُ مبتسمًا:

"يبدو أن وقت الدرس قد حان".

هزّت رأسها بابتسامةٍ صغيرة وقالت:

"نعم، لكن ما ستتعلّمه اليوم ليس سحرًا ولا طقسًا،

إنه علمٌ دقيق، لا يتقنه إلا من فهم لغة الجسد والنفس معًا...

اليوم سأعلّمك أول ما يجب أن تتقنه قبل دخولك عالم الأعوان،

سأعلّمك علمَ عضلات الوجه".

جلستُ أمامها، فنهضت ببطءٍ وسارت حولي كأنها تدرس ملامحي،

وكانت القطة البيضاء تتبعها بخطواتٍ متزامنةٍ هادئةٍ كأنها ظلّها..

قالت وهي تضع مرآةً صغيرةً أمامي:

"انظر إلى نفسك جيدًا يا أكحل،

كم وجهًا ترى هناك؟".

قلتُ وأنا أحدّق في المرآة:

"وجهي فقط".

قالت مبتسمة:

"بل ترى قناعك، لا وجهك...

كل إنسانٍ يملك وجوهًا كثيرة...

وجهًا للفرح، وجهًا للحزن، وجهًا للغضب، وآخرَ للخوف،

لكن عضلات الوجه هي المفاتح...

من يتقن تحريكها يستطيع أن يخلق وجهًا جديدًا بالكامل دون أن يجرح جلده أو يغيّر عظامه".

جلست مقابلي، وضعت أناملها برفقٍ على خدّي وقالت:

"هنا، في هذه العضلة الصغيرة، يسكن الحزن إن أردتَ...

وهنا، عند زاوية فمك، يولد الصدق أو الزيف، بحسب ما تختار أن تُظهر...

تذكّر يا أكحل، وجهك هو كتابك الأول، والعيون هي قرّاؤه".

كنتُ أستمع إليها مأخوذًا بطريقة كلامها،

كأنها تزرع فيّ إدراكًا لم أكن أعرف أني أفتقده..

ثم قالت وهي تشير إلى القطة البيضاء التي جلست بجانبي:

"حتى هذه الصغيرة تعرف كيف تغيّر ملامحها...

ترى في عينيها كيف تتحوّل من الوداعة إلى الحذر إلى الهجوم في لحظةٍ واحدة".

مددتُ يدي ألمس القطة، فرفعت رأسها ونظرت إليّ بعينيها الزجاجيتين بتركيزٍ غريب،

فابتسمت ناصعة وقالت:

"إنها تشعر بما فيك،

فالوجه ليس ما نُظهره فقط، بل ما نُخفيه أيضًا".

ثم اقتربت مني حتى صرت أسمع أنفاسها وقالت بهدوءٍ شديد:

"الليلة يا أكحل ستتعلّم أول تمرينٍ في هذا العلم،

كيف تُسكت عضلاتك... لتتحدّث روحك بدلها".

وساد الصمت،

لم يبقَ في الغرفة سوى همهمة الشموع،

ورائحة الخزامى التي أخذت تشتدّ،

كأن المكان كلّه يستعدّ للبدء...

أغمضت ناصعة عينيها ل لحظة وقالت بصوتٍ خافتٍ يشبه تلاوةَ تعويذةٍ قديمة:

"أول ما يجب أن تتعلّمه يا أكحل هو الصمت الداخلي،

فعضلات الوجه لا تطيع الجسد، بل تطيع ما في القلب، وما في القلب لا يهدأ حتى تُسكِته أنت".

مدّت يدها نحو إحدى القوارير الزجاجية التي كانت تضوي بلونٍ أزرقَ داكن،

سكبت منها قطراتٍ قليلة في مبخرةٍ صغيرةٍ على الطاولة،

فتصاعد منها بخارٌ رقيقٌ له رائحةٌ غريبةٌ تجمع بين الورد واللافندر والمطر،

فملأ الغرفة بضبابٍ ناعمٍ يجعل الضوء يتراقص فوق الجدران.

قالت وهي تشير لي أن أغمض عينيّ:

"الآن... تنفّس ببطء، اجعل الهواء يدخل من أنفك ويخرج من فمك،

اشعر بعضلات وجهك، كل عضلةٍ فيها ذاكرة، وكل ذاكرةٍ تحمل شعورًا".

اتبعتُ تعليماتها، وبدأت أشعر بأشياءٍ لم أشعر بها من قبل،

كأن هناك أوتارًا دقيقةً تتحرّك داخل وجهي،

نبضاتٌ خافتةٌ في الوجنتين، ارتجافٌ صغيرٌ في الجبين،

كأن الوجه نفسه بدأ يتحدّث بلغةٍ لم أفهمها من قبل.

اقتربت ناصعة أكثر، حتى شعرتُ بأنفاسها تلامس وجهي،

وقالت بصوتٍ منخفضٍ لا يسمعه إلا قلبي:

"الآن، أطفئ مشاعرك واحدةً تلو الأخرى...

ابدأ بالغضب، أزِله من جبينك... ثم الحزن من عينيك...

ثم الخوف من فمك... اجعل وجهك صفحةً بيضاء، كوجهِ طفلٍ لم يتعلّم بعد معنى الوجع".

أطعتها حرفيًا،

حتى شعرت أن ملامحي خمدت تمامًا،

كأنني لستُ أنا،

كأن وجهي عاد إلى الطين الأول.

قالت وهي تبتسم:

"جيّدٌ جدًا... الآن حرّك حاجبيك قليلًا، دع الغضب يولد من العدم".

فعلت ما قالت، وبدأت أشعر بوجهٍ جديدٍ يتشكّل ببطء،

عينيّ تضيقان، وعضلةُ الفكّ تشدّ، وصوتُ أنفاسي يعلو.

قالت بنبرةٍ فخورة:

"أحسنت، هذا هو الوجه الذي يخشاه أعداؤك دون أن تنطق بكلمة،

لكن حذارِ يا أكحل...

فمن يتقن هذا العلم عليه أن يعرف متى يُظهره ومتى يُخفيه،

فالوجوه القويّة تفتح بواباتٍ لا يمكن إغلاقها بسهولة".

في تلك اللحظة، صدرت مواءٌ خافتةٌ من القطة البيضاء،

اقتربت من قدمي وجلست بيني وبين ناصعة...

قالت ناصعة وهي تمرّر يدها على شعر القطة:

"إنها تشعر بأن وجهك بدأ يتغيّر بالفعل...

وهذا يعني أن عضلاتك استجابت".

ثم جلست أمامي من جديد وقالت:

"الآن الخطوة الأخيرة، انظر إلى المرآة أمامك،

وحاول أن تغيّر شيئًا واحدًا في وجهك دون أن تحرّك شيئًا...

اجعل التغيير يحدث من الداخل فقط".

حدّقت في المرآة،

لم أكن أرى سوى وجهي أولًا،

ثم شيئًا غريبًا بدأ يحدث،

ملامحي صارت أكثر حدّة، عيناي اكتسبتا ظلًّا جديدًا،

كأنني أرى نفسي من عالمٍ آخر.

ابتسمت ناصعة وقالت:

"هذا يكفي لليوم، لا أريد لعينيك أن تنكشِفا أكثر.

لقد بدأت الرحلة يا أكحل...

رحلة الوجه الثاني".

سكتت للحظة، ثم أضافت وهي تقترب من الباب:

"غدًا، سنبدأ بما هو أعمق... كيف تجعل وجهك يتحدّث حين تصمت".

ثم أطفأت شمعة الطاولة،

وغمر الكوخ ضوءٌ أرجوانيٌّ باهت.

خرجت ناصعة من الكوخ وتركتني وحدي بين ضوء الشموع الخافت ورائحة الخزامى التي بدأت تهدأ شيئًا فشيئًا،

كنتُ ما زلتُ أحدّق في المرآة الصغيرة أمامي،

وجهي كما هو،

لكن هناك شيئًا خفيًّا تحته لم يعد كما كان،

كأن الملامح لم تتغيّر في الظاهر،

لكنها أصبحت تعرف كيف تُخفي نفسها.

مددتُ يدي ألمسُ خدّي، شعرتُ بحرارةٍ خفيفةٍ تسري تحت الجلد،

نبضٌ دقيقٌ كأنّ شيئًا ما استيقظ للتوّ بعد نومٍ طويل.

كانت التجربة غريبةً إلى حدٍّ لم أستطع وصفه،

لا وجعَ ولا راحة،

بل توازنٌ غامضٌ بين الاثنين.

في تلك اللحظة سمعتُ مواء القطة البيضاء،

رفعتُ رأسي نحوها فوجدتُها جالسةً عند الباب،

تنظر إليّ نظرةً مباشرةً كأنّها تفهم ما يحدث في داخلي.

اقتربت بخطواتها الهادئة وجلست عند قدمي،

ثم أصدرت صوتًا خفيفًا يشبه الهمهمة،

كأنّها تقول لي شيئًا بلغةٍ لا تُقال بالكلمات.

ابتسمتُ وقلتُ لها بهدوء:

"هل أنا غريبٌ عليكِ الآن؟".

أمالت رأسها قليلًا،

ثم لعقت يدها واستدارت لتجلس عند المدخل،

مراقبةً الباب كما لو كانت تنتظر ناصعة.

في تلك اللحظة دخلت ناصعةُ من جديد،

كانت تحمل بيدها قارورةً صغيرةً من الزجاج الداكن، وقالت وهي تضعها على الطاولة أمامي:

"هذا زيتٌ نادرٌ يُستخدم لتهدئة عضلات الوجه بعد التدريب،

تحتاج إليه كي لا تتشنّج طاقتك الداخلية".

فتحتُ القارورة وسكبتُ منها بضع قطراتٍ في كفّي،

كانت رائحته مزيجًا من المسك والورد والمطر،

ثم اقتربت مني وأمسكت بوجهي بين راحتيها،

كانت يداها دافئتين إلى حدٍّ جعلني أُغمض عينيَّ دون وعي،

وقالت بصوتٍ خافت:

"كلُّ وجهٍ تتعلّم تغييره سيترك داخلك أثرًا،

لذلك لا تترك وجهك الحقيقي يضيع بين الأقنعة،

تذكّر دائمًا من تكون قبل أن تنظر في المرآة".

سكتت لحظة،

ثم تراجعت للخلف وجلست أمامي،

القطة البيضاء صعدت إلى كتفها واستقرّت هناك،

عينُها الزرقاء انعكست على شعاع الشمعة،

فأضاءت الغرفة بنورٍ خفيفٍ يشبه البرق الهادئ.

قالت ناصعة:

"لقد اجتزتَ الخطوة الأولى، من الغد سنبدأ تدريب (لغة النظرة).

حين تتقنها... لن تحتاج أن تتكلّم لتأمر أو تحذّر أو تُقنع،

نظرتك وحدها ستفعل ذلك".

رفعتُ رأسي أنظر إليها،

شعرتُ أن ملامحها تغيّرت للحظة،

كأنّ شخصًا آخر يطلّ من داخلها،

ثم غادرت بعدها بهدوء،

وبقيت أنا في الكوخ أتأمّل القارورة الصغيرة التي تركتها،

والمرآة التي بدأت تعكس ملامحي الجديدة،

ثم نظرتُ إلى القطة البيضاء التي لم تزل تحدّق فيّ،

وقالت بعينيها شيئًا لم أفهمه،

لكنّي شعرتُ به بعمقٍ غريبٍ في صدري،

كأنّها تخبرني أن هذا الوجه الجديد

لن يكون الأخير...

دخلت ناصعة من جديد، والقطة البيضاء تتبعها بخطواتٍ صامتةٍ كأنّها ظلّها الحيّ.

رفعتُ نظري إليها وقلتُ وأنا أراقب الحيوان الغريب بعينٍ متوجّسة:

"أشعر أن في قطتكِ شيئًا غير طبيعي يا ناصعة... كلّما نظرت إليّ أحسستُ أنّها تعرف شيئًا عني لا أعرفه أنا".

ابتسمت ناصعة بهدوءٍ وهي تضع القارورة الزجاجية على الطاولة،

ثم التفتت إليّ وقالت بنبرةٍ أقرب إلى الهمس:

"ولِمَ لا تكون على حقّ؟ القطط يا أكحل ليست كما تراها العيون.

هي من أقدم المخلوقات التي تحمل سرّ المراقبة في هذا العالم.

وجودها بيننا ليس صدفةً، بل لحكمةٍ خفيّة.

القطط تُسجّل ما يفعله البشر، وتحتفظ بالأسرار كما لو كانت عيونًا للعوالم الأخرى".

اقتربت القطة بخفةٍ وجلست عند قدميّ،

رفعت رأسها نحوي تحدّق بعينيها المختلفتين:

إحداهما زرقاء كبحرٍ ساكن، والأخرى خضراء كلون الحقول بعد المطر.

كان في نظرتها ثِقَلٌ غريب... كأنّها تحاول أن تدخل إلى داخلي.

قلتُ مترددًا:

"تُسجّل؟ كيف؟ أهي تفهم ما نقول؟".

جلست ناصعة أمامي، ومدّت يدها تمسح على ظهر القطة وهي تقول بهدوءٍ يشبه طقسًا سحريًّا:

"إنّها لا تفهم بالكلمات... بل بالتردّد.

القطط تتعامل مع الطاقة لا اللغة.

حين تراك، تقرأ ذبذباتك، نيتك، انفعال روحك، وتُخزّنها.

كلُّ مواءٍ، كلُّ نظرةٍ، هو شكلٌ من أشكال التواصل الطاقي.

هي لا تتكلّم... لكنّها تُرسل إشاراتٍ لا يلتقطها سوى من فُتح وعيُه".

نظرتُ إليها بتركيزٍ أكبر وقلتُ:

"لغة تواصلٍ إذًا... لكن كيف يفهمها الإنسان؟".

أجابت وهي تنظر مباشرةً في عينيّ:

"القطط تُخاطب بالقلب لا بالعقل.

حين يصفو قلبك، تسمعها دون أن تنطق.

تتحدث عبر نغمةِ الصمت، وعبر تغيّر الهواء من حولها.

إنّها الكائن الوحيد الذي يعبر بين الضوء والظلّ دون أن يضيع".

كانت القطة لا تزال تنظر إليّ،

ثم تحرّكت ببطءٍ، صعدت على الطاولة واقتربت حتى صار وجهها قريبًا من وجهي.

في تلك اللحظة أحسستُ بشيءٍ غريب،

دفءٌ خفيفٌ مرّ عبر صدري وارتفع إلى جبيني،

وصوتٌ واهٍ داخلي همس لي بلغةٍ لم أفهم كلماتها، لكنّي فهمت معناها:

"نراك... فكن صادقًا فيما تخفي".

اتسعت عيناي بدهشة،

التفتُّ نحو ناصعة وقلتُ بصوتٍ خافتٍ متردّد:

"لقد... سمعتُ شيئًا منها".

ابتسمت ناصعة وقالت وهي تمسّد القطة البيضاء:

"إذن قد اختارتك. ليس الجميع يسمعها في أول لقاء.

هذه القطة يا أكحل ليست مجرّد حيوان، إنّها عينٌ بين البُعدين.

حين تفهم نظراتها، ستكون قادرًا على رؤية ما وراء المرئي".

تراجعتُ خطوةً للوراء وقلتُ بدهشة:

"وما علاقتها بتدريبي؟".

قالت بابتسامةٍ غامضةٍ وهي تضع القطة على كتفها:

"ستكون معك في تدريبك القادم.

فمن لا يُتقن قراءة نظرة القطة، لن يستطيع إخفاء وجهه بين الظلال".

سكتُّ لوهلة، وما زالت القطة تحدّق فيّ بتلك العينين المختلفتين.

كان في الجوّ سكونٌ غريب، لا يُسمع فيه سوى احتكاك اللهب في الشموع.

مددتُ يدي ببطء، لكن القطة أبعدت وجهها بخفّة، كأنّها لا تسمح باللمس إلّا لمن تفهمه تمامًا.

نظرتُ إلى ناصعة وسألتها بفضولٍ خالصٍ امتزج بدهشةٍ حقيقية:

"لقد لاحظتُ أن قطتكِ تغيّر لون عينيها كثيرًا،

مرّةً أراها ذهبيةً مثل غروب الصحراء، ومرّةً رماديةً مثل الضباب،

والآن صارت كعينيكِ... واحدة زرقاء، والأخرى خضراء.

ما السبب وراء ذلك؟".

ابتسمت ناصعة وهي تمسح على رأس القطة بحنان،

ثم قالت بصوتٍ عميقٍ ينساب كأنّه يشرح لغزًا من زمنٍ بعيد:

"تغيّر عينيها ليس ظاهرةً عاديةً يا أكحل، بل انعكاسٌ لما يدور في الطاقات من حولها.

القطط مرايا الأرواح...

لون عينيها يتبدّل بحسب من تقف أمامه، وبحسب نيّة من يُحدّثها.

إنّها تلتقط طيف الهالة، وتُظهره بلونٍ تراه أنت في عينيها".

تقدّمت خطوةً وجلست أمامي، ضوء الشموع يتراقص على وجهها،

وقالت وهي تحدّق في القطة التي عادت لتجلس في حضنها:

"حين تكون العيون ذهبيةً، فذلك دليلٌ على طاقة النار،

وحين تصير رماديةً، فهي تمتصّ طاقة الهواء،

أمّا عندما تتلوّن كالآن، زرقاء وخضراء، فذلك لأنّها تفتح عينين من بُعدين مختلفين،

إحداهما ترى النور، والأخرى ترى الظلّ".

تأمّلتُ القطة التي كانت تراقبني بلا رمشة،

وقلتُ بخفوتٍ وكأنّي أتكلم مع نفسي:

"إذن حين تشبه عينيكِ، فذلك يعني أنّها تتصل بكِ؟".

ابتسمت ناصعة وقالت بهدوءٍ غامضٍ وهي تمرّر أصابعها في فراء القطة الأبيض:

"بل يعني أنّنا أصبحنا كيانًا واحدًا للحظات.

روحها تندمج مع روحي حين أحتاجها، فتغدو هي لسان بصيرتي، وأنا قلب وعيها".

تراجعتُ قليلًا في مكاني وأنا أشعر برجفةٍ خفيفةٍ في صدري،

وسألتها:

"وهل يمكن أن تفعل ذلك مع أيّ شخصٍ آخر؟".

هزّت رأسها نافيةً وقالت بابتسامةٍ هادئةٍ:

"لا، فهي لا تتصل إلّا بمن رأت فيهم نورًا صادقًا.

ولهذا السبب... كانت عيناها بلون عينيّ عندما نظرت إليك،

لأنّها رأت فيك شيئًا من نوري، أو ربما شيئًا من قدَري عندك".

صمتنا للحظة،

والقطة ما زالت تراقبني بعينين مختلفتين،

كأنّها تُعيد تشكيل صورتي في وعيها،

ثم غمزت ناصعة بخفّةٍ وقالت:

"احذر فقط يا أكحل...

حين تغيّر لون عينيها إلى الأسود الكامل،

فاعلم أن روحًا خفيّة دخلت المكان،

وعندها... لا تتكلّم أبدًا".

قالت ناصعة وهي تجمع بعض القوارير الصغيرة وتضعها على الرفوف الزجاجية:

"الآن عُد إلى المقر يا أكحل، واخلُد إلى النوم، فغدًا ينتظرك تدريبٌ شاق".

قلت بابتسامةٍ خفيفة وأنا أعدّل عباءتي:

"حسنًا يا ناصعة... وشكرًا لكِ على هذا اليوم الغريب والمليء بالمفاجآت".

هممتُ بالخروج ودفعت باب الكوخ ببطء،

لكن ما إن فتحته حتى اندفع هواءٌ باردٌ تلاه مطرٌ غزيرٌ يهطل بعنفٍ على الأرض الحجرية خارج الكوخ،

كان صوت المطر كهمس آلاف الطبول فوق السقف الخشبي،

والريح تصفّر من بين الأشجار كأنها تحذرني من المضيّ في طريقي.

قالت ناصعة وهي تقترب من الباب:

"المطر شديد الليلة... لِمَ لا تبيت هنا؟ لا أريد أن تمرض بعد كل هذا العناء".

قلت وأنا أضحك بخفةٍ محاولًا التهوين من الأمر:

"لا عليكِ، سأعود بسرعة، المطر لا يخيفني يا ناصعة".

لكن قبل أن أخطو خطوةً واحدة إلى الخارج،

أحسستُ بيدٍ تمسك بطرف قميصي وتسحبني إلى الداخل بسرعةٍ مباغتة.

التفتُّ بذهولٍ لأجد ناصعة قد أغلقت الباب خلفي بقوة،

أنفاسها متوترة، ووجنتاها محمرّتان بلونٍ واضحٍ تحت ضوء الشموع.

قالت بصوتٍ خافتٍ مترددٍ يخالطه خجلٌ واضح:

"أنا... لم أصدق أنك تعافيتَ تمامًا، ولا أريدك أن تمرض مجددًا.

لدينا تدريباتٌ مهمة غدًا، أرجوك... اسمع الكلام، ونَم هنا الليلة".

نظرتُ إليها لبرهةٍ طويلة،

ثم أشرتُ بيدي نحو أرض الكوخ التي كانت مغطاةً ببعض الأغطية القديمة ووسادةٍ صغيرة قرب الموقد،

وقلتُ بسخريةٍ لطيفةٍ ابتسمتُ لها رغم الجو المشحون بالحياء:

"وأين تريدينني أن أنام يا معلمتي؟ هنا على الأرض بين الكتب والجرار؟ أم تُشرِكيني مكان قطتكِ الحكيمة؟".

ضحكت ناصعة بخفةٍ وهي تحاول إخفاء ارتباكها،

ثم قالت وهي تشير نحو ركنٍ جانبيٍّ من الكوخ فيه أريكةٌ منسوجةٌ بخيوط الخزامى الجافة:

"هناك... على الأريكة، لا تقلق، لن تهاجمك القطة طالما لم تأخذ مكانها المفضل".

رفعتُ حاجبي وقلتُ ممازحًا:

"يبدو أن حتى القطة تملك مكانًا خاصًا أكثر راحةً مني".

ردّت وهي تمشي مبتعدة نحو الطاولة تجمع أوراقها:

"القطة تعرف قيمة طاقتها... أمّا أنت، فستتعلم غدًا كيف تحفظ طاقتك بدل أن تُبدّدها في العناد".

ضحكتُ بخفوت، ثم جلستُ على الأريكة، أراقب المطر المنهمر من نافذة الكوخ الصغيرة.

أمّا ناصعة فكانت تقلّب كتبها بصمتٍ غامضٍ تحت ضوء الشموع،

وقطتها جالسةٌ على العتبة تراقبنا بعينيها المختلفتين.

بعد دقائقٍ من الصمت، كنتُ أحدّق في نافذة الكوخ الصغيرة، أتابع المطر وهو ينساب كخيوطٍ فضية على الزجاج،

تتحرك الشموع ببطءٍ مع نَفَس الريح، ويتمايل ظلّ ناصعة وقطتها على الجدار الحجري كأنهما لوحةٌ من عالمٍ آخر.

قطعت ناصعة شرودي بصوتٍ ناعمٍ فيه دفءٌ وفضول، وقالت وهي ترفع رأسها من فوق كتابٍ كانت تقلّب صفحاته:

"بماذا تفكر يا صاحب الرموش الكثيفة؟".

ابتسمتُ بخفةٍ دون أن ألتفت، وعيناي لا تزالان معلّقتين على قطرات المطر التي تتسابق على النافذة، وقلت:

"أفكر في العالم الخارجي... في حياتهم الآن.

حين عدتُ هناك، وجدتُ اختلافًا شاسعًا بين حياتنا وحياتهم،

كأننا نوعان مختلفان من البشر، لا يجمعنا سوى الاسم فقط".

صمتُّ لحظةً، أتابع المطر بعينين نصف مغلقتين، ثم أضفتُ بصوتٍ مبحوحٍ كأنني أخاطب نفسي أكثر مما أخاطبها:

"أتدرين يا ناصعة... عندما استيقظتُ في منزلي هناك،

راودني سؤالٌ لم أجد له إجابةً حتى الآن".

رفعت رأسها عن الكتاب، وعيناها المختلفتان تلمعان تحت ضوء النار، وقالت بهدوءٍ متأمل:

"وما هو هذا السؤال يا أكحل؟".

أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وقلتُ وأنا أراقب قطرات المطر تلتقي ثم تنفصل على زجاج النافذة:

"هل سأستطيع أن أتأقلم معهم... إذا عدت؟

بعد كل ما رأيتُ، بعد كل ما عشتُ بين العوالم والبوابات،

هل يمكن لإنسانٍ رأى ما وراء الحُجب أن يعود ليجلس بينهم كواحدٍ منهم؟

هل يمكن أن أضحك بصدقٍ على صغائرهم،

وأخاف من أشيائهم التافهة كما يفعلون؟".

تأملتني ناصعة طويلًا، لم ترد مباشرة،

كانت نظرتها تشبه من يعرف الجواب لكنه ينتظر اللحظة المناسبة ليقوله.

ثم قالت بصوتٍ خافتٍ يحمل لمسةَ حزنٍ وفهمٍ عميق:

"من يعبُر العوالم يا أكحل... لا يعود كما كان،

لكنه لا يفقد قدرته على الحبّ، ولا على الفهم.

ربما لن تتأقلم معهم، لكنك ستتعلم أن ترى فيهم ما لا يرونه في أنفسهم...

وهذا يكفي لتعرف أنك لم تعد واحدًا منهم، بل حارسًا عليهم".

ساد صمتٌ طويل بعد كلماتها،

المطر ما زال ينهمر، والريح تتسلل من شقوق الخشب كأنها أنفاس ليلٍ قديم، أمّا أنا، فبقيتُ أحدّق في النافذة،

وفي داخلي يقينٌ بدأ يتكوّن ببطءٍ:

أن العودة ليست رجوعًا... بل بداية عبورٍ آخر.

سألتها بعد لحظة صمتٍ طويلة، بينما كانت النار تتماوج على الخشب وتُلقي بظلها البرتقالي على وجهها:

"هل فكّرتِ يومًا يا ناصعة... أن تتركي الهلاليين؟

أن تعودي لتعيشي حياةً طبيعية... كأيّ إنسانةٍ عادية؟".

رفعت رأسها ببطء، كانت عيناها تلتقطان وهج النار في مزيجٍ عجيبٍ من الضوء والسكينة.

بقيت صامتةً لحظات، ثم أغلقت الكتاب بين يديها، وأسندت ظهرها على المقعد الخشبي، وقالت بصوتٍ عميقٍ وهادئٍ كأنه قادمٌ من بُعدٍ آخر:

"حياةٌ طبيعية؟".

ابتسمت ابتسامةً خفيفةً فيها مرارة، ثم أضافت:

"وأين هي الحياة الطبيعية يا أكحل؟ أخبرني... في أيّ عالمٍ وجدتها؟

هل هي في عالم البشر، حيث الناس يبتسمون نهارًا ويكتمون صرخاتهم ليلًا؟

أم في عالمنا، حيث نقاتل في الظلال لنمنع النور من الانطفاء؟".

سكتت لحظة، ثم أطرقت رأسها وقالت بصوتٍ خافتٍ كأنها تخاطب نفسها أكثر مما تخاطبني:

"كنتُ أظن أني أستطيع العودة...

أن أترك الهلاليين وأعيش حياةً بسيطة،

أمشي في الأسواق، وأتناول الخبز الساخن من يد بائعٍ لا يعرف من أكون،

وأضحك على أشياءٍ تافهة...

لكنني اكتشفت أن من يرى ما وراء الحجاب... لا يعود ينسى.

العين التي رأت النور والظلال في آنٍ واحد، لا تستطيع أن تُغمضها من جديد".

توقفت قليلًا، ثم نظرت إليّ، كانت نظرتها صافيةً بشكلٍ موجع، وقالت:

"أنا يا أكحل... لا أعيش لأجل نفسي.

أنا جزءٌ من عهدٍ قديم، امتدّ عبر الأجيال،

عهدٌ لا يُفكّ إلا بالموت أو بالتحقق الكامل من النبوءة التي أنت جزءٌ منها...

فكيف أترك الهلاليين، وأنا خيطٌ في نسيجٍ إن فُقد، انهار النور كلّه؟".

ابتسمتُ بخفوتٍ وأنا أتابعها تتحدث، وفي قلبي إحساسٌ غامضٌ بالرهبة والإعجاب،

ثم قلتُ وأنا أستند إلى الجدار:

"أظنّنا نحن الاثنان يا ناصعة... لم نُخلق لنعيش حياةً عادية،

لكن صدّقيني، في داخلي جزءٌ صغير... ما زال يحلم بها".

نظرت إليّ ناصعة بابتسامةٍ حزينةٍ دافئة، وقالت:

"وذلك الجزء يا أكحل... هو ما يجعلك بشرًا بعد كل ما رأيت".

بقيت نظراتنا متشابكة، كأننا ندرك دون أن نقول إنّ كِلاَنا لن يعرف يومًا طعم الحياة العادية...

لكننا، رغم ذلك، لم نعد نريدها.

قامت ناصعة ببطءٍ من مكانها، وسارت بخطواتٍ ناعمةٍ نحو الطاولة الخشبية الممتلئة بالأعشاب المجففة والزجاجات الصغيرة التي تتوهج بألوانٍ خافتةٍ كأنها أنفاس طاقةٍ نائمة.

قالت بصوتٍ دافئٍ وهي تقلب بعض الأعشاب بين أصابعها الطويلة:

"أنا أعلم أن النوم لا يأتيك بسهولة، طاقتك القوية تُبقي جسدك يقظًا حتى حين يتعب... لذلك سأُعدّ لك مشروبًا خاصًا يساعدك على الاسترخاء".

كانت تتحرك بخفةٍ وأنا أراقبها بصمت، تمزج أوراقًا خضراء مع مسحوقٍ أزرق داخل إناءٍ فخاريٍّ صغير، وتسكب فوقه ماءً مغليًا من غلايةٍ نحاسيةٍ قديمة، فيتصاعد بخارٌ عطريٌّ كثيف، تتراقص فيه ذرات الضوء على وجهها.

بعد لحظات، حملت كوبين وابتسمت وهي تقول:

"واحدٌ لك، وواحدٌ لي، حتى لا تظن أني أسممك".

ضحكتُ بخفةٍ وقلت:

"لن أجرؤ على الظنّ بكِ يا معلمتي".

جلسنا على أرض الكوخ، بجانب المدفأة الصغيرة التي كانت ألسنتها تتلوّى على الخشب بهدوءٍ حالم، نتبادل الحديث، نتسامر كصديقين أنهكهما العالم.

حكت لي عن أول مهمةٍ لها مع الهلاليين، عن معاركها ضد من أرادوا فتح البوابات، وعن المدن التي زارتها بين العوالم، وكنتُ أروي لها بدوري عن سلسلة جبال قاف وعن الحياة هناك.

مرّ الوقت سريعًا بيننا، حتى لم نعد نشعر به.

وفي لحظةٍ من الخفة والسكينة، قررتُ أن أكسر الجدية، فألقيتُ نكتةً مرتجلة، لم أتوقع أن تضحك لها...

لكن ناصعة انفجرت ضاحكةً من أعماقها،

ضحكةٌ صافيةٌ كالماء، لم أسمع مثلها منذ زمن.

وضعت يدها على بطنها من شدّة الضحك، ثم استلقت على الأرض الخشبية قرب المدفأة،

وغرقت في نوبةِ ضحكٍ طويلةٍ حتى احمرّت وجنتاها.

كنتُ أضحك معها، سعيدًا بهذا الجو البسيط الذي لم أذقه منذ زمنٍ بعيد،

لكن فجأةً توقفت عن الضحك.

تجمّدت في مكانها وصمتت تمامًا، كأن النوم باغتها في منتصف ضحكتها.

اقتربتُ منها ببطءٍ وقلتُ بهدوء:

"ناصعة...؟".

لم تردّ.

اقتربتُ أكثر، فرأيتها نائمةً بعمق، تنفسها هادئ، وملامحها وادعة كطفلةٍ صغيرةٍ أنهكها اللعب.

ابتسمتُ من قلبي.

ترددتُ قليلًا، ثم مددتُ ذراعيّ وحملتها برفقٍ بين يديّ، كانت خفيفةً كنسمة هواء،

وضعتُها على سريرها الخشبي المغطّى بغطاءٍ من الكتّان الأبيض،

وسحبتُ الغطاء فوقها بهدوءٍ حتى وصل إلى كتفيها.

تأملتُ وجهها لحظة، كان شعرها منسدلًا على الوسادة، وابتسامةٌ خفيفةٌ ما زالت عالقةً على شفتيها، كأنها نائمةٌ في حلمٍ جميل.

عدتُ إلى مكاني قرب المدفأة، رفعتُ الكوب الذي أعدّتْه لي، وشربتُ آخر ما تبقّى من المشروب الدافئ.

كان طعمه غريبًا، مزيجًا من الورد والمرارة والعسل،

لكنه جعل جسدي يثقل، وجفوني تستسلم للنعاس ببطءٍ...

أسندتُ رأسي إلى الجدار الخشبي، أغمضتُ عينيَّ،

وشعرتُ أن دفءَ المكان يغمرني كغطاءٍ من طمأنينةٍ نادرة..

وفي آخر لحظةٍ قبل أن أغفو، التفتُّ نحوها من بعيد،

وهمستُ في داخلي:

"ليتَ كلَّ الحروبِ تنتهي هكذا... بسكونٍ وابتسامة".

ثم استسلمتُ للنوم.

استيقظتُ على رائحةٍ دافئةٍ تتسلل إلى أنفي،

رائحةٍ خفيفةٍ من الخبز الساخن ممزوجةٍ بعطر الياسمين والنار،

تلك الرائحة التي لا تنتمي إلى زمنٍ محدد،

لكنها تشبه البيت..

فتحتُ عينيَّ ببطء، وكان ضوءُ الصباح يتسلل من بين شقوق الخشب،

ينثر خطوطًا ذهبيةً على أرض الكوخ..

سمعتُ حفيفَ حركةٍ خفيفة،

فالتفتُّ لأرى (ناصعة) واقفةً أمام الموقد،

شعرُها الأرجواني منسدلٌ على كتفيها،

وعيناها تتبدلان لونهما كلما اقترب لهبُ النار منهما..

كانت تُعدّ الطعام في هدوءٍ عجيب،

يديها تتحركان برشاقةٍ بين الأواني والطناجر الصغيرة،

والقطةُ البيضاءُ جالسةٌ قربها، تراقبها بجدٍّ كأنها تتأكد من التوابل..

قالت دون أن تلتفت نحوي، كأنها أحسّت بي قبل أن أنهض:

"صباحُ الخير يا أكحل، أرجو أن نومك كان عميقًا هذه المرة".

قلتُ وأنا أتمدد قليلًا:

"أعمقُ مما توقعت... وأخفُّ مما حلمت".

ابتسمت بخفةٍ وهي تضع الأطباق على الطاولة وقالت:

"جيّد، لأن اليوم لن يكون سهلًا.. سنبدأ تدريباتِ لغةِ النظرة".

أومأتُ بهدوء، دون دهشةٍ أو استغراب.

جلستُ إلى المائدة، أراقب البخارَ يتصاعد من الإناء الفخاري،

وسألتُها بصوتٍ منخفض:

"هل نحن مستعدّان لذلك؟".

قالت بثقةٍ وهي تجلس مقابلي:

"بل أنتَ الذي يجب أن تكون مستعدًّا يا أكحل،

فلغةُ النظرة لا تُدرَّس فقط... إنها تُورَّث".

رفعتُ نظري نحوها،

فبدت في تلك اللحظة كأنها تحمل ألفَ عمرٍ في عينيها،

وقالت وهي تميل بجسدها قليلًا إلى الأمام:

"النظرةُ يا أكحل ليست مجردَ انعكاس، إنها بوابة.

حين يتوازن القلبُ والعينُ، يمكن للنور أن يعبُر عبرهما.

اليوم، سأريك كيف تُرسل طاقتك عبر نظرك... وكيف تُخاطب من دون أن تنطق".

صمتنا لحظةً،

لم نسمع إلا صوتَ النار وخريرَ المطرِ المتبقي خارج الكوخ.

ثم ابتسمت ناصعة وهي تضع آخرَ قطعةِ خبزٍ على الطبق الخشبي،

ثم التفتت نحوي وقالت بصوتٍ ناعمٍ وهي تزيح خصلةً من شعرها الأرجواني عن وجهها:

"آخرُ ما أتذكّره من ليلةِ البارح... أننا كنا نجلس بجانب المدفأة نتحدث ونضحك، ثم فجأةً... لا أدري ماذا حدث بعدها.

كيف وصلتُ إلى سريري يا أكحل؟".

نظرتُ إليها مبتسمًا بخفةٍ وأنا أعدّل جلستي وقلت:

"نمتِ قبل أن يُكمل الليل نصفه، وكنتِ تضحكين حتى دمعت عيناكِ.

لم أشأ أن أتركِ على الأرض، فحملتُكِ ووضعتُكِ على سريركِ، وغطيتُكِ قبل أن تنطفئ النار".

فتحت عينيها بدهشةٍ صغيرة وقالت وهي ترفع حاجبَها الأيسر:

"حملتني؟".

قلتُ بهدوءٍ وفي وجهي ابتسامةٌ طريفة:

"وهل كنتِ تفضلين أن أتركِ هناك بجانب الموقد؟

كنتِ نائمةً كطفلةٍ أنهكها الضحك، لا فرق بينكِ وبين القطة التي نامت عند قدميكِ".

احمرَّ وجهُها بخفة، وأخفضت نظرَها وهي تقول محاولةً إخفاء ارتباكها:

"ظننتُ أنني وصلتُ بنفسي... يبدو أن نومي كان أعمقَ مما ظننت".

ضحكتُ قليلًا وقلتُ وأنا أتناول كوب الشراب الذي أعدّتْه:

"يبدو أن مشروبكِ الخاصَّ أوقعكِ ضحيته قبل أن يُصيبني أنا".

رفعت رأسَها بسرعةٍ وقالت بنبرةٍ تجمع بين المزاح والجدّ:

"إذن فلن أكرّره لك بعد اليوم".

قلتُ وأنا أبتسم بهدوء:

"بل أعدّيه كلَّ ليلةٍ يا ناصعة... إن كان ثمنه أن أراكِ تضحكين هكذا".

سكتت لحظةً، ثم أطرقت رأسَها وهي تُخفي ابتسامةً صغيرة،

وقالت بصوتٍ منخفضٍ متردّد:

"كفاك مجاملةً يا أكحل، فهذا لن يُغنيك عن التدريب الذي لا مكانَ فيه للضحك أو المزاح!".

ضحكتُ بخفةٍ وأنا أقول:

"بل أظنّ الضحكَ جزءًا من اللغة يا ناصعة، فالعيونُ تبتسم قبل الشفاه دائمًا".

رفعت نظرتها إليّ،

وعيناها المختلفتان تلمعان في ضوء الصباح،

وفي تلك اللحظة... أدركتُ أن الدرس قد بدأ بالفعل،

حتى قبل أن تنطقَ بكلمةٍ واحدة.

انتهينا من الطعام بهدوء، كانت ناصعةُ تأكل ببطءٍ رصين،

وعيناها لا تفارقاني،

كأنها تراقب كلَّ حركةٍ، كلَّ لقمةٍ لتقرأ طاقتي من خلالها.

حين فرغنا، وضعت الملعقةَ جانبَ الطبق،

ومسحت يديها بقطعةِ قماشٍ ناعمةٍ وقالت بنبرةٍ جادّة:

"حسنًا يا أكحل، لقد حان وقتُ التدريب".

قامت من مكانها واتجهت نحو الركن الأيمن من الكوخ،

حيث اصطفّت المرايا الصغيرة على الجدار،

وفوق الطاولة وُضعت أوانٍ زجاجيةٌ تحوي سوائلَ بلون البنفسج والأزرق والأخضر،

وعلى الأرض دائرةٌ مرسومةٌ بالرماد الأبيض، تتخللها رموزٌ دقيقةٌ تشبه النقوشَ القديمة.

قالت وهي تفتح نافذةَ الكوخ ليدخل ضوءُ النهار البارد:

"قبل أن تتعلّم لغةَ النظرة، عليك أن تفهم شيئًا مهمًّا...

العين ليست مرآةَ الروح كما يقولون،

بل هي بوابتُها الأولى،

ومن يُتقن عبورَ هذه البوابة،

يستطيع أن يُبصر ما لا يُرى".

جلستُ على الأرض داخل الدائرة كما طلبت،

فوق الرماد البارد، مقابل مرآةٍ نحاسيةٍ كانت تعكس لهبَ النار المرتجف.

جلست ناصعة أمامي تمامًا،

وأشارت بإصبعها إلى عينيها قائلةً:

"انظر إليّ، لكن لا تنظر كما ينظر الناسُ لبعضهم،

انظر كما تنظر الروحُ للروح".

فعلتُ ما قالت، ثبّتُّ بصري في عينيها المختلفتين،

ولوهلةٍ، أحسستُ أنني أغوص فيهما بلا قاع.

قالت بصوتٍ هادئٍ منخفض:

"الخطوةُ الأولى أن تتوقفَ عن الرؤية بالعين...

وأن تبدأ بالرؤية بالنور الذي خلفها.

ركّز... ودَع بصركَ ينساب حتى يختفي كلُّ ما حولنا".

بدأ المكان يبهت من حولي،

تلاشى صوتُ النار، واختفت رائحةُ الخزامى التي كانت تعبق المكان،

كأن الزمن تجمّد، وبقيتُ أنا وهي فقط.

ثم همست قائلةً:

"الآن... أرسل طاقتكَ من قلبك إلى عينيك،

واجعل نظرتكَ امتدادًا لنفَسِك،

لا تدفعها... فقط اسمح لها أن تخرج".

أغمضتُ عينيَّ للحظة، ثم فتحتُهما مجددًا،

فرأيتُ خيوطًا من الضوء تتراقص بيني وبينها،

تتحرك ببطءٍ كأنها أنفاسٌ مرئية،

كانت تتصل بعينيها ثم تعود إليّ،

دوّامةٌ من النور تتشكّل بيننا.

ابتسمت ناصعة وقالت بنغمةٍ خافتةٍ تشبه الترتيل:

"أحسنتَ يا أكحل... لقد فتحتَ العينَ الثالثة بالفعل،

لكن السيطرةَ عليها هي الأصعب،

لأن كلَّ نظرةٍ ترسلها من الآن فصاعدًا...

قد توقظ شيئًا فيمن تقع عليه".

سكتت قليلًا، ثم أضافت وهي تنظر إليّ نظرةً طويلةً تملؤها الهيبة:

"الآن، تدرّب على أن ترى بي لا بيَّ،

أن تُبصرَ من خلالي، لا إليَّ.

حين تنجح في ذلك...

ستصبح أولَ إنسيٍّ بعدي يُجيد لغةَ النظرة بين العالمين".

كانت كلماتُها تتغلغل في داخلي كصوتٍ يأتي من بُعدٍ آخر،

وبين ضوءِ النار وانعكاسِ عينيها،

أدركتُ أن هذا التدريب... ليس مجردَ علم،

بل عهدٌ جديد بين عينيَّ وروحي..

جلست ناصعة صامتةً لبضع لحظات، تراقبني بعينين نصف مغمضتين،

تتأمل أدق حركات وجهي، كأنها تقرأ ما لم أنطق به بعد..

كان الصمت بيننا ثقيلاً، لكنه لم يكن صمتًا عاديًّا...

كان كصمت الجبال قبل العاصفة، أو كصمت البحر قبل أن يبتلع السرّ.

قالت بصوتٍ عميقٍ رصين:

«المرحلة الثانية من التدريب تبدأ الآن يا أكحل، لغة النظرة ليست سحرًا ولا وهمًا،

إنها علمٌ دقيق...

قائمٌ على توازنٍ بين ما تراه العين، وما تشعر به الروح».

ثم نهضت واقتربت مني بخطواتٍ هادئة،

حتى صارت المسافة بيننا لا تتعدى بضع أنفاس.

قالت وهي تشير إلى عينيها المختلفتين لونًا:

«انظر جيدًا... كل عينٍ عندي تحمل ميزةً وطاقةً مختلفة،

الخضراء تنتمي إلى الأرض، والزرقاء تنتمي إلى السماء،

وأنا تعلمتُ مخاطبتهما معًا،

أما أنت، فتستطيع أن تخترق ستار الأكاذيب وتفضح النوايا، والكثير غير ذلك».

شعرتُ بخفقٍ غريبٍ في صدري، كأن قلبي بدأ يتناغم مع صوتها،

قالت وهي تراقب ارتجافة وجهي:

«لا تحاول أن تتحكم بما تراه...

دع الصور تأتيك من تلقاء نفسها،

وسأعرف من نظرتك إن كنت تراها فعلًا أم لا».

أغمضتُ عينيّ لثوانٍ،

ثم فتحتهما ببطءٍ...

كانت ملامح ناصعة تتبدّل أمامي،

تارةً أراها كما هي، وتارةً أراها كأنها من نورٍ صافٍ،

وجهها يشعّ بخيوطٍ متوهجةٍ، وشعرها يتحرك ببطءٍ كأنه في ماء.

قالت بابتسامةٍ خفيفة:

«الآن بدأتَ ترى بالروح...

ما تراه أمامك ليس صورتي، بل طاقتي...

وكل من يتقن لغة النظرة،

يستطيع أن يرى الطاقة كما يراها الروحانيون القدماء».

مدّت يدها ببطءٍ إلى وجهي،

ولمست بأطراف أصابعها جبهتي،

شعرتُ بدفءٍ يسري في رأسي ثم إلى عينيّ،

وقالت بصوتٍ خافتٍ كأنها تُلقي تعويذة:

«من هذه اللحظة يا أكحل،

لن تعود عيناك عاديتين...

كل نظرةٍ منك ستُحدث أثرًا،

وكل من يلتقي بنظرتك سيشعر بما تُخفيه...

فرحك، حزنك، وغيرها إن أردت».

سكتت للحظة، ثم نظرت إليّ بعينيها، وقالت بهدوءٍ حازم:

«من الآن يا أكحل، احذر أن تنظر إلى من تحب بعينك كاملة،

فقد ترى ما لا تُريد أن تراه».

بقيتُ أحدّق فيها، أسمع أنفاسها،

وفي داخلي كان شيءٌ يتغيّر ببطءٍ،

شيءٌ في نظرتي... في إحساسي بالعالم،

كأن كل ما حولي أصبح أوضح وأخطر...

كانت ناصعة لا تزال تراقب وجهي بنظراتٍ دقيقةٍ متفحصة،

ثم قالت وهي تبتسم بخفةٍ مائلةٍ إلى التأمل:

«أتعلم يا أكحل؟ منذ أول مرة رأيتك، لاحظتُ شيئًا فيك لم أره في أحدٍ من قبل...»

رفعتُ حاجبيّ باستغرابٍ خفيف وقلت:

«وما هو؟».

اقتربت مني حتى صارت على بُعد نفسٍ واحد،

نظرت مباشرةً في عينيّ وقالت بنبرةٍ فيها مزيجٌ من الفضول والهيبة:

«رموشك الكثيفة... ليست مجرد جمالٍ خَلقي،

إنها علامة، وميزةٌ روحيةٌ نادرةٌ جدًّا.

في عالمنا، الكثافة ليست للزينة كما يظن الناس،

بل هي درعٌ للطاقة،

تحجب عنك تسرب الهالات السلبية،

وتُخفي نظرتك الحقيقية عن العيون التي تراقب الروح».

صمتت لحظة، ثم تابعت وهي تشير إلى وجهي بإصبعها الرقيق:

«كل رمشٍ فيك يا أكحل،

هو خيطٌ من ذبذبة النور التي تحيط بعينيك،

يجعل طاقتك مركّزةً ومحميةً في الوقت نفسه...

وهذا ما يفسّر لماذا لا يستطيع أحدٌ قراءة أفكارك، ولا حتى التأثير عليك بالنظرة أو بالنية».

ابتسمت قليلًا، وقالت وهي تميل رأسها ناحية الضوء المنعكس من المدفأة:

«الكثافة في الرموش تعني أن الروح حارسةٌ للعقل،

وأن عينك تزن الكلمة قبل أن تراها،

أما إذا اقترنت الرموش الكثيفة بنظرةٍ حادّةٍ

وطاقةٍ نورانيةٍ مثلك، فهذا دليلٌ على أن صاحبها من حملة النور الدفاعي،

من الذين إذا غضبوا... اهتزّ من حولهم المجال الطاقي بأكمله...»

سكتت ناصعة، وكانت تنظر إليّ طويلاً، نظرةً امتزج فيها العلم بالعجب،

ثم قالت بصوتٍ منخفضٍ كأنها تكشف سرًّا لا يُقال إلا لمن اختارتهم الأقدار:

«رموشك يا أكحل... ليست مجرد سحرٍ في المظهر كما قلت، بل هي ختمٌ روحيّ، لا يُمنح إلا لأصحاب البصيرة العميقة.

لهذا السبب، حين تنظر، ترتجف الكيانات السفلية من حولك،

فالجنّ والشياطين لا تحتمل النظر إلى النور المحجوب خلف عينيك...

إنها ترى ما وراء سواد عينيك... ترى الضوء الذي خُلِق لتحجبه رموشك».

ثم قالت وهي ترفع حاجبها بخفةٍ غامضة:

«أتدري لماذا أخذتُ شعرةً من رأسك في أول لقاءٍ لنا؟».

قلت: «لماذا؟».

قالت:

«لأن عينيك مختلفتان عن كل عيون البشر...

ليستا مجرد وسيلةٍ للرؤية،

بل هما عينان خُلِقتا من بُعدٍ آخر،

عيونٌ تفتح في العوالم وتغلق في الوقت نفسه،

وكنت أريد أن أتأكد من ذلك بنفسي».

سكتت قليلًا، ثم تابعت:

«حين تنظر إلى الشياطين، يشعرون بأنهم عُرّوا من ظلالهم، فيختبئون من بصرك،

لأنك تراهم في أصلهم الناريّ، لا في قشرتهم الوهمية...

أما الجنّ، فيعرفون من أول نظرةٍ أنك من حملة النور،

فيلتفون حولك حبًّا وخوفًا من هيبتك عندهم».

ابتسمت وهي تتراجع بخطوةٍ صغيرة، وقالت:

«عيونك يا أكحل... لا تشبه أي عيونٍ في الوجود...

فيها هيئةُ الملك، وهيبةُ الملاك،

وفي أطرافها ظلٌّ من الغموض يثير في الكائنات الرعب والرهبة معًا...

وهذا سببٌ آخر يجعلني أصرّ أن أعلّمك لغة النظرة،

كي لا تتحول قوتك إلى لعنةٍ عليك وعلى من حولك».

رفعت يدها ببطءٍ، ومرّرت أصابعها أمام وجهي كأنها ترسم دائرةً من النور،

وقالت همسًا وهي تبتسم بثقةٍ غامضة:

«حين يُفتح باب عينيك بالكامل يا أكحل،

لن يبقى شيءٌ في هذا العالم ولا في العوالم الأخرى

يجرؤ على النظر إليك دون أن ينحني أولًا».

انقضى أسبوعان كاملان وأنا أمكث عند ناصعة في كوخها المليء بعبق الخزامى ووهج المصابيح الزيتية،

كانت تلك الأيام من أثقل ما مرّ عليّ، لكنها أيضًا من أعمق ما تعلمته في حياتي..

في كل صباح كانت توقظني بصوتها الهادئ، تدفعني لتدريبٍ جديد،

وفي كل مساء كنت أعود مرهقًا، لكن بشعورٍ غريبٍ من الامتلاء...

كأن شيئًا في داخلي كان يُعاد بناؤه من جديد.

خلال تلك الفترة، أتقنت علمين من أخطر العلوم التي لم أكن أظن أنها موجودة أصلًا؛

الأول هو علم عضلات الوجه،

ذلك العلم الذي يمنحك القدرة على التحكم الكامل في أدق تفاصيل ملامحك، حتى في اهتزاز جفنك أو ارتجافة شفتك.

علمٌ يجعل وجهك مرآة لما تختار أنت أن تُظهره، لا لما تشعر به.

يمكنك من خلاله أن تخدع الكيان الذي أمامك، تجعله يرى ما تريد أن يراه، ويصدق ما تختار أن يصدّقه.

هو علم الإخفاء بالوجه، علم الأقنعة الحقيقية التي لا تُخلع...

كنت أتدرب على التحكم بأدق عضلةٍ في وجهي،

حتى صار بإمكاني أن أبدو هادئًا وأنا غاضب،

وأن أبدو ضعيفًا وأنا في أوج قوتي.

قالت لي ناصعة حينها:

«من يتقن علم عضلات وجهه، يملك القدرة على أن يكون ألف شخصٍ في جسدٍ واحد،

ويستطيع أن يُخفي نفسه حتى وهو أمام أعين الجميع،

فالوجوه يا أكحل لا تُخفي فقط ما نشعر به، بل أيضًا ما نحن عليه».

أما العلم الثاني، فكان أعجب وأعمق: علم الأرقام والحروف...

قالت لي ناصعة في أول درسٍ عنه:

«كل شيءٍ في هذا الكون وُجد برقم،

وكل رقمٍ له نغمة،

وكل نغمةٍ تفتح بابًا في أحد الأبعاد».

ثم أوضحت أن الحروف ليست أدوات كلام كما يظن البشر،

بل مفاتيح ذبذبية تحمل ترددات خاصة،

وأن ترتيبها في الكلمات ليس صدفة، بل رسمٌ كونيٌّ دقيقٌ يحرّك الطاقة...

علّمتني كيف أقرأ الأرقام لا كقيمٍ حسابية، بل ككائناتٍ حيّةٍ لها طاقةٌ خاصة،

وكيف يمكنني من خلال الجمع بين الرقم والحرف أن أُغيّر ترددي الطاقي،

فأتخفّى أو أظهر أو أفتح بابًا بين البُعدين.

وعندها فقط أدركت أن الأعداد التي خلقها الله كانت قبل اللغة نفسها،

وأنها سرٌّ من أسرار "كُن فيكون".

كنت أستمع إليها مأخوذًا بالدهشة،

ثم بدأتُ أجرّب بنفسي.

كنت أكتب الرموز التي علمتني إياها على الرمل بيدي،

فأرى الأشكال تهتز وتنبض نورًا كأنها تتنفس.

وقتها فهمت معنى قولها:

«الأرقام روح، والحروف جسد، ومن جمعهما فقد أحيا الاسم».

وفي اليوم الأخير من الأسبوع الثاني،

كانت ناصعة تقف أمام النافذة، ينعكس الضوء على شعرها الأرجواني كأنه هالة،

ثم التفتت نحوي وقالت بنبرةٍ فيها دفء الأمّ وصرامة المعلمة:

«لقد تعلمتَ ما يكفي لتبدأ رحلتك الجديدة يا أكحل،

لكن تذكّر، القوة التي بين يديك إن لم تزنها بالحذر،

ستكون لعنةً لا سلاحًا،

فالعدو الذي ستواجهه هذه المرة هو أصل الظلام نفسه،

وهو الجذر الأول للشر على الأرض...».

أومأت برأسي بجديةٍ وأنا أستشعر ثقل كلامها،

فابتسمت وقالت وهي تميل رأسها بخفةٍ مشاكسة:

«والآن، بعد أن تعلمت كيف تصنع بوابتك النجمية الخاصة،

أريد منك أن تفتح واحدةً تقودك إلى خالد،

واعتبرها مفاجأةً صغيرةً له...».

ابتسمت وقلت بثقةٍ هادئة:

لكِ ذلك يا ناصعة.

مددتُ يدي، وبدأت أردد بعض الرموز التي علمتني إياها،

فارتجّ الهواء من حولي وبدأ يلمع كأنما الماء انعكس فيه ضوء القمر.

تشكلت أمامي دائرةٌ مضيئةٌ بلونٍ أزرق ناعم،

كانت أول بوابةٍ نجميةٍ أصنعها بيدي...

لكن قبل أن أخطو بداخلها،

سمعت صوتها من خلفي، ناعمًا لكنه مبحوح بالعاطفة:

«أكحل!».

التفتُّ إليها،

كانت واقفةً أمام المدفأة،

والدموع تلمع في عينيها المختلفتين،

ثم تقدمت نحوي واحتضنتني بقوةٍ مفاجئة،

حتى شعرت بحرارتها وارتجاف أنفاسها على صدري، وهي تقول بصوتٍ متهدّجٍ خافت:

«سأنتظرك...

اعتنِ بنفسك جيدًا يا أكحل، فأنت الوحيد الذي بقي لي في هذا العالم».

رفعتُ يدي ومسحت دمعتها بإبهامي،

ثم وضعت كفّي على وجنتيها ونظرت في عينيها طويلًا، وقبّلتُ رأسها،

وقلت بهدوءٍ فيه وعدٌ عميق:

أعدك أني سأعود، ولو اضطررت أن أشقّ العوالم جميعها لأعود إليك.

ابتسمت بخفوت، ثم تركت يديها تنزلق عني ببطء،

فخطوتُ إلى داخل البوابة،

وغمرني الضوء الأزرق من كل جانب،

حتى اختفى الكوخ واختفت ناصعة،

ولم يبقَ سوى وعدٍ يتردد صداه في أذني:

سأنتظرك.

(الفصل الثاني عشر)

(مثلث الشيطان)

اهتزّ هواء القاعة فجأةً كأن صاعقةً من نورٍ اخترقت سقفها،

تراقصت الظلال على الجدران الحجرية، وارتجفت الشعلات في أوانيها النحاسية،

ثم انبثق في مركز المكان دوّارٌ من الأثير، يدور بصمتٍ لا يُسمع إلا في الأرواح،

دوّامةٌ زرقاء متوهّجة، تتقاطع فيها شراراتٌ فضيّة،

حتى بدا كأن السماء نفسها انفتحت في عمق الأرض.

ومن قلبها خرجتُ ببطء،

خطوةً تلو الأخرى،

والضوء ينساب عن كتفيّ مثل أجنحةٍ من طيفٍ ناريّ.

كان المقرّ هادئًا، وأصوات خالد وخضر وحوراء تتردّد خافتةً عند الطاولة المستديرة،

يناقشون خرائط المثلث البحري، ولم يشعر أحدٌ منهم بما حدث خلفهم.

اقتربت بخطواتٍ بطيئةٍ لا تُسمع،

حتى صرت خلف خالد تمامًا،

مددت يدي بهدوءٍ ولمست كتفه بخفةٍ وقلت بنبرةٍ واثقةٍ هادئة:

«أتعلم يا خالد؟ ظننتك ستشيب قبل أن أراك

مجددًا».

تجمّد جسده في مكانه كمن صُعق،

ثم استدار ببطءٍ، وعيناه تتسعان بذهولٍ لا يُوصَف،

وحين رآني واقفًا خلفه، غمره صمتٌ عميقٌ كأن الكلمات ماتت في صدره.

قال متلعثمًا:

«أك... أكحل؟! كيف... متى؟!».

ابتسمت وقلت بابتسامةٍ ساخرةٍ:

«ألم تقل لي ذات مرة إن الطريق من نورٍ لا يُسلك إلا بشجاعة؟

ها أنا ذا... جئت على النور نفسه.

لكن يبدو أنني نسيت أن أطرق الباب».

استدارت حوراء بسرعةٍ والدهشة مرسومةٌ على وجهها،

فوضعت يدها على صدرها وقالت:

«يا إلهي!».

أما خضر، فقد ظلّ واقفًا مكانه، عيناه تلمعان بدهشةٍ نادرة،

وقال بصوتٍ منخفضٍ عميقٍ كأنما يخاطب نبوءة:

«لقد عاد ابن النور من بوابته الخاصة... بل صنعها بنفسه!».

ضحكتُ بخفةٍ وأنا أنظر إليهم، ثم قلت بنبرةٍ تحمل شيئًا من المزاح الهادئ:

«كان يمكنني أن أرسل رسالة أُخبركم فيها أنني قادم،

لكنني خشيت أن تتأخر حوراء في الردّ كعادتها».

انفجر خالد ضاحكًا وهو ما يزال غير مصدّقٍ،

ثم أمسك بذراعي وقال وهو يهزّني بقوةٍ وبهجةٍ صادقة:

«يا رجل! لقد جعلتنا نعيش عمرًا من الدهشة في لحظةٍ واحدة!».

قلت بابتسامةٍ جانبيةٍ وأنا أنظر إلى وجوههم الثلاثة المذهولة:

«اعتبروا هذا تمرينًا على الصدمات،

لأن ما ينتظرنا في مثلث البحر أعظم من كل هذا الانبهار».

عمّ الصمت للحظةٍ بعدها،

قبل أن يقول خالد بصوتٍ متهدّجٍ وقد عاد إليه وقاره:

«لقد كنت نبوءة، والآن أصبحت المفتاح نفسه...

مرحبًا بعودتك يا أكحل».

سكنت القاعة بعد الضحك المفاجئ، واستقرت النظرات عليّ، كأن الجميع ينتظر من خالد أن ينطق بالكلمة التالية.

جلس على الطاولة، وضع كفّيه متشابكتين أمامه،

وقال بصوتٍ خفيضٍ لكنه مشحونٌ بالثقل:

«قبل أن تفكر بخطوتك نحو مثلث الشيطان يا أكحل...

ثمة طريقٌ لا بد أن تمرّ به أولًا».

رفعت حاجبيّ متسائلًا:

«أيّ طريق؟».

أجاب خالد وهو ينظر إلى الخريطة أمامه:

«عليك أن تحضر ثلاثة اجتماعاتٍ للمتنورين في بريطانيا».

تجمّدت نظراتي لوهلة،

قلت باستغرابٍ متصاعدٍ:

«بريطانيا؟».

أومأ خالد ببطءٍ وقال:

«نعم، هناك أحد مقراتهم الرئيسة،

وفي تلك الاجتماعات يتجمّع أعتى رموز النفوذ في هذا العالم...

رؤساء دول، أصحاب شركاتٍ عابرةٍ للقارات، مشاهير، ساسة، ورجال دينٍ مزيّفون.

يجب أن تعزز حضورك بينهم أولًا،

حتى يعرفوك ويقبلوك في دوائرهم،

ومن هناك يمكنك أن تشقّ طريقك نحو مثلث البحر، مقرّ الأعوان الرئيس،

حيث يقيم إبليس بنفسه في عرشه».

سكتُّ لحظةً، أراقب وهج المشاعل يرقص على الجدران،

ثم قلت بهدوءٍ متسائلٍ:

«وبأيّ صفةٍ سأدخل عليهم إن سألوني من أكون؟».

عندها ابتسمت حوراء ابتسامةً جانبيةً ماكرةً وقالت وهي تميل برأسها قليلًا:

«على أنك أحد قادة قوات الإنتربول».

نظرت إليها بدهشةٍ مصحوبةٍ بابتسامةٍ خفيفةٍ وقلت:

«إنتربول؟ وما هو الإنتربول؟».

تقدّم خضر خطوةً إلى الأمام، صوته العميق يرتدّ من جدران القاعة:

«الإنتربول يا أكحل هو جهاز الشرطة الدولي،

منظمةٌ ضخمةٌ تمتد فروعها في معظم دول الأرض،

تعمل على ملاحقة المجرمين والكيانات الخارجة عن القوانين الأممية،

وللهلاليين رجالٌ مندسون هناك منذ عقود،

ينقلون لنا ما يدور خلف الكواليس...

بل إن أحد قادتهم البارزين من رجال الإنتربول أنفسهم طلب حضورك شخصيًا للعمل معهم».

قلت ببطءٍ وأنا أحدّق في خضر:

«يطلبني بالاسم؟ للعمل معهم؟

وكيف علموا بوجودي أصلًا؟».

أجاب خالد، وقد مال بجسده إلى الأمام وكأنه يسترجع شيئًا من الذاكرة:

«في أحد الأيام، رصد قسمٌ خاص داخل الإنتربول ظهور طاقةٍ غير مألوفةٍ على كوكب الأرض،

طاقةً قويةً كادت تخلخل التوازن الجيولوجي للحقل المغناطيسي.

بدأوا يتعقّبون مصدرها...

إلى أن اكتشفوا أنها صدرت من بشرٍ واحدٍ فقط، ألا وهو أنت يا أكحل».

نظر إليّ خضر نظرةً جادةً وقال:

«وحين اختطفناك وأتينا بك إلى هنا،

لم يكن خوفنا من المتنورين والأعوان وحدهم، بل أيضًا من الإنتربول الذي وضع اسمك في قوائم المراقبة وجعلك مطلوبًا عالميًا...

كانوا يريدونك حيًّا، لا لعدالتهم، بل لتجاربهم،

يريدون دراسة قدرتك واستخدامك أداةً لمآربهم،

لكن رجالنا في الداخل نقلوا لنا ما يحدث قبل أن يصلوا إليك».

قالت حوراء وهي تسند ذقنها على يدها:

«تكتّمنا على الأمر وقتها،

لكن حين احتجنا وسيلةً لدخولك عالم المتنورين،

اضطررنا لإبلاغ أحد قادة الإنتربول أنك في رعايتنا،

لكي نمهّد لك طريق الدخول عبرهم...

لكن ما لم يكن في الحسبان هو أن ذاك القائد لم يردّ بالرفض...

بل قدّم عرضًا خاصًا جدًا لك».

رفعت نظري إليها وقلت بترقّبٍ مشوبٍ بالدهشة:

«عرضًا؟ أيّ عرض؟».

ابتسمت وقالت:

«صاحب العرض يُصرّ أن تسمعه بنفسك،

ويبدو أنه يعرف أكثر مما نظن».

صمتُّ لحظةً أوازن بين الفضول والحذر، ثم قلت:

«إذن، لقد رتّبتم كل شيء...

وما عليّ سوى السفر إلى بريطانيا، أليس كذلك؟».

تدخّل خالد وقال بنبرةٍ هادئةٍ حاسمة:

«ليس تمامًا.

وجهتك الأولى ستكون مدينة ليون الفرنسية،

هناك مقرّ الإنتربول الرئيسي.

ستقابل القائد الذي قدّم العرض بنفسه،

وبعدها تنتقل إلى بريطانيا لحضور الاجتماعات الثلاثة».

أومأت ببطءٍ وقلت:

«حسنًا... وماذا لو رفضت العرض؟».

ابتسم خضر بتروٍّ وقال:

«ذلك قرارك وحدك يا أكحل،

فهم من يحتاجون إليك، لا أنت،

لكن تذكّر، إن رفضت، يمكنك متابعة مهمتك كما أوصاك القائد نحو مقرّ المتنورين،

غير أن الخطر سيكون مضاعفًا عليك».

رفعت رأسي بثقةٍ هادئةٍ وقلت بابتسامةٍ جانبيةٍ خفيفة:

«بل سأذهب...

ليس لأجل العرض، بل لأرى من هذا الذي يجرؤ أن يفاوض الأكحل».

ضحكت حوراء بخفةٍ وقالت وهي تنهض من مجلسها:

«واعلم يا أكحل أن الهلاليين كلّهم خلفك،

متى احتجتنا، فبواباتنا مفتوحةٌ لك».

تقدّمت منهم، صافحتهم واحدًا تلو الآخر،

ثم اتجهت إلى وسط القاعة،

رفعت يدي إلى الأعلى وبدأت بخطّ دوائر الضوء بأصابعي،

تكوّنت أمامي بوابةٌ نجميةٌ بلونٍ ذهبيٍّ أزرق،

تدور كدوّامةٍ من زجاجٍ سائل...

استدرت نحو خالد،

ابتسمتُ بثقةٍ وقلت:

«إلى ليون إذًا... حيث تبدأ الخطوة الأولى نحو عالم العتمة».

ثم عبرتُ البوابة،

واختفى ضوؤها من خلفي كما يُغلق الستار على بداية فصلٍ جديدٍ من الحكاية...

كان عبور البوابة هذه المرة مختلفًا تمامًا.

لم تكن دوّامة الضوء تهزّني كما في السابق،

بل كانت تسحبني بسلاسةٍ تامّةٍ كأنني أنزلق في نهرٍ من الزجاج السائل.

حين فتحتُ عينيّ، وجدت نفسي واقفًا في بهوٍ حجريٍّ ضخمٍ تحيط به نوافذ عالية،

يتسلّل منها ضوء الغروب على مدينةٍ أوروبيةٍ يغمرها المطر.

أدركت فورًا أنني في ليون - فرنسا.

كانت اللافتات البعيدة مكتوبة بالفرنسية،

والهواء يحمل رائحة الحديد والمطر والمدينة القديمة.

في الأفق ظهرت بنايةٌ زجاجيةٌ عملاقة،

يتوسّطها شعارٌ معدنيٌّ محفور عليه:

INTERPOL

اتجهت إليها بخطواتٍ ثابتةٍ رغم ثقل الهواء،

وفي كل خطوةٍ كنت أشعر أنني أسير نحو فصلٍ جديدٍ من قدري.

حين دخلتُ المبنى، استقبلني صدى خطواتي على الأرض اللامعة،

وصفوفٌ من الشاشات تعرض خرائط العالم، وأسماء المطلوبين، وصور الأقمار الصناعية.

كل شيءٍ كان باردًا ومنظّمًا،

كأنه عالمٌ بلا روح.

اقترب مني رجلٌ أنيقٌ، يرتدي بدلةً رمادية ويحمل شارةً على صدره،

تأملني بنظرةٍ مريبةٍ وقال بإنجليزيةٍ حازمةٍ:

"السيد الأكحل... لقد كنا ننتظرك".

لم أتفاجأ.

أومأت له بهدوء، فقال وهو يشير بيده نحو الممرّ الطويل:

"القائد الأعلى في انتظارك في الطابق العلوي".

صعدت الدرج الحلزونيّ الواسع،

وكان كل طابقٍ يبدو أكثر صمتًا من الذي قبله،

حتى وصلت إلى بابٍ ضخمٍ من الخشب الأسود محفورٍ عليه رمزٌ غريب،

رمزٌ يشبه العين داخل مثلث.

طرقت الباب مرتين،

فانفتح ببطء،

ورأيت داخله قاعةً مضاءةً بضوءٍ خافتٍ أزرق،

وفي صدرها رجلٌ يجلس خلف مكتبٍ عريضٍ من الزجاج،

وجهه نصفه في الظلّ ونصفه في النور،

عيناه رماديتان لا تقرأ فيهما شيئًا.

قال بصوتٍ هادئٍ كأنه يُلقي أمرًا عسكريًّا:

"أهلًا بك يا أكحل".

تقدّمت نحوه ببطءٍ وقلت:

"هل أنت من قدّم العرض؟".

ابتسم بخفةٍ وقال وهو يضع ملفًا أمامه:

"بل أنا من كتب الصفحة الأولى في قصتك الجديدة".

جلست دون أن أطلب الإذن،

وضعت يدي على الطاولة وقلت بثباتٍ:

"خالد قال إنكم رصدتم طاقتي منذ زمن،

لكن ما لم أفهمه... لماذا تريدونني الآن؟".

فتح الملف بهدوءٍ وقال:

"لأنك لست مجرد بشرٍ يملك طاقةً خارقة،

بل لأنك ظاهرةٌ كونية،

الحدّ الفاصل بين العالمين.

وأمثالك لا يُولدون إلا كل ألف عام".

صمت لحظة، ثم تابع بنبرةٍ أكثر غموضًا:

"أريدك أن تعمل معي يا أكحل،

لكن ليس كشرطي... بل كعينٍ خفية.

أريدك أن تكون ظلًّا داخل الظل".

رفعت نظري نحوه بحدّةٍ وقلت:

"وهل تظنّ أنني أعمل تحت أمرك؟".

ابتسم بثقةٍ وقال:

"بل تحت أمرك أنت، إن أردت.

نحن نعلم أنك في طريقك إلى بريطانيا لحضور اجتماعات المتنوّرين،

وأنا أستطيع أن أفتح لك أبوابهم كلّها.

لكن بالمقابل... أريد منك شيئًا واحدًا".

تقدّمت نحوه قليلًا وقلت ببرودٍ:

"وما هو؟".

قال وهو يمدّ يده نحو حقيبةٍ سوداء بجانبه:

"أن تحضر شيئًا لنا من داخل مثلث البحر...

شيئًا صغيرًا، لكنه كفيلٌ بتغيير ميزان القوى في العالم".

فتح الحقيبة وأخرج منها كرةً زجاجيةً صغيرة،

تتوهّج بوميضٍ داخليٍّ كأنها تحبس مجرّةً في داخلها.

قال وهو يضعها أمامي على الطاولة:

"هذا النموذج، يا أكحل، من مادةٍ نجهل أصلها،

لكننا نعلم أنها من نفس البعد الذي وُلدت منه قوتك".

لم ألمسها، فقط نظرت إليها بصمتٍ عميق،

وشعرت أن داخلها شيئًا حيًّا يراقبني.

قال القائد بنبرةٍ خافتةٍ:

"أحضر الأصل من المثلث، وسأمنحك صلاحياتٍ لم يحلم بها بشر".

تأملته طويلًا،

ثم قلت ببرودٍ واثقٍ:

"أنتم لا تدركون أن اللعب مع النور لا يشبه اللعب مع النار".

وقف الرجل ببطءٍ، مدّ يده ليصافحني وقال بابتسامةٍ باردةٍ:

"أدرك جيدًا... ولهذا اخترتك أنت بالذات".

وقفت، صافحته،

لكن في اللحظة التي تلامست فيها أيدينا

رأيت ومضةً خاطفةً من الضوء الأزرق،

وشعرت أن جسده لم يكن بشريًّا بالكامل.

نظرت إلى عينيه...

وفيهما لمعت لمحةُ رمادٍ جهنّميٍّ غامض،

فهمست دون وعي:

"أنت لست قائدًا... أنت شيءٌ آخر".

ابتسم وقال بهدوءٍ كأنما يعترف بجريمةٍ مقدّسة:

"أنا الباب يا أكحل... والباب لا يُغلق إلا بمن يملك المفتاح".

وفي اللحظة نفسها أُطلقت من عينيّ ويديّ طاقةٌ نورانيةٌ هائلة، كأنها شمسٌ أُطلقت من بين العظام.

تدفقت كالسيل، واخترقت جسده في ومضةٍ خاطفة،

ارتدّ إلى الوراء، وقد اشتعلت عيناه بجمرٍ أسود،

وصاح بصوتٍ عميقٍ مشوّهٍ من شدّة الألم:

"ستندم يا أكحل... ستندم على فعلتك هذه!".

لكن النور لم يتوقّف،

بل ازداد بريقًا حتى غمر الغرفة كأنها انفجارٌ من ضوءٍ سماويّ،

وانصهر جسده شيئًا فشيئًا،

حتى تحوّل إلى رمادٍ داكنٍ تراقص فوق الطاولة، ثم تلاشى مع أول أنفاس الصمت...

قلت ساخرًا وأنا أزيح الغبار عن كفّيّ:

"يبدو أن الندم انعكس على رمادك".

لم أُكمل جملتي حتى انفتح الباب خلفي فجأة،

ودخل سبعة رجالٍ ببدلاتٍ سوداء يسيرون في صفٍّ واحد،

يتوسّطهم رجلٌ أصلع بوجهٍ مهيبٍ وشاربٍ كثيفٍ أسود، كانت مشيته بطيئةً لكنها مفعمةٌ بالهيمنة...

بدأ يصفّق بحرارةٍ وهو يبتسم ابتسامةً راضيةً،

وقال بصوتٍ أجشّ عميقٍ:

"قدومه الأول... واكتشف الجاسوس وأحرق شيطانًا علويًّا في ثوانٍ معدودة!

أرأيتم؟ قلتُ لكم إن اختياري كان صائبًا!".

ساد الصمت المهيب في القاعة،

وأدركت حينها أن ما حدث لم يكن إلا اختبارًا،

وأنّ الرجل الأصلع هو القائد الحقيقي لهذه المنظمة.

تقدّم بخطواتٍ واثقةٍ نحو الجدار خلف المكتب، وضغط بيده على آليةٍ خفية،

فانزاحت قطعةٌ ضخمةٌ من الحائط لتكشف عن قاعة اجتماعاتٍ فسيحةٍ مزخرفةٍ بنقوشٍ رمزيةٍ معقّدة، وفي وسطها طاولةٌ بيضاويةٌ تحيط بها مقاعد.

جلس الرجال الستة، وجلس هو في المنتصف،

ثم أشار إليّ بيده قائلًا:

"الآن يا أكحل... حان الوقت لتسمع عرضنا الحقيقي".

تقدّمت وجلست،

وضعت قدمي فوق الأخرى، وأسندت ظهري إلى الكرسيّ،

قلت ببرودٍ واضحٍ وثقةٍ كاملة:

"هات ما عندك، يا حضرة القائد".

ابتدأ الرجل يتكلّم، كمن يزيح أغطية الألغاز عن طاولةٍ منذ زمنٍ طويل:

"لقد اختِيرتَ، أيها الأكحل، من بين آلافٍ من الأذكياء والنُّوّابغ وأبرز المحقّقين في العالم، لحلِّ قضايا تعسّرت علينا عقودًا. قضايا لا تُمثّل دولًا أو أقاليمَ فحسب، بل تهزّ توازنَ العالم. إنها قضايا ظواهرٍ خارقةٍ وطبيعيةٍ على حدٍّ سواء، وقُدراتك فريدةٌ لا مثيل لها على ظهر الأرض. وإلى جانب ثقتنا في كفاءتك، سنوفّر لك ما يلي:

فريقُ عملٍ كاملٌ تحت أمرك، مخصّصٌ لهذا النوعِ من العمليات،

ومبلغٌ مبدئيٌّ قدرهُ عشرةُ ملايينِ دولارٍ عن كل عملية.

أما السكنُ فستعيشُ في أفخر المقارّ في أي بقعةٍ تختارها على وجهِ الأرض،

ومعك حصانةٌ قانونيةٌ كاملةٌ من أي نظامٍ حكوميٍّ كان، وامتيازاتٌ أخرى..."

صمت.

الأنفاس في القاعة كانت محسوبة،

أما أنا فقلت ببرودٍ كمن يُلقي حجرًا في بئرٍ ساكنة:

"أرفض".

تجمّدت النظرات، تبادل الرجال السبعة نظرات الدهشة،

وكأن كلمة أرفض لم تُسمع في هذه القاعة منذ وُجدت...

ضرب القائد بيده على الطاولة وقال بنبرةٍ حادّةٍ تخالطها الدهشة والكبرياء:

"ومن أنت حتى ترفض عرض أكبر منظمةٍ دوليةٍ في العالم؟!".

أزحت نظري نحوه،

وضعت قدمي على الطاولة أمامه بثقةٍ مفرطةٍ وقلت بابتسامةٍ جانبيةٍ باردة:

"إن كنتم أكبر منظمةٍ في العالم،

فأنا وحدي من هزّ عالمكم بقدومي.

اسمي سبق ظهوري، وأنا من أجبركم على دعوتي إلى هنا، لا العكس يا حضرة القائد".

سكت الرجل لبرهةٍ طويلةٍ،

ثم قال وهو يزفر ببطءٍ ليكتم غضبه:

"وماذا تريد إذًا، لتقبل العرض يا أكحل؟".

أجبته هادئًا:

"أريد أن أختار فريقي بنفسي، ولا أرغب في أن يتآمر عليَّ أحدٌ أو يجبرني على فعلِ ما لا أرتضيه.

والباقي... لا يهمّني".

التقطت الأجواء نفسها، ثم تلاشى تعلّقهم بالغضب أمام إلحاح طلبٍ واضحٍ يحمل في باطنه قدرًا من الاحترام.

قال القائد بصوتٍ متّزنٍ:

"حسنًا، لك ذلك".

ثم أشار لأحد ملازميه فأحضر ملفًّا، وفتحَه أمامي.

على الغلاف عنوانٌ بخطٍّ أحمرٍ عريضٍ يُقرأ:

(ما أسفل تحت العراق)

قال القائد وهو يقرع طرف الغلاف بخفةٍ:

"هذه مهمّتك الأولى يا أكحل.

لقد استعصت علينا هذه القضية خمسين عامًا، ولم يفلح أبرعُ محقّقينا في حلّها.

نتوقّع منك أن تحلّها خلال سنة".

ابتسمتُ ابتسامةً هادئةً لا تحمل استعلاءً بقدر ما تحمل يقين الرجل الذي يملك جواب الشيفرة،

فقلت ببرودٍ فائقٍ:

"سأحلّها في ساعةٍ، لكن ليس الآن.

لي أعمالٌ أتمّها، ووقتي ضيّق".

تبادل الحاضرون النظرات،

فأشار القائد إلى رجلٍ يقف بجانبه،

الذي مدّ إليّ بطاقةً خضراء لامعة وقال:

"هذه رخصتك الخاصة،

تمنحك حق الدخول إلى كل مقراتنا حول العالم،

وتفتح أمامك جميع الأبواب المغلقة في وجه العامة".

أخذت البطاقة،

نظرت إليها ثم وضعتها في جيبي بهدوء.

وقفت، استدرت نحوهم، ورفعت يدي مودّعًا بينما أقول بنبرةٍ باردةٍ حاسمة:

"احفظوا هذه اللحظة، فقد تكون آخر مرّةٍ ترون فيها إنسانًا لا يُشترى".

سرت نحو الباب بخطواتٍ بطيئةٍ ثابتة،

ورفعت يدي اليمنى في الهواء،

فرُسمت دائرةٌ من الضوء تومض كنبضٍ سماويٍّ، وانفتحت منها بوابةٌ نجميّةٌ زرقاء.

وقفت أمامها وقلت قبل أن أعبرها:

"إلى بريطانيا... حيث يجتمع كلاب المتنوّرين".

ثم دخلت، واختفى أثر الضوء خلفي.

التاريخ: 1 يناير 2019

كانت البوابة النجمية التي فتحتها تلك الليلة مختلفةً عن كل ما سبقها...

حين عبرتُها، أحاطني ضوءٌ أحمر خافت، كأنني أهبط من رحمِ العدم إلى عالمٍ صنعته الشياطين بأنفسها.

وحين انطفأ الوميض، وجدت نفسي واقفًا وسط غابةٍ كثيفةٍ تتناثر فيها الأشجار كالأعمدة السوداء،

وكان الهواء باردًا إلى حدٍّ يلسع العظام،

غير أن أكثر ما أثار رعبي هو القصر الأبيض الذي كان ينهض في منتصف الغابة،

بهيئته الغريبة، كأنه لا ينتمي إلى الأرض التي تحمله.

كان ضخمًا، صامتًا، تتدلّى من نوافذه أنوارٌ خافتةٌ بلون الدم.

عرفتُ حينها أنني وصلت إلى مقرّ اجتماع المتنورين.

أخذتُ نفسًا عميقًا، ثم غيّرت هالتي.

سمحتُ للنار أن تحيط بي،

وشعرتُ بذبذباتٍ سوداء تتسلّل إلى جسدي حتى صارت هالتي ناريةً شيطانية.

غيّرتُ ملامحي باستخدام ما علّمتني إيّاه (ناصعة)،

حتى صار وجهي غريبًا عنّي، قاسي الملامح.

وضعت غطاء الرأس فوقي، وارتديت قناعًا أسود يخفي نصف وجهي.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل.

ومن بين ظلال الأشجار، بدأت أرى الحضور يقتربون من البوابة الحديدية واحدًا تلو الآخر،

جميعهم يرتدون الرداء الأسود ذاته،

يسيرون بصمتٍ مطبقٍ كما لو أن الأرض نفسها لا تجرؤ أن تصدر تحتهم صوتًا.

تقدّمت نحو البوابة،

وفي مدخلها كانت تقف امرأةٌ شاحبة الوجه،

عينها اليسرى بلون الرماد والأخرى بلون الزجاج المكسور،

قالت بصوتٍ آليٍّ بارد:

"انظر في عيني".

أدركتُ على الفور أنها تقوم بفحصٍ طاقيٍّ...

فعلت ما طلبت،

وحين التقت نظراتنا، رأيت في عينيها شقًّا طوليًّا كالأفعى،

يتحرّك مع كل نفسٍ تأخذه.

شعرت بحرارةٍ غريبةٍ تسري في وجهي، ثم قالت:

"يمكنك الدخول".

خطوت إلى الداخل...

كانت الأرضية من رخامٍ أبيض وأسود متناوبٍ على هيئة مربّعاتٍ كرقعةِ شطرنجٍ عملاقة،

كأنما توحي بأن الحياة هنا لعبةُ صراعٍ بين النور والظلام.

على جانبي القاعة صفوفٌ من الكراسي الخشبية القديمة،

وعلى السقف نقشٌ ضخمٌ على شكل عينٍ محفورةٍ في الرخام،

تحدّق إلى كل من في الداخل كعينٍ لا تنام.

في منتصف القاعة،

ارتفعت مشاعل نارٍ ضخمةٍ تضيء تمثالًا مرعبًا على هيئة كائنٍ له جسدُ إنسانٍ ورأسُ ماعزٍ،

عيناه تتوهّجان بضوءٍ أحمر،

وحول قدميه رموزٌ منحوتةٌ بلغةٍ لم أعرفها.

كان كلّ من يدخل القاعة يتوجّه نحو التمثال،

يتمتم بتعاويذ غريبةٍ بلغةٍ متقطعة،

ثم ينحني أمامه قبل أن يذهب إلى مقعده.

قلّدتهم بهدوءٍ، وقلت كلماتٍ لم يفهمها أحد لكنها بدت متقنة،

ثم اخترت مقعدًا في الصفّ الثالث وجلست.

جلس إلى يميني رجلٌ عجوز بوجهٍ عميق التجاعيد ووشمٍ أسودٍ على عنقه،

وعن يساري امرأةٌ سمراء ذات شعرٍ أشقر،

كانت تبتسم دون سببٍ كما لو أن روحًا تتحدث في داخلها.

ساد صمتٌ ثقيلٌ في القاعة...

كلّ الأنظار معلّقةٌ بالتمثال،

والجوّ مفعمٌ برائحة الشمع والدم المحترق.

وفجأة، فُتح الباب بعنف،

ودخل رجلان مغطّيان بالرؤوس،

تقدّما حتى منتصف القاعة،

وانطفأت الأضواء كلها إلا من وهجٍ خافتٍ سُلّط عليهما.

بدآ يتلوان تعاويذ غريبةً بلغاتٍ متداخلةٍ كأنها تأتي من أزمانٍ مختلفة،

كلماتٌ تحمل نغمةً غير بشرية،

ترتجّ معها الجدران كأنها تفهمها.

ثم قال أحدهما بصوتٍ أجشّ يسمعه كلّ من في القاعة:

"في هذه المرحلة، سنكثّف أعمالنا...

اقتربت الخطة الكبرى...

سنعمل على زيادة الذبذبات، وعلى التوجيه الإعلامي...

فمن منكم من المغنين والإعلاميين يريد شهرةً أوسع وانتشارًا أقوى؟

من أراد المجد... فليرفع يده".

عمّ الصمت لثوانٍ،

ثم ارتفعت يد رجلٍ يجلس في الصفّ المقابل،

ثم تبعته المرأة السمراء التي بجانبي.

أشار الرجل الواقف في منتصف القاعة بإصبعيه السبابَة والوسطى إليهما،

وقال بصوتٍ خافتٍ يحمل نغمة أمرٍ مطلق:

"انزلا".

تقدّما إلى الأمام بخطواتٍ بطيئةٍ،

وقفا أمام التمثال،

وعلى الطاولة الرخامية المجاورة له كانت سكينٌ فضّيةٌ طويلة.

أمسك كلٌّ منهما السكين، وقطع جزءًا من راحته،

وسال الدم على التمثال كأنما يُطعمانه.

ثم سجدا أمامه في خشوعٍ تامٍّ،

صفّق الجميع بحرارةٍ غريبة،

ضحكوا بصوتٍ واحدٍ كأنها ضحكةُ مخلوقٍ واحدٍ بعدة أفواه.

رفع الرجل الذي في منتصف القاعة رأسه،

وفي فمه ابتسامةٌ شيطانيةٌ باردة،

وقال:

"انتهى اجتماع اليوم...

وغدًا موعدنا الكبير".

ثم انطفأت المشاعل فجأة،

وتحوّل كل شيء إلى ظلامٍ دامسٍ إلا من بريقٍ أحمر كان يلمع فوق رأس التمثال،

كأنما يحفظ أسماء الحاضرين واحدًا تلو الآخر.

الأسابيع الثلاثة في لندن

استمرّ الأمر على ما هو عليه ثلاثة أسابيع كاملة،

كنت أتنقّل خلالها بين الغابات وضواحي لندن،

مقيمًا في الظلّ لا في البيوت،

أراقب العالم من خلف ستارٍ من وعيٍ لا يراه سواي.

كنتُ أمشي بين الناس المارّين في الشوارع،

وأرى ما لا يرونه...

شياطينَ تتخفّى في هيئة بشر،

تبتسم في المقاهي، وتعبر الطرق، وتجلس خلف الشاشات...

لم أستغرب،

فقد سمعت في اجتماعاتهم ما يجعل شعر الرأس يشيب من هوله.

كانوا يتحدثون بخططٍ تفصيليةٍ دقيقةٍ لا تصدر عن عقلٍ بشريٍّ عادي،

خططٍ تمتدّ من السياسة إلى الموسيقى،

من ألعاب الأطفال إلى شاشات الهواتف في أيدي المراهقين.

كلّ شيءٍ لديهم محسوبٌ ومدروس.

يتكلمون عن (التحكم في الوعي الجماعي)،

عن تحويل الضحكة إلى أداةٍ، والأغنية إلى لعنةٍ متنكرةٍ في لحن.

كانوا يزرعون رموزًا شيطانيةً خفية داخل الرسوم المتحركة،

رموزًا لا يعيها العقل الواعي،

لكنها تخاطب اللاوعي مباشرةً،

وتدفع الأطفال ببطءٍ ودهاءٍ إلى الميل الجنسي غير الفطري،

وإلى الانحراف عن الفطرة الأولى التي فطرهم الله عليها.

حتى الأغاني لم تسلم من خططهم.

سمعت أحد قادتهم يقول بفخرٍ وهو يشير إلى تردّدٍ معيّنٍ في جدولٍ صوتيٍّ أمامه:

"هذا هو تردد الشيطان،

حين يُبثّ في المقاطع الموسيقية،

يدخل في الجهاز العصبيّ البشريّ

ويخلق اهتزازًا وهميًّا من اللذّة،

فيتعلّق المستمع بالأغنية دون أن يدري أنه يتعلّق بخيطٍ يجرّه إلينا".

كنت أستمع إليهم في صمتٍ،

وكل خليةٍ في جسدي تشتعل غضبًا.

أدركت حينها أن ما تعلّمته في جبال قاف

عن علم الصوت لم يكن عبثًا ولا مصادفةً،

بل كان تمهيدًا لي لأفهم كيف يستخدمون ترددات الكون ذاتها لتخدير الأرواح وسجن العقول.

كلّ شيءٍ من حولي كان يزداد وضوحًا وغموضًا في الوقت نفسه.

لقد تجاوز الشرّ مرحلة السحر والطقوس،

وأصبح علمًا ومنهجًا وتقنيةً تُدرّس في الخفاء

وتُصدّر للعالم على هيئة فنٍّ وترفيهٍ وتقدّمٍ حضاريٍّ زائف.

وفي الاجتماع الأخير

رأيت ما لم أتخيّل أن أراه يومًا...

كانت القاعة مكتظّةً على غير العادة،

والوجوه أكثر هيبةً وغموضًا،

حتى أطلّ من الباب الخلفيّ رجالٌ لم أرهم من قبل،

تقدّموا بخطواتٍ واثقة،

وجلسوا في المقاعد الأولى دون أن يُسألوا من هم.

تبادل القادة نظراتٍ صامتة،

ثم بدأ الرجل المكلّف بالخطاب يقول بنغمةٍ تملؤها الهيمنة:

"لقد تمّ الاتفاق مع رؤساء عدّة دول،

ستُعلن القرارات التي ناقشناها هنا...

خلال أيامٍ معدودة، أمام شعوبٍ تظن أنها تختار مصيرها".

تجمّدت الكلمات في فمي.

لم أكن أصدّق أنّ من يُفترض أنهم زعماء العالم الحرّ

ما هم إلا خيوطٌ متحركةٌ بيد هذا التنظيم الظلاميّ.

وبالفعل،

بعد أيامٍ قليلةٍ من ذلك الاجتماع،

رأيت بعينيّ الأخبار على الشاشات،

ورأيت القرارات تُتخذ كما قيل في القاعة نفسها،

حرفًا بحرفٍ، وكأنهم كانوا يملون النصوص على حكومات الأرض.

حينها أدركت الحقيقة المروّعة:

نحن جميعًا نعيش داخل علبةٍ ضخمةٍ غير مرئية،

يحركها من الداخل عقولٌ شيطانيةٌ تحكمنا من حيث لا نشعر،

وأنّ العالمَ ليس كما يُرى،

بل كما يُبرمج.

تلك الليلة، وأنا أطلّ من نافذة الفندق على ضباب لندن الكثيف،

عاهدت نفسي عهدًا لا رجعة فيه:

أن أحاول إنقاذ كلّ من يمرّ في طريقي، أن أوقظ من أستطيع من سبات الغفلة،

لأن الغفلة الكبرى لا تنكسر إلا إذا استيقظت العقول معًا...

وبعدَ لحظةٍ كأنَّ الزمانَ توقّف، أدركتُ أنَّ هذا اليوم هو اليوم الموعود، وأنَّ رحلتي التي طالما انتظرتُها قد أُنجزت لتبلغ ذروتَها هنا، في قلبٍ من نارٍ لا يرحمُ..

عدتُ إلى الغرفة التي استأجرتُها في الفندق، أغلقتُ البابَ خلفي، فتحتُ بوابتي النجمية المتوجِّهة إلى مثلث الشيطان، وقبل أن أخطو، فعّلتُ هالتي الشيطانية الكبرى؛ سمحتُ للنار أن تلتفَّ حولي، وجعلتُ ظلالي تُطيلُ صراخَها على الأرض. كانت هالةٌ لا تُخفي إنّما تُخيف، تبدو للعين العادية شيطانًا، وللشياطين علامةَ إخوةٍ. ارتديتُ قناعي الأسود، وغسلتُ وجهي بوجهٍ جديدٍ يليقُ بمقامِ دخولي إلى حضرةِ جذرِ الشرِّ الأول (إبليسُ نفسهُ).

خطوتُ داخل البوابة.

تقلّب الزمانُ من حولي، صار الهواء ثقيلًا كأنّه ماء،

والضوء يتحلّل ويتغيّر حتى وجدتُ نفسي في مكانٍ لا يمكن لعقلٍ بشريٍّ أن يستوعبه.

كانت جزيرةً... لكنّها تحت البحر!

كلّ شيءٍ مقلوب...

فوقي الماء، أراه صافياً كمرآةٍ ضخمةٍ تسبح فيها

الحيتان،

ومن تحتي بحرٌ آخر، بلونٍ أحمرَ مسوَّدٍ، يغلي كبراكين من الدم.

أمّا الأرض فليست أرضًا، بل حممٌ مجمَّدةٌ تشعّ بحرارةٍ تُلهب الجسد دون أن تحرقه.

صوتُ الريح يشبه أنينَ العصور القديمة.

رفعتُ رأسي، فرأيتُ هيكلًا هائلًا على هيئةِ قرنٍ أسودَ مغروسٍ في قلب الجزيرة،

كأنّه جبلٌ من الظلال تحوّل إلى معبدٍ حيّ.

على جدرانه تتدلّى أذرعٌ بشريةٌ متفحّمة،

وعلى القمم تُعلّق جماجم تتوهّج من داخلها نارٌ لا تنطفئ.

في السماء كانت كائناتٌ سوداءُ بأجنحةٍ ممزّقةٍ تحلّق في دوائر،

أجسادُها ممدودةٌ كالأفاعي، وأصواتُها تشبه نحيبَ العواصف.

لم أجد إنسانًا واحدًا.

كلّ الوجوه التي حولي كانت شيطانية:

أنصافُها بشريةٌ وأنصافُها متوحّشة،

عيونٌ بلا جفون، وأفواهٌ تبتسم دون سبب.

اقتربتُ من بوابة القلعة، فجأةً شعرتُ بقبضةٍ من حديدٍ تمسك كتفي.

التفتُّ ببطءٍ، فإذا بعملاقٍ أحمر البشرة،

عيناه صفراوان كاللهب، وقرناه يبرقان كالسيوف.

تأمّلني طويلًا وقال بضحكةٍ مجروحةٍ بالدهشة:

"لم أرَ شيطانًا يتقن التنكّر البشريَّ إلى هذا الحدّ... من أيِّ فصيلةٍ أنت؟".

أدركتُ أنّه انخدع بهالتي.

اقتربتُ خطوةً، وضعتُ يدي على صدره بقوّةٍ وقلتُ بنبرةٍ باردة:

"من عاش بين البشر طويلاً، يعرف كيف يلبس وجوههم".

ثمّ أعطيتُه ظهري وتقدّمتُ نحو البوابة.

لم يمنعني، بل ضحك ضحكةً مبحوحةً اهتزّ لها الجدار.

دخلتُ...

استقبلتني قاعةٌ جهنّميةٌ واسعة،

يتوسّطها رمزٌ محفورٌ في الأرض على شكل نجمةٍ شيطانيةٍ تشتعل بالنار الحيّة،

وعلى الجانبين كانت هناك جثثٌ مصلوبةٌ،

أنصافها ذائبةٌ من الحمم، وأنصافها متجمّدة.

كان المنظرُ مقزّزًا، كأنّ الجحيمَ نفسه فتح لي قلبَه لأتجوّل فيه.

تحرّكتُ بين صفوف الشياطين الذين يطوفون حول تمثال "الشيطان"،

يرتّلون أدعيةً غريبة.

فعلتُ كما يفعلون، نسختُ حركتهم وصوتهم كي لا يُكتشف أمري،

ثم تابعتُ حتى وصلتُ إلى القاعة الكبرى.

وهناك... تجسّد الرعبُ في أكمل صوره.

القاعة بحجم مدينةٍ صغيرة،

النار تحيطها من كلّ الجهات،

والأرض مكسوّةٌ بطبقةٍ من الدم المتجمّد،

والروائح لا تشبه شيئًا في عالم البشر؛

مزيجٌ من الحديد والرماد واللحم المحترق.

وفي أقصى القاعة، وعلى مسافةٍ ليست بقريبة، على عرشٍ مرفوعٍ من جماجم مخلوقاتٍ عملاقة،

كان يجلس هو...

لم أره كاملًا،

لكنّي رأيتُ جزءَه،

قرنًا واحدًا يلمع كحدّ السيف،

وجهًا نصفُه لرجلٍ ونصفُه لأنثى،

وعينين بلون الرماد المشتعل.

كان ساكنًا، بلا حركة، لكنّ وجوده وحده كفيلٌ بأن يوقف أنفاس كلّ من في القاعة.

حول العرش، عملاقان واقفان كتمثالين،

ومن الجهة المقابلة، طاولةٌ هائلةٌ على شكل نجمةٍ شيطانيةٍ يجلس حولها عددٌ من كبار الشياطين.

بدأوا الاجتماع، والجميع ركع على الأرض.

وبدأ أحد الشياطين بتوزيع الطعام،

وهمستُ في نفسي بسخريةٍ مكتومة:

"جميلٌ... حتى الشياطين تعرف كيف تُقيم الولائم".

ثم بدأوا الحديث.

قال أحدهم بصوتٍ أجشّ كحجرٍ يُسحق:

"سيحين قريبًا وقتُ الخطة الكبرى،

سننشر وباءً عالميًّا،

يُجبر البشر على المكوث في بيوتهم،

ليتوقّف عنهم ذلك النبضُ الروحيّ الذي يوقظ الأرض".

سأل شيطانٌ آخر:

"ولِمَ نحرم أنفسنا من معاصيهم في الشوارع؟".

فأجابه الأول بابتسامةٍ شيطانيةٍ باردة:

"حين يُغلقون أبوابهم،

تُغلق الأرض عن حركتها،

يتوقّف الطوافُ، وتسكنُ المساجد،

فيضمُرُ الضوءُ، ويقوى الظلام،

حينها سنمهّد لحليفنا الأكبر طريقَ الخروج".

كاد الدم يغلي في عروقي،

صمتُّ، لكن داخلي كان يصرخ،

كيف لمخلوقاتٍ كهذه أن تُقرّر مصيرَ عالمٍ كامل؟!

ثم رفع أحد الشياطين رأسَه نحو العرش وقال بصوتٍ مرتجفٍ:

"مولاي... هناك مشكلةٌ واحدة".

ساد صمتٌ مرعب،

توقّف الهواء،

وانخفضت الرؤوس،

حتى قال شيطانٌ آخر بخوف:

"وما هي تلك المشكلة التي تجرؤ على قولها أمام الملك؟".

قال الأول وهو يبلع ريقَه:

"الهلاليّون... إنهم يعطّلون مشاريعنا،

وقد انضمّ إليهم إنسيٌّ يُدعى مفتاحَ العالمين... قادرٌ على فتح البوابات النجمية!".

دحرجتِ الكلماتُ في داخلي كحجرٍ يسقط في ماءٍ ساكن، وقلتُ في سرّي: (والذي سيُغلقها إن تطلّب الأمر).

ثم سأل أحدُ الشياطين بلهفةٍ:

"أهو نفسه الملقّب بعين الذئب؟".

وأومأ آخر برأسه قائلًا بمرارةٍ:

"لم أنسَ ما فعل بي في سلسلة جبال قاف... لقد وعدتُه بأنني سأنتقم".

ثم صرخ شيطانٌ آخر:

"لقد ارتحنا حين حبَسنا قائدَ الهلاليّين في أغارثا، والآن يأتي هذا الشاب كشوكةٍ أخرى في حلقنا!".

ثم انقضَّ أحدُهم بصوتٍ منخفضٍ:

"كنتُ أراقب قوةَ هذا الشاب الملقّب بعين الذئب، وانتصاراته المتتالية... وسرعةَ تعلّمه التي تفوق الوصف، وتبيّنتُ لي أمورًا... شيئًا سيصدمكم جميعًا".

التفت إليه قائدُ الاجتماع بغضبٍ، وأمسك برقبتِه بقسوةٍ وفرغ صوتُه:

"إمّا أن تقول ما في جعبتك يا راضمُ مرّةً واحدة، أو تُكرمنا بسكوتك... انطق!".

صرخ راضم بصوتٍ ممزّقٍ بين الخوف والجرأة، كأنّ كلماته تُنزع من أعماقه انتزاعًا:

"عينُ الذئب... هو نفسه قائدُ الهلاليّين الذي كان يهزمنا دومًا!!!".

وانسكب الصمتُ على القاعة كبحرٍ انطفأت ناره فجأة.

توقّف كلّ شيء... حتى اللهبُ تراجع قليلًا كأنّه يُرهف السمع.

تجمّدت نظراتُ الشياطين في أماكنها، ووجوهُهم التي كانت تتراقص قبل لحظاتٍ من النشوة صارت رمادًا خامدًا، تتناوبها الظلالُ والرَّجفة.

انفتحَتْ أفواهُهم دون صوت، واهتزّت أجسادُهم كأوراقٍ في مهبّ عاصفةٍ غير مرئية.

بعضُهم أطلق عويلاً غريبًا يشبه نواحَ المذنبين، وبعضُهم خرَّ على ركبتيه يتمتم بكلماتٍ أشبه بالاعتراف أو باللعنة.

وفجأةً، تحرّك الكيانُ الجالسُ على العرش.

تصدّعت الأرض تحت خطوته الأولى، وتلجلج اللهبُ على الجدران كما لو ارتعب هو الآخر من استيقاظ سيّده.

ارتفع جسدُه شيئًا فشيئًا من العرش، حتى بدا كجبلٍ ينهض من سباته، ثم دوّى صوتُه في القاعة كالرعد المستعر، صدىً يهزّ القلوبَ قبل الحجارة:

"أريد هذا الشاب... حيًّا أو ميتًا!".

تزلزلت الجدران، وتشقّقت الرموزُ المنقوشة على الأرض، وصرخت الأرواحُ المقيّدة في الجدران كأنّها تُستدعى من عذابها الأبديّ.

سقطت الشياطينُ على وجوهها كالسيل، تسجد لا طاعةً بل رعبًا، وتُخفي عيونَها عن ذلك الصوت الذي اخترق أعماقها.

أمّا أنا... فبقيتُ واقفًا، كتمثالٍ في مهبّ نارٍ صامتة.

كنتُ وحدي في مواجهة الحقيقة، وشيءٌ كثيفٌ من الصدمة يهبط عليّ كعباءةٍ من غبارٍ أحمر.

تخثّر الزمن، وكأنّ اللحظة تمدّدت لتسع دهشتي كلّها.

تدافعت الأسئلةُ داخلي كأمواجٍ تتكسر على صخور عقلي:

كيف أكون أنا القائد؟ من أنا حقًّا؟ ومن هذا الذي يطلبونه حيًّا أو ميتًا؟

كنتُ واقفًا وسط وهجٍ دمويّ، تتراقص حولي ألسنةُ اللهب ككائناتٍ واعيةٍ تراقبني، والأنوارُ الحمراء تلقي بظلالٍ حادّةٍ على وجهي، فتنقسم ملامحي بين النور والظلام، كما لو كنتُ نصفَ إنسانٍ ونصفَ سرٍّ.

ثمّ، في خضمّ ذلك الارتجاجِ الصامت، تردّد في أعماقي صوتٌ خافت، لا أدري أهو من داخلي أم من بقايا ذاكرةٍ أزليةٍ كانت تنتظر هذه اللحظة،

صوتٌ يشبه الهمسَ الأول، قال لي بنبرةٍ تعرفني أكثر مما أعرف نفسي:

"أنتَ لستَ كما تظنّ... أنتَ المفتاح، وربّما كنتَ القفلَ أيضًا..."

انتهت الصفحة الأخيرة...

تُمَّ التحويل إلى صيغة نصية بكل حب للتفاصيل بواسطة :فرانك بيتر

من رفوف مكتبة جاز على تيليجرام

للإنضمام اضغط هنا